إسهامات العلماء والمستشرقين في الفكر الإسلامي

الدكتور محمد مختار المفتي

أمواج
للنشر والتوزيع

إسهامات
العلماء والمستشرقين
في الفكر الإسلامي

الدكتور محمد مختار المفتي

إسهامات العلماء والمستشرقين في الفكر الإسلامي

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

2012

رؤيتنا: العلم والثقافة أساسان متينان للحياة السوية على طريق النجاح والعمل الإبداعي
رسالتنا: نشر الإبداعات في شتى صنوف العلم والمعرفة بما يسهم في التطور مع المحافظة على الموروث لإعداد جيل صالح يرتقي بالأمة نحو الآفاق ويضعها في صدارة الأمم.
قيمنـــا: منارات ترشدنا لتحقيق رؤيتنا ورسالتنا

رقم التصنيف : 956
المؤلف ومن هو في حكمه : محمد مختار المفتي
عنوان الكتاب : إسهامات العلماء والمستشرقين في الفكر الإسلامي
بيانات الناشر : أمواج للنشر والتوزيع، عمان – الأردن 2012
عدد صفحات الكتاب : 260 صفحة
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية. :(2012/2/821)
الرقم المعياري الدولي (ISBN) :9789957528607
الواصفات : الفكر الإسلامي//الحضارة الإسلامية /
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.
تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

جميع حقوق الملكية الأدبية محفوظة ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة هذا الكتاب أو أي جزء منه أو إدخاله على الكمبيوتر أو ترجمته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

أمواج للنشر والتوزيع
الأردن - عمّـان
ماركا الشمالية - دوار المطار - ماركا سنتر
تلفاكس: 0096264888361
E-mail: amwajpub@yahoo.com

فهرس المحتويات

الموضوع **الصفحة**

فهرس المحتويات 5

المقدمة 11

الفصل الأول

إسهامات علماء المسلمين في الحركة الفكرية في بغداد

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي نموذجاً

تمهيد 17

ترجمة موجزة للخطيب البغدادي 19

المولد والنشأة 19

الرحلة في طلب العلم 20

معاودة الرحلة 21

أستاذ لشيوخه 22

منزلته في الحديث والتاريخ 23

مؤلفاته 24

وفاته 28

أهمية كتاب تاريخ بغداد 28

عنوان الكتاب ومضمونه 33

الموضوع	الصفحة

ترتيب الكتاب 34
منهج الخطيب في تاريخه 36
الحافظ الخطيب وأقواله في الجرح والتعديل 38
قيمة روايات الخطيب البغدادي ومنزلتها 39
ذيوله ومختصراته 41
أشهر طبعات الكتاب 42
أهم المصادر والمراجع 45
ملحق مصنفات الخطيب البغدادي في رسائل علمية 47

الفصل الثاني

إسهامات العلماء في إسلامية الدراسات اللغوية:

أحمد بدوي وعائشة بنت الشاطىء في التفسير الأدبي للنص القرآني

المبحث الأول: أحمد أحمد بدوي.. من بلاغة القرآن 51
المبحث الثاني: عائشة عبد الرحمن.. الإعجاز البياني، التفسير البياني 63

الفصل الثالث

الاتجاهات الحديثة عند المستشرقين الإيطاليين في الكتابة عن الرسول ﷺ والسيرة النبوية..

المستشرقة الإيطالية ريتا دي ميليو نموذجا

تعريف موجز بالكاتبة الإيطالية: الدكتورة ريتا دي ميليو 85
مضمون كتابها 86
كيف تفهم ريتا دي ميليو الإسلام؟ 87

الموضوع | الصفحة

نظرتها للسيرة النبوية 97
جهاد النبي ﷺ في كتاب ريتا دي ميليو 108
عقدت فصلاً في كتابها بعنوان: محمد النبي والإنسان 109
توصيات البحث 113
مراجع البحث 115

الفصل الرابع

دور الدعوة الإسلامية في توعية الحجاج وإرشادهم

الملخص 119
مقدمة 123
المبحث الأول: تعريف التوعية والدعوة 127
المبحث الثاني: علاقة التوعية في الحج بالدعوة الإسلامية 131
المبحث الثالث: الحج وعي وفهم 138
المبحث الرابع: وسائل دعوية في الحج 141
المبحث الخامس: صور ونماذج توعوية 154
خاتمة 165
التوصيات والمقترحات 167

الفصل الخامس

أثر الحرص على السنّة النبوية في ابتكار مناهج علمية جديدة

المبحث الأول: دور علماء السنة في نشأة مناهج علمية 175
أولاً: التمسك بالإسناد 176

الموضوع	الصفحة

ثانياً: الحرص على التوثيق 179
ثالثاً: الحذر من الوضع 184
المبحث الثاني: منهج السنة في تحقيق المعرفة 193
أولاً: المنهج النبوي البياني 194
ثانياً: كيفية تحقيق هذا المنهج للمعارف 199
خاتمة 209

الفصل السادس

السيرة النبوية في كتابات المستشرق الهولندي آرند جان فنسنك

لمحة عن مدرسة الاستشراق الهولندي 217
نماذج من رجال الغرب ومنهج تناولهم للشرق الإسلامي 219
أبرز أعلام مدرسة هولندا الاستشراقية 220
لمحة موجزة عن المستشرق الهولندي آرند جان فنسنك 223
فنسنك المشرف على موسوعة دائرة المعارف الإسلامية 225
فنسنك أهدافه ومآربه 226
مخالطات فنسنك في السيرة النبوية 229
حقيقة النبوة المحمدية في آراء المستشرق فنسنك 231
نماذج من الدس والتشويه في الإنتاج الموسوعي للمستشرق فنسنك 235
شعيرة الحج وتنقيبات المستشرق فنسنك في أصولها 235
رؤية المستشرق الهولندي فنسنك لشعيرة الصلاة في «دائرة المعارف الإسلامية» شبهة ورد 238
فنسنك والزيف العلمي... قصة بحيرا الراهب 245

الموضوع | الصفحة

فنسنك والعقيدة الإسلامية 246
الإسلام والمسيحية 247
القرآن ـ في زعم المستشرق فنسنك ـ لا يحتوي على العقيدة الإسلامية بصورة واضحة 248
كلمة أخيرة 252
التوصيات 255
المراجع 257

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com
رابط بديل

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فإن المؤتمرات العلمية وجهٌ حضاريٌّ للدول والمؤسسات والمراكز العلمية، حيث تُعدّ أحد المعايير العلمية المهمة لتقدم الدول، ولها أهميةٌ قُصوى في دفع عجلة البحث العلمي قُدُماً، وفي التبصير بأهم المستجدات العلمية المعاصرة.

وتمثل أيضاً تعزيزاً وتشريفاً للدول والباحثين على الصعيد المحلي والعالمي. والمؤتمرات فيها إضافة للبحث العلمي وفيها صقل للخبرات وترسيخ للمعارف العلمية ومساهمة في زيادة الخبرات وتبادلها.

والمؤتمرات كذلك وسيلة للتعارف على المشاركين والباحثين من دول مختلفة وتكوين علاقات وتبادل التعارف للتواصل معهم، ثم إن هذه الملتقيات العلمية التي يتحدث فيها نخبة من العلماء والباحثين تعد إحدى الوسائل التعليمية المستمرة المهمة، فهي فرصة للمتخصصين للمراجعة والتقييم والحوار والنقاش، والاستفادة من الدراسات والخبرات والتجارب العلمية، وتوطيد العلاقات بين

المراكز العلمية والجامعات العالمية، مما يساهم في زيادة الوعي والفهم، ورفع المستوى التعليمي والأكاديمي للباحثين، وتُعد أيضاً هذه الندوات والملتقيات إحدى وسائل التبصرة العلمية المهمة للمشاركين، وهذا الأمر يتطلب من وسائل الإعلام متابعة واهتماماً متزايداً، وحماساً إعلامياً واسعاً ومتميزا لهذه الندوات. فعن طريقها يمكن نشر الوعي العلمي في المجتمع، وإبراز أهمية الملتقيات العلمية في دفع عجلة التنمية والتطور في جميع المجالات، ونشر ثقافة الوعي بأهمية البحث العلمي ودوره في المجتمع، وكذلك تقدير دور العلم والعلماء، وذلك بإجراء حوارات علمية مع العلماء المشاركين في هذه المؤتمرات وتعريف الجمهور بالمفاهيم والقضايا العلمية الحديثة. وفي ختام كل مؤتمر أو ملتقى علمي شاركت فيه كنت أسأل نفسي الأسئلة الآتية:

- هل حقق المؤتمر الهدف الذي عقد من أجله؟
- ما هي أهم النتائج العلمية التي تم التوصل إليها في المؤتمر؟
- ما هي الجوانب الإيجابية التي تحققت من هذا المؤتمر؟
- ما هي الجوانب السلبية التي حدثت في هذا المؤتمر؟
- ما مدى الالتزام بتفعيل توصيات المؤتمر من جانب الجهات المعنية بالنتائج العلمية للمؤتمر.

وحرصاً مني على إطلاع القارىء الكريم على هذه الأوراق العلمية التي قدمتها في الملتقيات العلمية، وحتى لا تبقى حبيسة الأدراج والرفوف، فقد جمعتها في هذا الكتاب الذي حمل عنوان: «**إسهامات العلماء والمستشرقين في الفكر الإسلامي**» لتعمّ الفائدة وليكون بين يدي الباحثين وطلبة العلم، وقد اخترت منها

البحوث التي كتبتها وشاركت فيها في السنوات الخمس الأخيرة. وفي الختام لا يفوتني أن أنبه إلى أن أعمال البَشر يعتريها الخطأ والنسيان، فإن وفقت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي، ولا يستغني أحد عن التسديد والنصيحة والتوجيه، ولا يستقيم أمره إلا بتوفيق مولاه، فنسأل الله التوفيق والسداد، والعون والرشاد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

25/ نيسان/ 2011م

الفصل الأول

إسهامات علماء المسلمين في الحركة الفكرية في بغداد
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي
(ت 463هـ ـــ 1076م) نموذجاً[1]

(1) مقدم للمؤتمر العالمي، بغداد (مدينة السلام) في الحضارة الإسلامية، مؤتمر نظمته كلية الإلهيات بجامعة مرمرة ومركز بحوث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية وبلدية عمرانية، استانبول ـ تركيا، ذو القعدة 1429هـ تشرين الثاني (نوفمبر) 2008م.

تمهيد

تطورت الكتابة التاريخية عند المسلمين تطوراً هائلاً، وشملت مناحي الحياة المختلفة وسجلت دقائقها، وترجمت لأعلامها، وكان من بين صور التأليف التاريخي التي شاعت منذ منتصف القرن الثالث الهجري ما يُعرف بالتاريخ المحلي؛ حيث يعمد المؤرخ إلى الكتابة عن مدينته، ويؤرخ لها دون غيرها من المدن؛ اعتزازاً بها، وتسجيلاً لحركتها الفكرية، وبدأت تظهر سلسلة من تواريخ المدن توافر على كتابتها عدد من أبنائها، حتى أضحت كتابة هذه التواريخ البلدانية تقليداً لدى العلماء تتوارثه الأجيال.

وتوالت الكتب التي تتناول المدن الكبيرة وحواضر الدول؛ مثل: بغداد، ودمشق، والقاهرة، ومكة، وحلب، وهي كتب تتناول تاريخ هذه المدن ـ لا على أساس أحداثها السياسية وخلفائها ووزرائها وولاتها ـ ولكن على أساس رجالها وعلمائها الذي ملأوا مساجدها ومدارسها درساً وتأليفاً، وصار الإطار المكاني هو الذي يربط بين علمائها، وجرى تنظيم هذه المؤلفات على أساس الترتيب الألفبائي، وكان من شأن هذه الكتب أنها حفظت لنا الحركة الحضارية وفاعلياتها داخل تلك المدن، ولم تشغل نفسها بالأحداث السياسية وأدوار رجالها.

ولما دعيت للمشاركة في ورقة بحثية في مؤتمر بغداد مدينة السلام، اخترت تسليط الضوء على محور إسهامات علماء المسلمين في الحركة الفكرية في بغداد، وكان أول ما انقدح في ذهني الكتابة عن تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. إذ كان رحمه الله ممن أسهموا في هذا الجانب التاريخي بكتابه الكبير «تاريخ بغداد» الذي جمع فيه خلاصة ترجمة العلماء الذين عرفتهم بغداد حتى أواسط القرن الخامس الهجري، وأصبح مثالاً احتذى به كل من تطرّق إلى التاريخ للمدن مثل: ابن عساكر في كتابه «تاريخ دمشق»، وابن العديم في كتابه «بغية الطلب في تاريخ حلب».

ترجمة موجزة للخطيب البغدادي[1]

المولد والنشأة:

في «غزية» من قرى الحجاز ولد أحمد بن علي بن ثابت في يوم الخميس الموافق (24 من جمادى الآخرة 392هـ = 1 من ديسمبر 1534م) ونشأ في «درزيجان»، وهي قرية تقع جنوب غرب بغداد؛ حيث كان أبوه يتولى الخطابة والإمامة في جامعها لمدة عشرين عاماً، وعُني به أبوه عناية فائقة، فدفع به إلى من أدَّبه وحفظه القرآن، ولما اشتد عوده بدأ يتردد على حلقات العلم في بغداد، وكانت آنذاك تموج حركة ونشاطاً بعلمائها وفقهائها، فالتزم حلقة «أبي الحس بن رزقوية»، وكان محدثاً عظيماً، له حلقة في جامع المدينة ببغداد، وتردد على حلقة أبي بكر البرقاني، وكان مبرزاً في علم الحديث، فسمع منه وأجازه، واتصل بالفقيه الشافعي

(1) درس حياته كل من يوسف العش في كتابه: «الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها»، وأكرم ضياء العمري في كتابه «موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد»، وبشار عواد معروف في مقدمة تحقيقه لـ«تاريخ مدينة السلام» للخطيب البغدادي، ومحمود الطحان في كتابه: «الحافظ الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث»، وخلدون الأحدب في كتابه «زوائد تاريخ بغداد على الكتب الستة»، ويوسف السعيد في تحقيقه «القول في علم النجوم» وترجم له: ابن عساكر في تاريخ دمشق (7، 22) وابن الجوزي في المنتظم (8، 265) وياقوت في معجم الأدباء (1، 384) وابن الأثير في الكامل (10، 68) وابن خلكان في وفيات الأعيان (1، 92) والذهبي في سير أعلام النبلاء (18، 270).

الكبير «أبي حامد الإسفرائيني»، وتتلمذ على يديْه، كما التقى بالعلماء الواردين على بغداد، وأخذ عنهم.

الرحلة في طلب العلم:

كانت الرحلة في طلب العلم من التقاليد عند علماء المسلمين؛ فبعد أن ينهل الطالب من علماء بلدته والبلدان المحيطة يبدأ في الاستعداد للرحلة إلى الحواضر الكبرى، وقد ألف الخطيب البغدادي رسالة في هذا الموضوع باسم «الرحلة في طلب الحديث»، أورد فيها الأحاديث والآثار التي جاءت في فضل الرحلة، وسجل رحلات الصحابة والتابعيين ومن جاء بعدهم، وبيَّن الغرض من الرحلة وهو تحصيل علو الإسناد، ولقاء الحفاظ والمذاكرة معهم.

كانت البصرة هي المدينة التي قصدها، وهو في العشرين من عمره في سنة (412 هـ، 1021م) والتقى بعلمائها الكبار وأخذ عنهم، ثم عاد إلى بغداد في السنة نفسها، وبدأ اسمه في الذيوع والانتشار، ثم عاود الرحلة بعد مضي ثلاث سنوات على رحلته الأولى، واتجه إلى نيسان بمشورة شيخه أبي بكر البرقاني سنة (415هـ،1024م) وفي طريقه إليها مر بمدن كثيرة كانت من مراكز الثقافة وحواضر العلم، فنزل بها وأخذ عن شيوخها، حتى إذا استقر بنيسابور بدأ في الاتصال بعلمائها وشيوخها، فأخذ عن أبي حازم عمر بن أحمد العبدوي، وأبي سعيد بن محمد بن موسى بن الفضل بن ساذان، وأبي بكر أحمد بن الحسن الحرشي، وصاعد بن محمد الاستوائي وغيرهم، ثم عاد إلى بغداد.

ثم عاود الرحلة إلى أصبهان سنة (421 هـ ،1030م)، واتصل بأبي نعيم الأصبهاني صاحب «حلية الأولياء»، فلازمه وروى عنه، كما روى عن عدد من

العلماء والمحدثين، وأخذ عنهم رواياتهم، وكرّ راجعاً إلى بغداد، واستقر بها مدة طويلة.

أصبح الخطيب البغدادي معقد الآمال في بغداد، ومقصد الطلاب من كل مكان، وموضع احترام الناس وتقديرهم، يلجأون إليه في الملمات، وحدث أن أظهر بعض اليهود في سنة (447هـ 1055م) كتاباً ادعوا فيه أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادات الصحابة، وذكروا أن خط علي فيه، فلما أُرسل الكتاب إلى وزير الخليفة القائم بأمر الله عرضه على الخطيب البغدادي، فتأمله ثم قال: هذا مزوَّر؛ فلما قيل له: كيف عرفت ذلك؟ قال: من شهادة معاوية؛ فهو أسلم عام الفتح سنة (8 هـ 629م)، وفُتحت خيبر في سنة (7هـ، 628م)، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وقد مات يوم بني قريظة قبل خيبر بسنتين، فاستحسن الوزير ذلك من الخطيب، ولم يُجزهم الوزير على ما جاء في الكتاب، وأخذ منهم الجزية.

وما قام به الخطيب دليل على سعة علمه وتبحره في التاريخ، ومعرفته الدقيقة بالرجال والنقد التاريخي، والبصر الدقيق بالسند والمتن، وقد رفعت هذه الحادثة مكانته عند وزير الخليفة؛ فجعله مرجع الخطباء والوعاظ في الحديث؛ فلا يروون حديثاً حتى يعرضوه عليه؛ ليرى درجته ومبلغ صحته وضعفه؛ فإن كان صحيحاً أذاعوه، وإن كان ضعيفاً ردوه.

معاودة الرحلة:

ظل الخطيب في بغداد حتى سنة (451هـ 1059م) عاكفاً على التأليف،

مشتغلا بتدريس الحديث وإملائه بمسجد المنصور، ثم غادرها إلى «دمشق» تسبقه شهرته الواسعة، وكان قد سبق له أن زارها كثيراً قبل هذه الرحلة، لكنه في هذه المرة طالت به فترة إقامته، وكان يعقد مجلسه في الجامع الأموي؛ يحدث بمصنفاته ومروياته وسط حشد هائل من تلاميذه وطلبة العلم ومحبيه، وكانت دمشق آنذاك تابعة للدولة الفاطمية، فسعى الوشاة إلى إحداث وقيعة بينه وبين الفاطميين، واستندوا إلى أنه يحدث بكتاب «فضائل الصحابة الأربعة» للإمام أحمد بن حنبل وفضائل العباس لأبي الحسن بن رزقويه، وكادت الوشاية تؤدي إلى قتله لولا تدخل بعض العارفين لقدر الإمام، فعملوا على إخراجه من دمشق، وتوجه إلى صور سنة (459هـ 1066 م) وكان يحدث بجامعها، ويزور القدس ويعود ثانية، ثم غادر «صور» بعد أن مكث بها فترة طويلة، وقصد «طرابلس» سنة (462ه، 1069م)، ثم اتجه إلى حلب، ثم عاد في السنة نفسها إلى بغداد بعد غياب طويل عنها دام نحو أحد عشر عاماً، فوصلها في (ذي الحجة 462ه، 1069م)، واستأنف سيرته العلمية.

أستاذ لشيوخه:

اشتهر الخطيب بكثرة مروياته وسعة علمه؛ فروى عنه كثيرون، بعضهم كان من شيوخه، مثل شيخه أحمد بن محمد البرقاني، وأبي القاسم الأزهري، وبعضهم من زملائه وأقرانه مثل أبي إسحاق الشيرازي، والحافظ ابن ماكولا، وأبي عبد الله الحميدي الأندلسي. أما طلابه وتلاميذه فكثيرون، منهم: عبد الكريم بن حمزة مسند الشام، وأبي بكر المرزقي، وهبة الله الأكفاني، وأبي زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي، وأبي الوفاء علي بن عقيل الفقيه المعروف.

منزلته في الحديث والتاريخ:

جمهور أهل العلم مطبق على إمامة الخطيب البغدادي في الحديث وعلومه وتحرّيه، وإتقانه وعلو منزلته في التاريخ والتراجم.

قال الحافظ ابن ماكولا: إن الخطيب البغدادي كان آخر الأعيان، ممّن شاهدناه معرفة، وإتقانا وحفظا وضبطا لحديث رسول الله ﷺ، وتفنّنا في علته وأسانيده، وخبرة برواته وناقليه، وعلما بصحيحه وغريبه وفرده ومنكره وسقيمه ومطروحه ولم يكن للبغداديين بعد أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني من يجري مجراه، ولا قام بعده منهم بهذا الشأن سواه، وقد استفدنا كثيراً من هذا اليسير الذي نحسنه به وعنه، وتعلّمنا شطراً من هذا القليل الذي نعرفه بتنبيهه ومنه، فجزاه الله عنا الخير، ولقّاه الحسنى.

ـ قال الساجي: ما أخرجت بغداد بعد الدارقطني مثل الخطيب.

قال شيخه أبو إسحاق الشيرازي الفقيه: أبو بكر الخطيب يشبه بالدارقطني ونظرائه في معرفة الحديث وحفظه.

واتفقت كلمة المحدثين على توثيق الخطيب والثناء عليه، وأنه حجة ثبت في نقوله، بارع في مؤلفاته، متقن لرواياته[1].

(1) انظر في ثناء العلماء عليه وتوثيقه ومكانته عند العلماء: تذكرة الحفاظ للذهبي 3، 1137، طبقات الشافعية للسبكي4، 31، الأنساب للسمعاني5، 151، وفيات الأعيان لابن خلكان1، 76، المنتظم لابن الجوزي8، 267

مؤلفاته:

قضى الخطيب عمره في طلب العلم، والرحلة إلى شيوخه، يأخذ عنهم مصنفاتهم ومروياتهم، وعني بالحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والأدب والتاريخ والأخبار، وإن كانت شهرته باعتباره حافظاً قد غلبت عليه؛ لأن عنايته بالحديث وعلومه قد استأثرت بمعظم جهوده، ويتضح ذلك من قائمة مؤلفاته؛ حيث تحتل كتب الحديث وعلومه المرتبة الأولى من بينها.

ويبلغ مجموع مؤلفاته ستة وثمانين كتاباً، سأورد المطبوع منها:

«**الكفاية في علم الرواية**»، وهو من أهم الكتب التي أُلفت في علم مصطلح الحديث؛ حيث اشتمل على فنون هذا العلم ومصطلحاته المستعملة في كتب الحديث وتحديد معانيها بدقة، وقد استفاد من الكتاب كل من تعرض لهذا العلم الجليل مثل القاضي عياض، وابن الصلاح.

وقد طبع الكتاب في الهند أولا عام (1357هـ)، ثم طبع في مصر في مطبعة السعادة عام (1972م) بعناية الأستاذين عبد الحليم محمد وعبد الرحمن حسن. ثم طبع بتحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، (2006م).

وله «**الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع**» تناول فيه آداب طالب علم الحديث، وهيئته وكيفية تعامله مع شيخه، وسلوكه في حضرة مجلسه، وتعرض لمظهره وكلامه ومشيه ومجلسه، وبيَّن آداب معاملة الشيخ لتلاميذه وتوقيره لهم، وتعرض لمظهره وكلامه ومشيه ومجلسه، وتحرِّيه الصدق، واختياره الرواية من أصل مكتوب، وما يلزمه معرفته من النحو والصرف؛ وذكر صفة مجلس المحدث

ووقته وموضعه، وغير ذلك من مباحث الكتاب. طبع الكتاب بتحقيق الدكتور محمد رأفت سعيد، ونشرته مكتبة الفلاح بالكويت عام (1401هـ، 1981م) ثم طبع ثانية بتحقيق الدكتور محمود الطحان، ونشرته مكتبة المعارف بالرياض عام (1403هـ 1983م)، ثم طبع بتحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب، ونشرته مؤسسة الرسالة في بيروت عام (1412هـ، 1991م).

وله أيضاً «**شرف أصحاب الحديث**» تحقيق الدكتور محمد سعيد أوغلي، دار إحياء السنة النبوية، مطبعة جامعة أنقرة، تركيا، الطبعة الأولى (1971م) ثم طبع في عالم الكتب، بيروت (2003م).

و«**نصيحة أهل الحديث**»، طبع عدة طبعات آخرها عام (1408ه، 1988م) تحقيق زميلنا الدكتور عبد الكريم الوريكات، مكتبة المنار، الأردن.

وله «**الفقيه والمتفقه**» تحقيق أكرم ضياء العمري، مجلة كلية الإمام الأعظم، بغداد (1972م) وطبع أيضا بمطابع القصيم بالرياض عام (1389هـ) بعناية إسماعيل الأنصاري. كما حققه عادل العزازي، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى (1417هـ 1996م).

و«**اقتضاء العلم العمل**» طبع بدمشق عام (1385هـ) بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

و«**البخلاء**»طبع في مطبعة العاني ببغداد سنة (1964م) بتحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي وأحمد ناجي القيسي.

و«**التطفيل وحكاية الطفيلين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم**» نشره

حسام الدين القدسي في دمشق عام (1346هـ) وحققه عبد الله عبد الرحيم، دار المدني، جدة (1986م) وله طبعات أخرى.

و«**الإجازة للمعدوم والمجهول**»وهي رسالة صغيرة طبعت مع عدة رسائل بعناية صبحي السامرائي في مطابع المجد بالقاهرة عام (1389هـ) وحققها الدكتور صالح يوسف معتوق، مجلة الأحمدية، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي العدد (6).

وله «**تقييد العلم**»، طبع بتحقيق الدكتور يوسف العش، ونشره المعهد الفرنسي- بدمشق عام (1949م).

و«**الرحلة في طلب الحديث**»، طبع أولا في القاهرة عام (1389هـ) ضمن مجموعة رسائل بعناية صبحي السامرائي، ثم حققه الدكتور نور الدين عتر ونشره بدمشق عام (1395هـ، 1975م).

و«**المتفق والمفترق**»تحقيق محمد صادق الحامدي، دار القادري، بيروت (1997م).

و«**موضح أوهام الجمع والتفريق**»، طبع في حيدر آباد الدكن بالهند عام (1378هـ، 1959م) بتحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني.

و«**الفصل للوصل المدرج في النقل**» تحقيق زميلنا الدكتور عبد السميع الأنيس، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى (1418هـ، 1997م)، ومطبوع أيضا بتحقيق محمد مطر الزهراني، دار الهجرة، السعودية، الطبعة الأولى سنة (1418هـ، 1998م)، وحققه محمود نصار، الكتب العلمية، بيروت (2003م).

و«**الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة**» طبع في مطبعة المدني في مصر عام (1405هـ 1984م) بتحقيق عزالدين علي السيد وهو من منشورات مكتبة الخانجي.

و«**السابق واللاحق في تباعد ما بين وفاة راويين عن شيخ واحد**» نشرته دار طيبة في الرياض عام (1402هـ 1982م) بتحقيق محمد بن مطر الزهراني.

و«**تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم**» حققته سكينة الشهابي، مكتبة طلاس، دمشق (1985م) وحققه محمد إسماعيل دار الكتب العلمية، بيروت. (2003م).

و«**تالي تلخيص المتشابه**»تحقيق مشهور حسن، دار الصميعي، ط1، الرياض (1997م).

وله«**القول في علم النجوم**» تحقيق يوسف السعيد، دار أطلس، الرياض، الطبعة الأولى (1420هـ 1999م).

وله «**ذكر صلاة التسبيح**» تحقيق فراس مشعل، الدار الأثرية، عمان، الأردن. وحققته أيضا الدكتورة إيمان علي عبد الغني، دار البشائر، بيروت.

وله رسالة «**الصفات**» تحقيق أحمد فريد المزيدي، طبعت مفردة ضمن مجموع في دار الكتب العلمية، بيروت، (1425هـ).

وله «**تاريخ الأنبياء**» تحقيق آسيا كليبان علي البارح، دار الكتب العلمية، بيروت (2004م).

و«**مسألة الاحتجاج بالشافعي فيما أسند إليه والرد على الطاعنين لعظم جهلهم عليه**» تحقيق الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر، مجلة البحوث الإسلامية، العدد 2، (1400هـ) الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض (1980م).

وله «**تاريخ بغداد**» الذي سأشير إلى طبعاته في خاتمة البحث، صنفه الخطيب البغدادي لخدمة الحديث كما أشرت من قبل.

هذه أهم الكتب والرسائل المطبوعة والمتداولة. وله مصنفات أخرى ذكرها العلماء في العقائد والفقه وأصوله والزهد والرقائق والأدب.

وفاته:

بعد عودة الخطيب البغدادي من الشام واستقراره سنة (462هـ 1069م) قام بالتدريس في حلقته بجامع المنصور، واجتمع حوله طلابه وأصحابه، غير أن حياته لم تطُل، فلقي ربه في (7 من ذي الحجة 463م).

أهمية كتاب تاريخ بغداد:

موضوع كتاب «تاريخ بغداد» علم الرجال، وهو أحد فروع علم التاريخ.

يعد «تاريخ بغداد» من أهم واكبر مؤلفات الخطيب البغدادي احمد بن علي ابن ثابت (ت463 هـ 1076م) وأكثرها شهرة على الإطلاق، وهو موسوعة علمية تاريخية في تراجم الرجال، ونال من أجله صاحب الكتاب صيتاً ذائعاً لما تميز به من ميزات عظيمة، وهو أوسع مصدر عن الحياة الفكرية في بغداد، ويعد أول كتاب وصل إلينا تناول تاريخ علماء بغداد منذ تأسيسها إلى عصر المؤلف منتصف القرن الخامس الهجري.

وتظهر أهمية الكتاب بما حواه من تراجم بلغت حوالي 7831 ترجمة شملت هذه التراجم العلماء من فقهاء ومحدثين فضلا عن رجال الدولة من خلفاء ووزراء. وكما تجلت أهميته في المقدمة التي وصف بها مدينة بغداد منذ تأسيسها حيث بين فيها مراحل بنائها من اختيار المكان وتخطيطه والعاملين فيها واعتمد في ذلك على الذين سبقوه مثل اليعقوبي والطبري وابن طيفور وغيرهم. ولقد وصف الدكتور العمري تاريخ بغداد (بتاريخ النخبة) لأن الخطيب تناول في كتابه العلماء البارزين وأصحاب الكفاءات وخاصة العلماء الذي ينتمي إلى طبقتهم[1].

وتكمن أهمية هذا المؤلف في توضيح الجوانب الحضارية لمدينة بغداد حيث بيّن في ثنايا كتابه مظاهر الحياة الثقافية والتعليمية المتمثلة في بيان طرائق التدريس ومناهج العلماء ومقاييسهم وعلاقتهم مع تلاميذهم ومعرفة المدارس التي ظهرت في بغداد وبيّن المناظرات العلمية بين العلماء والحلقات الدراسية في المساجد.

وأظهر الكتاب أهمية بغداد في العالم الإسلامي ومكانتها العلمية الكبيرة إذ وضح كثرة ورود الطلاب إلى بغداد لطلب العلم من علمائها، كما بين الكتاب مدى الاتصال الفكري والتعاون بين بغداد ومدن العالم الإسلامي.

ورد في الأثر أن مناقشة دارت بين عالمين فسأل أحدهما الآخر هل زرت بغداد فقال: لا، فقال له أنك لم تر الدنيا.

وتكمن أهمية كتاب تاريخ بغداد العظمى في اهتمامه بمجال الحديث

(1) الدكتور أكرم ضياء العمري ـ موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ـ دار طيبة ـ الرياض 1405، 1985، ص108.

الشريف إذ ترجم لحوالي خمسة آلاف محدث ويبدو انه وضعه في الدرجة الأولى لخدمة علم الحديث والسنّة النبوية من خلال تراجم رجال الحديث، وقد عني ببيان حالهم من الجرح والتعديل، وفي جانب رواية الحديث اشتمل على 4385 حديثا حسب إحصاء قام به الدكتور خلدون الأحدب وقد ساق الخطيب البغدادي الروايات كلها بأسانيده. وهو عدد يزيد على عدد أحاديث بعض الأصول الستة.

من هنا يتبين لنا جانب من جوانب أهمية كتاب «تاريخ بغداد» بوصفه مصدرا من مصادر الحديث الشريف[1].

وتظهر أهميته كذلك بالتعريف بالكثير من الكتب المفقودة في مجالات مختلفة وذكر الكثير من الكتب التي لم يذكرها ابن النديم في الفهرست وتبلغ (298) كتاباً، وتبلغ مجموع الكتب التي ذكرها في كتابه حوالي (446) كتابا، ألفت جميعاً خلال القرون: الثالث والرابع والخامس، وهي في موضوعات شتى هي: علوم القرآن والقراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، والعقائد والفرق، والرقائق والتصوف؛ وكتب أخرى متفرقات.

وعند مقارنة هذه القائمة بكتاب الفهرست لابن النديم تبين أن الخطيب البغدادي ذكر 298 كتاباً لم يذكرها ابن النديم، مما يدل على أهمية الإضافة التي قدمها الخطيب البغدادي بسبب ذكره مصنفات أصحاب التراجم[2].

(1) انظر زوائد تاريخ بغداد، 1، 82.

(2) انظر أكرم العمري، موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ص91.

وأصبح تاريخ الخطيب مصدراً مهما لكثير من مؤرخي الإسلام الذين استفادوا منه كثيراً وأصبح لهم مرجعاً رئيساً في كتبهم، وهذا السبكي (ت771هـ) قال عنه: يعدّ من محاسن الكتب الإسلامية[1].

وأثنى عليه طاش كبرى زاده (ت 965هـ) بقوله: «كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحّرين ولو لم يكن له سوى التاريخ لكفاه فإنه يدل على اطلاع عظيم»[2].

ومما يدعو إلى اليقين أن اعتماد المؤرخين في كتبهم على تاريخه يدل على ثقتهم به وبمادته.

ومن المؤرخين من اعتمد على كتاب الخطيب البغدادي مثل:

ابن ماكولا (ت 475هـ) في كتابه «الإكمال».

وأبو يعلى (ت526هـ) في «طبقات الحنابلة».

والسمعاني (ت 562هـ) في «الأنساب».

وابن عساكر ت571هـ) في «تاريخ دمشق».

وابن الجوزي (ت597هـ) في «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» وأيضاً في كتابه «المصباح المضيء في أخبار المستضيء».

والحموي (ت 626هـ) في كتابيه «معجم البلدان» و«إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب».

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى3، 59 تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة (1413 هـ 1992م).

(2) مفتاح السعادة ومصباح السيادة 2، 33، دار الكتب العلمية.

ابن خلكان (ت 681هـ) في «وفيات الأعيان».

والمزي (ت 742هـ) في «تهذيب الكمال».

والذهبي (ت 748هـ) في جميع كتبه مثل «تذكرة الحفاظ» «العبر» و«سير أعلام النبلاء» وغيرها.

والسبكي (ت 771هـ) في «طبقات الشافعية».

والصفدي (ت 764هـ) في «الوافي».

وابن كثير (ت 774هـ) في «البداية والنهاية» وغيرهم من المؤرخين [1].

فكان الخطيب البغدادي ممن أسهموا في هذا الجانب التاريخي بكتابه الكبير «تاريخ بغداد» الذي جمع فيه خلاصة ترجمة العلماء الذين عرفتهم بغداد حتى أواسط القرن الخامس الهجري، وأصبح مثالا احتذى به كل من تطرق إلى التاريخ للمدن مثل ابن عساكر في كتابه «تاريخ دمشق»، وابن العديم في كتابه «بغية الطلب في تاريخ حلب».

ويكفي هذا الكتاب أهمية في استخدام الخطيب لمئات المصادر في تأليف هذه الموسوعة التاريخية واستعماله الإسناد ودقته في النقل منها مما حفظ لنا ثروة عظيمة من النصوص.. وقد بينت الدراسة التي قام بها الدكتور أكرم العمري لموارد تاريخ الخطيب ضخامة الموارد التي استقى منها المؤلف مادته[2].

(1) انظر أكرم العمري، موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ص90.

(2) انظر مقدمة بشار عواد في تحقيقه لـ«تاريخ مدينة السلام» للخطيب البغدادي ص111.

عنوان الكتاب ومضمونه:

عنوان الكتاب مفصلاً هو «تاريخ بغداد أو مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطّانها العلماء من غير أهلها ووارديها» هذا ما اتفقت عليه النسخ الأصلية.

وقد ألفه الخطيب البغدادي من رجال القرن الخامس الهجري وكان حافظاً للقرآن ومؤرخاً وفقيهاً وأديباً وقد عرف بغزارة مؤلفاته.

وعيّن المؤلف إطار بحثه المسهب في مقدمة موجزة لا تتجاوز صفحة واحدة قال فيها: «هذا كتاب تاريخ مدينة السلام وخبر بنائها وذكر كبراء نزّالها وذكر وارديها وتسمية علمائها»[1].

وواضح من عنوان الكتاب ومن هذه الكلمات الممهدة أن الكتاب تأريخ مسهب لعاصمة العباسيين.

وأن الشطر الأوفى منه تناول موضوع التراجم بصورتها العامة أي كما قال الخطيب أنه في ذكر كبراء ونزّال بغداد ووارديها وعلمائها. فالكتاب رغم عنوانه الذي يوحي أنه ينطوي على مادة تاريخية هو في حقيقته كتاب تراجم في الدرجة الأولى.

وهو يشبه إلى حد ما كتاب نفح الطيب للمقرّي من حيث احتواؤه تاريخ البلد وجغرافيته ثم تراجم أعلامه.

وإذا علمنا مدى أهمية بغداد في القديم وأنها أكبر حواضر العلم والفكر

(1) تاريخ بغداد ج1ص30 تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية.

والسياسة في التاريخ العربي الإسلامي وما عاش خلاله من رجال أعلام على مر العصور حتى عهد المؤلف أدركنا قيمة هذا الكتاب وفهمنا سبب ضخامته.

والكتاب في ظاهر اسمه مقصور على بغداد كما يوحي عنوانه ولكنه يتعدى هذا النطاق في الواقع لأنه رصد للحركة العلمية الشاملة في عهد العباسين الزاهر وبخاصة في حاضرتهم بغداد، بل إنه موسوعة ضخمة تتناول كل ما يتعلق بدار السلام وحضارتها. وقد أحسن المؤلف صنعاً حين ترجم لمن وفدوا عليها وألموا بها من خارجها.

وبهذا غدا طابع «تاريخ بغداد» عاماً شاملاً إذ قلما نبغ عالم أو شاعر أو أديب أو فقيه دون أن ينزل بمدينة السلام أو يلم بها. ولهذا نجد تراجم العديد من غير البغداديين أصلاً كابي الطيب المتنبي وسواه.

ومثل هذا الشمول في مادة الكتاب يتجلى في تراجم أعلام البغداديين والوافدين عليها من الخلفاء والملوك والوزراء والنحاة والصرفيين والبيانيين واللغويين والقراء والمفسرين والمحدثين والمتكلمين والمنطقين والفقهاء والقضاة والزهاد والمتصوفة والقصاص والوعاظ والرياضيين والحسّاب والفلكيين والمنجمين والموسيقيين والأطباء والصيادلة والجراحين والكتّاب والخطاطين والشعراء والمؤرخين والمغنين وحذاق الصناع والرماة والفرسان والنابغين.

ترتيب الكتاب:

المنهج الذي آثر الخطيب البغدادي اتباعه في عرض تراجمه لم يكن وفقاً للتسلسل الزمني كما قد يوحي بذلك عنوان الكتاب «تاريخ بغداد» ولكنه جنح إلى

الترتيب المعجمي وهذا المنهج أجدى في مثل هذه الكثرة البالغة في عدد التراجم وأيسر تناولاً على الباحث.

وقد تكلم المؤلف في الجزء الأول من كتابه على إنشاء بغداد أيام أبي جعفر واصل تسميتها وعلى أسواقها وجسورها ومساجدها ومساحتها.

وبعد ذلك شرع في الترجمة لأعلام أهلها جاعلاً القسم الأول من ذلك في الترجمة للوافدين على المدائن القريبة منها وهم من الصحابة وفي رأسهم علي والحسن والحسين وسعد وابن مسعود وابن ياسر وأبو أيوب الأنصاري وسلمان الفارسي وعبد الله بن عمر ومعاوية والمغيرة أيام الفتح وبعده رضي الله عنهم أجمعين.

ثم ينتقل المؤلف إلى التراجم العامة مقدماً أسماء المحمدين على غرار كتاب بغية الوعاة للسيوطي.

كذلك نلاحظ أن الخطيب أيضاً لا يراعي الدقة في ثواني حروف الأسماء فهو مثلاً يبدأ من اسمه محمد واسم أبيه اسحق ثم من اسم أبيه أحمد ثم من اسم أبيه إبراهيم على حين كان ينبغي له أن يفعل العكس.

ويبدو أن أكثر المؤلفين حتى هذا القرن الخامس عصر المؤلف لم يكونوا يعبؤون بهذه الناحية التفصيلية في الترتيب المعجمي[1] ولكن نستطيع القول بأنه كان يقدم تراجم المتقدمين على المتأخرين دائماً.

قلنا أن الخطيب رتب تاريخه على أساس الحروف وبدأ كتابه باسم محمد تكريما لرسول الله ﷺ وبدأ بمحمد بن إسحاق وقال معتذراً انه بدأ به لأنه لم يجد

(1) مصطفى عطا، مقدمة التحقيق 1، 28.

اكبر سناً وأعلى إسنادا منه. ولم يلتزم أحيانا بالترتيب المعجمي، ويبدو أنه راعى نظام الطبقات ضمن الحرف الواحد فراعى في تقديمه الصحابة والتابعين الذين نزلوا بغداد.

ويظهر لنا من تاريخه تكرار بعض التراجم وسبب ذلك انه ترجم لرجل باسمه ثم يعيده حسب اللقب المشهور به أو يكون له اسمان.

أما بالنسبة لتكرار الروايات فان الخطيب كان يتفادى ذلك بالإحالة إلى موضع الرواية التي سبق إيرادها وكذلك كان يحيل إلى مؤلفاته إن احتاج الأمر إلى التفصيل مثل الجامع وموضح أوهام الجمع والتفريق ومناقب احمد بن حنبل[1].

منهج الخطيب في تاريخه:

عمد الخطيب في تاريخه أن يترجم لجميع علماء بغداد سواء من كان سكنها أم زارها منذ بداية تأسيسها حتى عصره. أوضح ذلك في مقدمة الكتاب أن تاريخه يشمل ما يأتي: (تسمية الخلفاء والأشراف والكبراء والقضاة والفقهاء والمحدثين والقراء والزهاد والصلحاء والمتأدبين والشعراء من أهل مدينة السلام الذين ولدوا بها وبسواها من البلدان ونزلوها وذكر من انتقل عنها ومات ببلدة غيرها ومن كان بالنواحي القريبة منها ومن قدمها من غير أهلها)[2].

وبذلك نفهم أن الخطيب ترجم لعلماء بغداد الذين ولدوا بها وتوفوا بها وأيضا العلماء الذين أتوا من مدن مختلفة وسكنوا بغداد او حتى توفوا بها والعلماء

(1) الدكتور عمر الدقاق، مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، ص301-304، دار الشروق، بيروت، وانظر موارد الخطيب البغدادي ص103، طبعة دار القلم.

(2) الخطيب، تاريخ بغداد، ج1 ص65، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية.

الذين ولدوا فيها ثم رحلوا عنها وكذلك ترجم لأهل المناطق القريبة منها مثل سامراء وغيرها، وأيضاً العلماء الذين قدموا بغداد ثم رحلوا عنها.

ولم يذكر الخطيب في تاريخه من محدثي الغرباء الذين قدموا إلى بغداد ولم يحدثوا بها ويرووا العلم، فإنه أهملهم وذلك لكثرة أسمائهم وتعذر أحصاء عددهم.

واعتمد الخطيب في مادة تاريخه على المؤلفات التي سبقت تأليفه، وخاصة كتب تراجم المحدثين وكتب تراجم الخلفاء والأدباء والشعراء وكتب الحوليات.

وعمل الخطيب الانتقاء من هذه الكتب لأنه وجد لديه مادة واسعة وكان الغرض من هذا الانتقاء هو الحذر من تضخم كتابه، وكذلك عمل الخطيب على تخريج أحاديث المترجمين فاستخدم كتب الحديث ومعاجم الشيوخ.

حاول الخطيب أن يقدم ترجمة كاملة ومختصرة لمن ترجم لهم تتضمن الترجمة: اسمه ونسبه والشهرة التي يعرف بها وشيوخه وتلاميذه وأراء العلماء فيه ويبين رأيه فيه ويذكر إن كان عنده شعر أو رواية، وبيّن مكان وسنة ولادته ومكان وسنة وفاته وفي أي مقبرة دفن.

وعمل الخطيب على نقد وتمحيص الروايات التي بين يديه وبيان أوهام العلماء والمصنفين السابقين وترجيح بين الروايات المتعارضة التي تتعلق مثلا بتاريخ الولادة والوفاة ومكانهما وغيرها من الأمور.

وتميز الخطيب بدقة نقله إذ ينقل النص كما وجده وبعدها يعقب على النص ويصححه. وقد استدرك على عدد من العلماء وبيّن أخطاءهم، وقد ضبط على كبار المصنفين ما شذوا فيه من روايات خالفوا فيها ما اتفق عليه العلماء. وكان يعتني

بضبط الأسماء ويميز بين الأسماء المتشابهة ويصوب الأسماء التي وقع فيها خطأ أو تصحيف، وكان أبو بكر الخطيب البغدادي يحيل أحيانا على مؤلفاته الأخرى، وترجم الخطيب للنساء في آخر كتابه، وبعض من ذكرهن كنّ شيخاته وقد سجل سماعه منهنّ، ويعتمد الخطيب في بيان أحوال الرواة المترجمين على أقوال أئمة الجرح والتعديل، وكان يوازن بينها وينقدها ويرد بعضها [1].

ولم يترجم في تاريخه للمهندسين والأطباء والحساب والصيادلة والفلكيين والفلاسفة والحكماء، ولم يستوعب تراجم رجالات السياسة والإدارة والحرب ولا الأدباء والشعراء والمغنين، بل لم يستوعب تراجم غير المحدثين الذين فاته ذكر بعضهم فاستدركهم عليه ابن النجار وغيره من أصحاب الذيول على «تاريخ بغداد» وذلك لان الخطيب أراد أن يجعله فقط لعلماء الدين وذلك بسبب تكوين شخصيته الغالب عليها الأثر الديني، وخاف من تضخم كتابه أيضا ولذلك لم يذكرهم [2].

الحافظ الخطيب وأقواله في الجرح والتعديل:

ولما كان الخطيب واحدا من جهابذة المحدثين في المائة الخامسة للهجرة، فإن أقواله في الجرح والتعديل قد اعتبرت أقصى حدود الاعتبار لا سيما تلك التي أطلقها فيمن أدركهم من الشيوخ، أو عاصرهم من الأقران، فصارت معينا لا ينضب

(1) الدكتور أكرم ضياء العمري ـ موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ـ دار القلم ـ دمشق1975، ص98

(2) الدكتور أكرم ضياء العمري ـ موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ـ دار القلم ـ دمشق1975، ص91 بتصرف.

لمن ألف بعده وعُني ببيان أحوال الرواة، لا سيما الإمام الذهبي في كتبه فحق له أن يقول فيه: «الحافظ الناقد... صحح وعلل وجرح وعدل»[1].

وكان الخطيب ناقدا ماهرا في علم الجرح والتعديل، وكان يوازن بين الأقوال وبين رأيه ويتعقب كبار النقاد ويصوب أخطاءهم في الأسماء والكنى والألقاب والمواليد والوفيات وما وقع لهم من تصحيف وتحريف في الأسانيد أو المتون[2].

قيمة روايات الخطيب البغدادي ومنزلتها:

استعمل الخطيب الإسناد عند إيراده الروايات وحرص على توثيق المعلومات التي ينقلها بدقة.. وساق أسانيد الأحاديث للتراجم التي ذكرها.

وأشار الدكتور خلدون الأحدب في مقدمة كتابه «زوائد تاريخ بغداد على الكتب الستة» أن الأحاديث التي تفرد الخطيب بروايتها ولم يشاركه فيها أحد من الأئمة الذين سبقوه روايتها أو هو مما شاركهم في روايته، ولكنه رواها بأسانيد معلولة، إنما مردها في الأغلب الأعم إلى حرصه على أن تقع هذه الأحاديث من طرق من ترجم لهم بغض النظر عما تمثله من قيمة، حيث إن هذا مقصوده دون النظر إلى اعتبار آخر. وأضاف إن عدد أحاديث تاريخ بغداد 4385 حديثا وجدت منها 2132 حديثا رواه أصحاب الأصول الستة أو بعضهم، أي ما يعادل نصف عدد أحاديث التاريخ تقريبا، والأحاديث التي تفرد بها الخطيب البغدادي والتي

(1) سير أعلام النبلاء 18، 270.

(2) انظر مقدمة تحقيق بشار عواد ل كتاب «تاريخ مدينة السلام»1، 112.

غالبيتها من الموضوعات والمناكير والضعيفة ضعفا شديدا قليلة بالنسبة لعدد ما خرجه. والمرتع الخصب لها في المناقب والرقائق ونادرة في أحاديث الأحكام.. وأشار الدكتور الأحدب أن الحافظ الخطيب له إضافات وتنبيهات قيمة أتى بها عقب الأحاديث التي رواها وذكر الطرق التي وردت منها ومن تفرد بها من الرواة وكشف عن المتابعات والشواهد وتعقب رجال أسانيدها ببيان حالهم من الجرح والتعديل وحكم على بعض الأحاديث بالوضع أو النكارة أو الغرابة.. وجماع القول في ذلك أن قيمة ما يرويه الخطيب وغيره من أمثاله قيمة سنده ولا يصح التعميم بضعف ووضع ونكارة ما يروونه بمجرد العزو إليهم[1].

وذكر الدكتور بشار عواد في مقدمة تحقيقه لـ«تاريخ مدينة السلام»أن الخطيب البغدادي أخذ في كثير من المواضع عند الحكم على الرجال بقاعدة سبر حديث المترجَم ليصدر حكما عليه، لا سيما حينما لا يجد جرحا أو تعديلا، أو وجد شيئا من ذلك ثم وجد أن سبر حديثه يدل على غير ذلك.. وأضاف قائلا: إن إيراد الحديث في كتب الرجال كان لغايات محددة تهدف في الأغلب الأعم إلى تقويم حال الراوي جرحا أو تعديلا. وقد ألف البخاري تاريخه الكبير ليكون مظنة لأحوال رجال الحديث جرحا وتعديلا وبيانا لما أخطأوا فيه أو أصابوا، ولم يكن هدفه جمع الحديث أو بيان منزلة كل حديث. وإذا كان الأمر كذلك تبيّن أن لا يستغرب من رواية الأحاديث الواهية والموضوعة في كتب الرجال والتراجم لأن سياقة هذه الأحاديث التالفة في تراجمهم هي المنبئة في كثير من الأحيان عن أحوالهم[2].

(1) 1، 87 بتصرف.

(2) 1، 168 بتصرف.

ذيوله ومختصراتــه[1]:

اختصر تاريخ بغداد العديد من المؤرخين ومن أبرز من ذيل عليه:

السمعاني (ت 562هـ) وسماه الذيل على تاريخ بغداد.

ثم جاء بعده ذيل أبي عبد اللـه محمد بن سعيد المعروف بابن الـدبيثي (ت 637هـ)، وسماه (ذيل بغداد) وقد لخصه الإمام الذهبي (ت 748هـ) وسماه «المختصر المحتاج إليـه مـن تاريخ ابن الدبيثي» ثم كتب محب الدين محمد بن محمود المعـروف بـابن النجـار ذيـلا عـلى تاريخ الخطيب وسماه (التاريخ المجدد لمدينة السلام وأخبار فضـلائها الأعـلام ومـن وردهـا مـن الأعلام) طبعته دار الكتب العلمية، وعنوان الكتاب يشير إلى ما استجد مـن تـراجم بعـد تـاريخ الخطيب.

وذيل على ابن النجار أيضاً كل من: تاج الدين علي البغدادي (ت 674هـ) وتقـي الـدين محمد بن رافع السلامي (ت 774هـ) وسماه (الذيل على ذيل ابن النجار. وذيل عليـه أيضـاً أبـو الحسن محمد ابن احمد القطيفي (ت 634هـ) وأيضاً أحمد بـن صـالح بـن شـافع الجـبلي (ت 565هـ)، وهناك ذيل هبة اللـه بن المبارك السقطي وذيل شجاع بن أبي شجاع الذهلي، أما مـن اختصره فهما كل من ابن مكرم والإمام الذهبي[2].

(1) أصبح تاريخ الخطيب أصلا لتاريخ بغداد ولم يؤلف أحد بعده في تراجم علماء بغداد في الفترة التي تناولهـا، بـل صـار أساسا يبنى عليه فيتمم كلما استجدت فترة زمنية بعده وهو ما يعـرف في تـاريخ الحركـة التأليفيـة عنـد المـؤرخين بالتذييل. انظر مقدمة بشار عواد في تحقيق «بغداد مدينة السلام»1، 124دار الغرب الإسلامي.

(2) الدكتور أكرم ضياء العمري ـ موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ـ دار القلم ـ دمشق1975، ص94 بتصرف.

أشهر طبعات الكتاب[1]:

تاريخ بغداد أو مدينة السلام، المؤلف: أبو بكر الخطيب البغدادي، عدد الأجزاء: 14، سنة النشر: (1931)، الناشر: مكتبة الخانجي: القاهرة، المكتبة العربية: بغداد، مطبعة السعادة: القاهرة. استغرق الكتاب نحو خمسة آلاف صفحة.

تاريخ بغداد أو مدينة السلام، المؤلف: أبو بكر الخطيب البغدادي، تحقيق وطبع أوفست، عدد الأجزاء 18، سنة النشر (1983م) الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

تاريخ بغداد أو مدينة السلام، المؤلف: أبو بكر الخطيب البغدادي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، عدد الأجزاء، 24، سنة النشر (1997) الطبعة الأولى، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.

تاريخ مدينة السلام بغداد، المؤلف: أبو بكر الخطيب البغدادي تحقيق: بشار عواد معروف عدد الأجزاء: 17، سنة النشر: (2001) الطبعة الأولى، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت[2].

(1) علمت أنه يوجد لدى ورثة احد العلماء بتونس وهو العلامة الشاذلي النيفر رحمه الله نسخة أصلية من كتاب تاريخ بغداد بخط الخطيب البغدادي، وهي بهذا الاعتبار من نوادر المخطوطات في العالم.

(2) أشير إلى أن أحد طلبة العلم في المدينة المنورة وهو دكتور في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية عاكف منذ سنوات على تحقيق كتاب تاريخ بغداد، ويقابل على جميع النسخ التي أشار إليها د. بشار عواد في تحقيقه، مع نسخ أخرى لم يعثر عليها د. بشار، وتحقيقه كما علمت مركز على: ضبط النص وتخريج التراجم بتوسع.

وهي أفضل طبعات الكتاب، إذ يتميز تحقيق الدكتور بشار باستيعاب مخطوطات تاريخ بغداد ومقابلة النسخ وضبط النص والتعليق عليه وتخريج الحديث والحكم عليه تصحيحا أو تضعيفاً، ووضع الفهارس اللازمة لتيسير مادة الكتاب.

أهم المصادر والمراجع

ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام، المؤلف: أبو بكر الخطيب البغدادي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، عدد الأجزاء: 14، سنة النشر (1997) الطبعة الأولى، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.

ـ تاريخ مدينة السلام بغداد، المؤلف: أبو بكر الخطيب البغدادي تحقيق: بشار عواد معروف عدد الأجزاء: 17، سنة النشر: 2001، الطبعة الأولى، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ـ الذهبي ـ سير أعلام النبلاء ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ (1410هـ 1990م).

ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ (1987م).

ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ تحقيق أحمد فريد الرفاعي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1987م).

ـ الدكتور يوسف العش، «الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها»، مطبعة الترقي ـ دمشق 1366هـ 1945م).

ـ الدكتور أكرم ضياء العمري، موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، دار طيبة، الرياض 1405=1985.

ـ طبعة دار القلم دمشق ـ بيروت 1975م الطبعة الأولى.

ـ الدكتور أكرم ضياء العمري، الكتب التي أوردها الخطيب البغدادي في تأريخ بغداد مرتبة حسب مواضيعها، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، العدد الخامس، 1973م).

ـ الدكتور عمر الدقاق، مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، دار الشروق، بيروت

ـ الدكتور محمود الطحان، الحافظ الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث، الطبعة الأولى (1401هـ). دار القرآن، بيروت

ـ الدكتور خلدون الأحدب، زوائد تاريخ بغداد على الكتب الستة، دار القلم، دمشق، ط1، 10 أجزاء، 1996م).

ـ الدكتور محمود السيد الدغيم، الخطيب البغدادي علم من أعلام العلم والأدب، مقال منشور بجريدة الحياة، العدد: 15285 الصفحة: 15، يوم السبت 5، 2، 2005.

ملحق مصنفات الخطيب البغدادي في رسائل علمية

- علي عبد الله الجمعة، الأحاديث والآثار الواردة في تاريخ بغداد، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود.
- عبد الله بن صالح بن حجر، أقوال الخطيب البغدادي في الجرح والتعديل من خلال تاريخ بغداد مقارنة بأحكام المتقدمين والمتأخرين، رسالة دكتوراه غير منشورة.
- بابكر حمد الترابي، الخطيب البغدادي وجهوده في علم الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، 1403هـ
- محمد الفهيد، الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة، ماجستير جامعة الإمام محمد بن سعود، 1400هـ
- فضل الرحمن عبد العليم الأفغاني، تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف، دكتوراه، جامعة أم القرى، 1413هـ
- محمد مطر الزهراني، السابق واللاحق، ماجستير ـ الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1401هـ طبعت، دار طيبة في الرياض عام 1402هـ 1982م).
- عبد الرحمن محمد الشريف، غنية الملتمس وإيضاح الملتبس، ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود 1403هـ محمد مطر الزهراني، الفصل للوصل المدرج في النقل، دكتوراه، الجامعة الإسلامية، 1407هـ طبعت، دار الهجرة، السعودية، الطبعة الأولى سنة 1418هـ 1998م).
- محمد صادق الحامدي، المتفق والمفترق، النصف الأول، دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الرياض 1408هـ طبع بدار القادري 1997م).

ـ عبد الرزاق موسى أبو البصل، الفقيه والمتفقه، دكتوراه، جامعة أم القرى، 1417هـ

ـ محمد خالد عبيد، الكفاية لمعرفة أصول الرواية، من أوله حتى آخر باب ذكر الحجة في إجازة رواية الحديث على المفتي، دراسة وتخريج، رسالة دكتوراه جامعة الإمام محمد بن سعود، 1416هـ

ـ منهج الخطيب البغدادي في الجرح والتعديل من خلال كتابه الكفاية، رسالة ماجستير، جامعة عبد القادر الجزائري، قسنطينة.

ـ عبد السميع الأنيس، الفصل للوصل المدرج في النقل» رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، 1996م). طبع في دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى 1418هـ 1997م).

ـ خلدون الأحدب، زوائد تاريخ بغداد على الكتب الستة، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان، السودان، نشرته دار القلم، دمشق، ط الأولى، 10 أجزاء، 1996م).

ـ محمود الطحان، الحافظ الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث، رسالة دكتوراه، الطبعة الأولى (1401هـ). دار القرآن، بيروت.

ـ أكرم ضياء العمري، موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، رسالة دكتوراه، طبعت بدار القلم دمشق ـ بيروت 1975م الطبعة الأولى. وبدار طيبة، الرياض 1405=1985.

ـ محمد رأفت سعيد، «**الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع**» رسالة دكتوراه، نشرته مكتبة الفلاح بالكويت عام 1401هـ

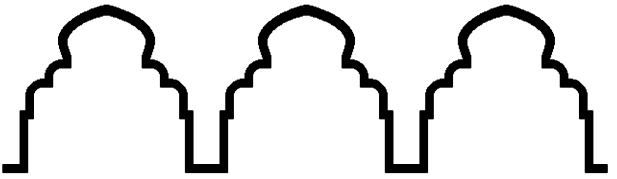

الفصل الثاني

إسهامات العلماء
في إسلامية الدراسات اللغوية

أحمد بدوي وعائشة بنت الشاطىء
في التفسير الأدبي للنص القرآني[1]

(1) بحث مقدم لمؤتمر إسلامية الدراسات اللغوية والأدبية وتطبيقاتها 21-23 كانون الأول 2009م بكوالالمبور في ماليزيا.

المبحث الأول

أحمد أحمد بدوي... من بلاغة القرآن

يُعّد أحمد بدوي من الأعلام الذين جعلوا كتاباتهم حول الصلة بين الدرس الأدبي النقدي البلاغي وبين معاني المفسرين، إذ جعل غايته من ذلك: مساهمة منه في الكشف عن بلاغة القرآن وإدراك إعجازه، ومنه جاء كتابه من بلاغة القرآن ليتبين بعض أسرار سمو القرآن، وسبب ما كان له من تأثير في النفوس وسلطان على القلوب، وذلك لأن القرآن الكريم أمّة وحده في البلاغة العربية[1].

ويرى محمد المبارك أن كتاب أحمد البدوي قد أغنى طلاب الأدب عن الرجوع إلى تلك المصادر الثمينة الخصبة التي خلفها السلف في هذا الميدان، كالإتقان للسيوطي، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني، وإعجاز القرآن للباقلاني وغيرها، وقد بذل جهداً يُشكر في جمع آرائهم وخواطرهم، وعرضها عرضاً مصنفاً مرتباً مضيفاً إليها بعض الأبحاث الجديدة، واستخرج من الكتاب الكريم عدداً من الموضوعات، فبيّن كيف عُرضت في القرآن في مختلف سوره، وتحدث عن خصائصها الفكرية والأدبية فجاء كتابه مرجعاً غنياً خصباً مليئاً بفوائده[2].

(1) محمد بركات أبو علي: مناهج وآراء في لغة القرآن: 79.

(2) محمد المبارك: دراسة أدبية لنصوص من القرآن، دار الفكر، دمشق، 1973: 8.

ويوضح أحمد بدوي منهجه في الدراسة، إذ يتطلب ذلك الوقوف عند لبنات النص الأدبي وهي: المفردات لتبين مدى الإصابة في اختيارها، ومدى تمكنها في موضعها وقوة ربطها بأخواتها، ويتنقل بعد ذلك إلى دراسة الجملة في النص وسر قوتها وجمالها، ثم إلى دراسة النص برمته من حيث مدى ارتباط بعضها ببعض، ومدى تضافر أجزائها على رسم الصورة التي يريد النص توضيحها، ومدى الإصابة في ترتيب هذه الأجزاء، حتى إذا تم النص صارت فكرته واضحة في النفس جلية مؤثرة، ومن ثم لا بد من دراسة المعاني التي حواها النص لمعرفة القوي منها الضعيف، وما له دخل في تكوين الصورة وما هو دخيل وكتب نضدت هذه المعاني ونسقت، حتى التأمت وحدة نبض بالحياة[1].

ولهذا السبب فقد قسم بدوي كتابه إلى قسمين: الأول حول الألفاظ والجمل والنص كاملاً، والثاني حول المعاني القرآنية.

ومجمل الحديث في القسمين يدور على أسس الصور، والأسلوب، والأثر النفسي- للمتلقي، والوحدة التي تسلك المفردات في إطار واحد.

لقد قدم بدوي لدراسته بمقدمة حول العمل الأدبي، ومجال الأدب بين مظاهر الشعور وعلم البلاغة، والنقد الأدبي، والقراءة الأدبية، والمنهج الأدبي في القرآن، وإعجاز القرآن.

ويعّرف بدوي المنهج الأدبي في القرآن بذلك المنهج الذي يتجه إلى إثارة وجدان القارئ إثارة روحية رفيعة، تحدث السرور في النفس فتُقبل، أو تحدث فيها

(1) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط3، 1950: ص والمقدمة.

الألم فتأبى وترفض. والقرآن غني بذلك، لأنه لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع ولكنه يتكئ عليه وعلى الوجدان ليستميل.. .. فالقرآن يهاجم ببلاغة جميع القوى البشرية ليصل إلى هدفه: من تهذيب النفس وحب العمل الصالح والإيمان باليوم الآخر[1].

وياتي بدوي برأي غير جديد في وجه الإعجاز القرآني، فيرى القرأن بديع النظم، عجيب التأليف، مُنتاه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[2]. ومن هنا فقد كانت دراسته تدور حول هذه البلاغة التي يتميز بها القرآن الكريم، متلمساً أسبابها ومدركاً مظاهرها وخصائصها من خلال:

أولاً ــ ألفاظ القرآن:

لا تفاضيل بين الكلمات المفردة ـ هذا ما يقوله بدوي، وهو ما قال به عبد القاهر قبله ـ ولكن إذا ما نظمت الكلمة في جملة صارت دالة على نصيبها من المعنى، وصار من حقنا أن نسأل: لم اخترت هذه الكلمة دون تلك؟ ولم آثرت صيغة على أخرى؟ ولذلك نجد القرآن يتأنق في اختيار ألفاظه، فيستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، نكاد نؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها.. .. ولذلك لا تجد القرآن ترادفاً[3].

ويمثل بدوي على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ

(1) المرجع نفسه: 37.

(2) المرجع نفسه: 51.

(3) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، 58.

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: 49] فنجده قد اختار الفعل ذبّح مصوراً به ما حدث، وضعّف عينه للدلالة على كثرة ما حدث من القتل في أبناء عشيرة أبناء إسرائيل يومئذ، ولا تجد ذلك مستفاداً إذا وضعنا مكانها كلمة (يقتّلون).

وفي الحقيقة فإن هذا القول يحتاج إلى تمحيص فقد استعمل القرآن كلمة (يقتّلون) للدلالة على كثرة القتل أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف: 141].

ومن دقة أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه ما أشار إليه الجاحظ حين قال: وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث[1].

ولاختيار القرآن للكلمة الدقيقة المعبرة يفضل الكلمة المصورة للمعنى أكمل تصوير، ليشعرك به أتم شعور وأقواه، وخذ لذلك مثلاً كلمة (يسكن) في قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ [الشورى: 33] كما أن في القرآن كثيراً من الألفاظ تشع منها قوى توحي إلى النفس بالمعنى وحياً، فيشعره به

(1) أحمد الجاحظ (255هـ) البيان والتبيين، تحقيق وشرح حسن السندوبي، ط1، المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة، 1926، ج1، 34.

شعوراً عميقاً، وتحس بجو الفكرة إحساساً قوياً كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [1] [التكوير: 17-18].

وتنزل الفاصلة في آيات القرآن الكريم في السورة تكمل معناها، ويتم بها النغم الموسيقي للآية، فنراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وحروف المد، وتلك هي الحروف الطبيعية في الموسيقى نفسها، ولهذه الموسيقى أثرها في النفس. ويضرب أحمد بدوي ذلك مثالاً باستخدام كلمة (قسمة ضيزى) في سورة النجم، ويبين مدى تناسبها للآيات السابقة[2].

ويؤثر القرآن الكريم رفعة اللفظ، فنراه يفضل أحياناً كلمة أدبية على أخرى شائعة عامية، فنراه يستخدم (إلحافاً) في قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: 273] مكان إلحاحاً، كما يستخدم القرآن ألفاظاً تكلمت بها العرب وأدخلتها في لغتها، وإن كانت في أصلها ليست من اللغة العربية، وقد صقلتها العرب بألسنتها، وشذبتها. ومنها كلمة إستبرق وزنجبيل وسندس وسلسبيل[3].

ويفسر بدوي ورود الألفاظ الخمسة عشر التي يعدها النحاة زائدة، ويخلص إلى القول أن ما يمكن عده زائداً إنما هو حروف نادرة جيء بها لأغراض بلاغية وقّت بها هذه الحروف الزائدة، ويظهر أن تسميتها زائدة معناه أنها لا يرتبط بها حكم إعرابي، لا لأنها لم تؤدّ في الجملة معنى[4].

(1) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن: 64-66.

(2) المرجع السابق: 75-87.

(3) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن: 90-92.

(4) المرجع السابق: 102.

ثانياً ـ الآية القرآنية:

الجملة القرآنية بناء أحكمت لبناته ونسقت أدق تنسيق. لا تحسّ فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها، وهي تتبع المعنى النفسي، فتصوره بألفاظها. لتلقيه في النفس، حتى إذا استكملت الجملة أركانها برز المعنى ظاهراً فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، وإلا اختل وانهار كقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: 5] فإنك ترى تقديم المفعول هنا؛ لأنه موضع عناية العبد ورجاء المستعين، فلا جرم، وهو مناط الاهتمام أن يتقدم كل ما يُهتم به ويعني[1].

ويعمد أحمد بدوي إلى مصطلحات علوم المعاني والبيان والبديع من وذكر وحذف[2]، وتنكير وتعريف[3]، وإفراد وتذكير[4]، وتوكيد، وتكرير[5]، وقصر[6]، واستفهام[7]، وأمر، ونهي[8]، وتمن، وترج[9]، ونداء[10]، وقسم[11]، وفصل

(1) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن: 105-106.

(2) المرجع السابق: 118.

(3) نفسه: 128.

(4) نفسه: 139.

(5) نفسه: 143.

(6) نفسه: 156.

(7) نفسه: 163.

(8) نفسه: 166.

(9) نفسه: 167.

(10) نفسه: 168.

(11) نفسه: 170.

ووصل[1]، وبديع[2] وتشبيه[3]، وتصوير بالاستعارة[4]، ومجازات القرآن[5]، وكناية وتعريض[6]. ممثلاً على هذه العلوم بآيات متعددة من القرآن الكريم مبرزاً رفعة البيان القرآني فيها.

ويخلص أحمد بدوي في باب التقدم والتأخير إلى القول: «وهكذا نرى القرآن الكريم لا ينهج في ترتيب كلماته سوى هذا المنهج الفني الذي يقدم ما يقدم لمعنى نفهمه وراء رصف الألفاظ، وحكمة ندركها من هذا النسج المحكم المتين»[7].

ويشير أحمد بدوي في باب النداء، إلى أن القرآن لم يستخدم من أدوات النداء سوى «يا» ويكون النداء لطلب إقبال المدعو ليصغي إلى أمر ذي بال، والأغلب أن يلي النداء أمر أو نهي، ولا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب إلا في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ [الزخرف: 88-89].

وقد غاب عن أحمد بدوي الآية الآخرى التي بها كلمة «رب» بأداة النداء وهي ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: 30].

ويرى بدوي أن البديع ليس حلية تقتسر، ولا زينة يستغني الكلام عنها،

(1) نفسه: 173.

(2) نفسه: 181.

(3) نفسه: 187.

(4) نفسه: 217.

(5) نفسه: 223.

(6) نفسه: 226.

(7) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن: 117.

ولا زخرفة يأتي دورها بعد أن يكون المعنى قد استوفى تمامه.. ،. فالإنتاج الأدبي يبرز إلى الوجود بكل ما فيه من صور البيان والمحسّنات دفعة واحدة.

وما ورد في القرآن مما نعدّه محسنات بديعية فقد وردت الألفاظ التي كان بها هذا الحسن البديعي في مكانها يتطلبها المعنى ولا يغني غيرها غناءها، اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ فكلمة «الساعة» الأولى جيء بها دلالة على يوم القيامة، واختير لذلك اليوم هذا الاسم هنا للدلالة على معنى المفاجئة والسرعة، وكلمة «ساعة» الثانية تعبر أرق تعبير عن شعور هؤلاء المجرمين، فهم لا يحسون أنهم قضوا في حياتهم الدنيا برهة قصيرة الأمد جداً حتى يعبروا عنها ببرهة أو دقيقة مثلاً، ولا بفترة طويلة يعبرون عنها بيوم مثلاً، فكانت كلمة «ساعة» خير معبر عن شعورهم بهذا الوقت الوجيز[1].

ويشير بدوي في باب التشبيه، إلى أنه ليس الحس وحده هو الذي يجمع بين المشبه والمشبه به في القرآن ولكنه الحسن والنفس معاً، بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى. ويكمن سر خلود هذا التشبيه في أنه يستمد عناصره من الطبيعة، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة، فلا نجد في القرآن تشبيهاً مصنوعاً يدرك جماله فرد دون آخر ويتأثر به إنسان دون إنسان[2].

ثالثاً ــ السورة:

تتناول السورة القرآنية أغراضاً شتى في معظم سور القرآن، إلا أننا نجد القرآن ينتقل بين الأغراض المختلفة لا اعتباطاً وبلا هدف؛ ولكن لصلات وثيقة

(1) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن: 181 والآية من سورة الروم: 55.

(2) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن: 192ـ196.

تربط بين هذه الأغراض، بحيث تتضافر جميعها في الوصول إلى الغاية القصوى وتحقيقها، وهي غرس عقيدة التوحيد في النفس، وانتزاع ما يخالف هذه العقيدة من الضمير والدعوة إلى العمل الصالح المكون للإنسان المهذب الكامل لسنّ القوانين المهذبة للفرد الناهضة بالجماعة[1].

ويشير أحمد بدوي إلى التناسب بين مطالع السور وخواتمها؛ فهي حيناً تبدأ بالثناء على الله، وحيناً تعظم من شأن الكتاب، وحيناً تبدأ بالقسم، أو بنداء الرسول والمؤمنين، وحيناً موحية بفكرة السورة. في الوقت الذي يأتي الختام ليشعر النفس بأن المعاني التي تناولتها السورة فد استُوفيت تماماً ووجدت النفس عند الخاتمة سكونها وطمأنينتها[2].

رابعاً ـ أسلوب القرآن:

يثبت بدوي أسلوب القرآن عدة صفات مستشهداً عليها من القرآن الكريم وهي:

1- الفخامة والقوة والجلال، يكتسبها من انتقاء الألفاظ واستخدام ألوان التوكيد والتكرار.

2- التصوير سواء أكان بالتشبيه أم بالاستعارة مستخدماً أسلوب الحوار.

3- النسجام التسويقي، إذ تؤلف العبارة من كلمات منسقة ذات حركات وسكنات متناسقة.

4- الهدوء والتسلسل في العرض عندما يتطلب الأمر هدوءاً وتأملاً،

(1) المرجع السابق: 229ـ230.

(2) نفسه: 240ـ 242.

واندفاعاً في جمل قصيرة حيث يتطلب هجوم الحق على الباطل مثل قوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾ [المدثر: 11].

5- المراوحة بين الأسلوب المسجوع والمرسل[1].

أما القسم الثاني من الكتاب، فقد تحدث فيه بدوي عن المعاني القرآنية مبيناً النواحي التي تناولها القرآن منها إذ يقول «فلاختيار عناصر الموضوع قيمته في التأثير في النفس الإنساني، فليس رونق اللفظ وحده هو الذي له السلطان على النفوس، ولكن لجوانب المعاني التي عولجت، وعلاقتها بالعواطف الإنسانية والغرائز البشرية، أثر في السيطرة على الأفئدة وامتلاك جوانب القلب، بل إن السحر كل السحر إنما هو في المقدرة على انتقاء هذه المعاني والمقدرة على حسن التعبير عنها»[2].

وقد تحدث بدوي في ذلك عن الله عزّ وجل، ومحمد، والقرآن، ويوم القيامة، والجنة والنار، والجهاد، والمعارك الحربية، والإنسان المثالي، والحياة الدنيا، وعبادة الأوثان، والعقائد والعبادات والأحكام، ومظاهر الطبيعة، والمدح، والهجاء، والعقاب، ومصر في القرآن، والقصة في القرآن، والجدل، والابتهال وبعض صور الحياة الجاهلية[3].

ونمثل على ذلك بما تحدث به القرآن عن «الإنسان المثالي» فقد أجمل الله عزّ وجل الإنسانية المثالية وما ينتظرها من الجزاء المادي والروحي في قوله تعالى:

(1) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن: 244ـ 250.

(2) المرجع السابق: 253.

(3) نفسه: 253ـ 288.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: 7-8]. فالإنسان المثالي هو ذلك الذي يؤمن ويعمل صالحاً، وقد فصّل القرآن في مواضع كثيرة هذا العمل الصالح منه ما يرتبط بالله، ومنه ما يرتبط بالناس ومنه ما يعود إلى الشخص نفسه[1].

ويعقد أحمد بدوي موازنات تبين الدقة القرآنية في تصوير المعنى تصويراً ينقل إلى النفس الفكرة نقلاً أميناً. ومنها موازنته بين الآية القرآنية: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد: 16] وقول حسان:

وهل يستوي ضُلال قوم تسفهوا عمى وهداة يهتدون بمهتد[2]

فأنت ترى حسان يوازن بين ضلال وهداة، وليس الفرق بينهما من الوضوح والقوة بين الأعمى والبصير والظلمات والنور، فالفرق هنا واضح ملموس يشعر به الناس جميعاً، حتى إذا اطمأنت النفس إلى هذا الفرق، وآمنت بأن هناك بوناً شائعاً بينهما انتقلت من ذلك إلى تبين مدى ما بين الضال والمهتدي من فرق بعيد[3].

وبعد، فإن أحمد بدوي عرض مبادئ المنهج الذي تبناه ممثلاً عليه بآيات من القرآن، دون أن يفسر القرآن تفسيراً أدبياً شاملاً. ويعترف بدوي بتقصيره في خاتمة دراسته بقوله: «ولست أزعم أنني وفيت الموضوع حقه؛ لأن ذلك يتطلب من الجهد والوقت ما لا أملكه إلى اليوم. وحسبي الآن أنني وضعت منهجاً ورسمت

(1) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن:329.

(2) حسان بن ثابت: ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، بيروت، دار صادر 1966: 52.

(3) أحمد بدوي: من بلاغة القرآن:394ـ 395.

خطة لدراسة البلاغة القرآنية، كما ينبغي أن يكون، مؤملاً أن افتح بذلك أبواب البحث لمن يتخصص في هذه الدراسة فيتناول دراسة المفرد والجملة والسورة، والمعنى على أسس من الاستقراء الشامل معيداً خصائصها إلى قواعد مطردة وأصول ثابتة»[1].

(1) المرجع السابق: 401.

المبحث الثاني

عائشة عبد الرحمن.. الإعجاز البياني، التفسير البياني

تُعّد دراسات عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: التفسير البياني للقرآن الكريم[1].

والإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق[2]، من أبرز الدراسات الأدبية للقرآن الكريم في العصر الحديث، فقد جاءت هذه الدراسات خير تطبيق على المنهج الأدبي الذي أرسى قواعده أمين الخولي في كتابه «مناهج تجديد».

ولعل إبراز الجانب الأدبي من القرآن الكريم، ووضعه في الذروة من الدراسة الأدبية يعود إلى ما قرره أستاذنا[3] ـ كما تقول بنت الشاطئ: «من أن الدراسة الأدبية لأثر عظيم كهذا القرآن هي ما يجب أن يتقدم كل دراسة أخرى فيه، لا لأنه كتاب العربية الأكبر فحسب، ولكن لأن الذين يعنون بدراسة نواح أخرى فيه والتماس مقاصد بعينها منه لا يستطيعون أن يبلغوا من تلك المقاصد شيئاً دون أن يفقهوا أسلوبه الفذ، ويهتدوا إلى أسراره البيانية، كيلا يختلط عليهم الأمر، أو يغيب عنهم شيء من مدلول اللفظ القرآني وإيحاء التعبير»[4].

---

(1) طبع دار المعارف في جزأين، الأول 1962، والثاني 1968.

(2) طبع دار المعارف: 1971.

(3) المقصود بالأستاذ أمين الخولي.

(4) عائشة بنت الشاطئ: التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف 1962: 7.

ولذلك فقد حرصت بنت الشاطئ على أن تخلص لفهم النص القرآني «فهماً مستشفاً لروح العربية ومزاجها، مستأنساً في لفظ، بل في كل حركة ونبرة بأسلوب القرآن نفسه محتكمة إليه وحده عندما يشتجر الخلاف على هدي التتبع الدقيق لمعجم ألفاظه والتدبر الواعي لدلالة سياقه، والإصغاء والمتأمل إلى إيحاء التعبير في البيان المعجز»[1].

لقد تبنّت بنت الشاطئ منهجاً واضح المعالم في دراستها للقرآن الكريم، وهو المنهج الذي أوضحناه سابقاً عن أمين الخولي، وهو يقوم على الأسس الآتية:

1ـ التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن منه، ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك... وهو منهج يختلف والطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة، إذ يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مُتقطعاً من سياقه العام في القرآن كلّه، مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه، أو لمح ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية.

2ـ فهم ما حول النص، بأن تكون الروايات في أسباب النزول موضوع اعتبار في فهم الظروف من حيث هي قرائن لابست نزول الآية، وأن يكون ترتيب النزول موضع اعتبار كذلك لمعرفة الزمان والمكان، ولفهم السياق العام لما نتدبره من آيات القرآن ودلالات ألفاظه وخصائص بيانه في المصحف كله.

3ـ فهم دلالات الألفاظ بأن يضع الباحث معاجم العربية وكتب التفسير في

(1) المرجع السابق: 10.

خدمة هذا المنهج؛ ليدرك حس العربية للألفاظ التي يتدبرها من النص القرآني عن طريق لمح الدلالة المشتركة في شتى وجوه استعمالها لكل لفظ وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة وسياقها في القرآن كله.

4ـ فهم أسرار التعبير، وذلك بالاحتكام إلى سياق النص الوارد فيه، والتزام ما يحتمله نصاً وروحاً، والباحث هنا ينتفع بجهود المفسرين، إذ يعرض أقوالهم على القرآن الكريم، فيقبل منها ما يحتمله نصاً وسياقاً، ويترك الآخر لتحاشي التورط فيما أقحم على كتب التفسير من بدع التأويل والتأويلات المذهبية ومدسوس الإسرائيليات.

5ـ يحتكم هذا المنهج أيضاً إلى ما يهدي الاستقراء القرآني من وجوه بيانه وظواهر أسلوبه، ولو خالفت بعض قواعد النحويين، وأحكام البلاغيين، لأن الأصل أن تعرض قواعدهم وأحكامهم على البيان الأعلى لا أن نعرض القرآن عليها ونخضعه لها، إذ القرآن هو الذروة في نقاء أصالته وإعجازه البياني، وهو النص الموثق الذي لم تَشُبْه ـ من أي سبيل ـ أدنى شائبة مما تعرضت له رواية نصوص الفصحى من تحريف أو وضع. ثم إنه ليس بموضع ضرورة كالشواهد الشعرية ليجوز عليه ما يجوز عليها من تأويل[1].

(1) للنظر في أصول هذا المنهج انظر: أمين الخولي: مناهج تجديد: 302.

عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني، ج1، 80، ج2، 7ـ9.

محمد بركات أبو علي، دراسات في الإعجاز البياني. دار وائل للنشر، عمان 2000:183.

محمد الطاووسي: من جهود المفسرين المحدثين، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1998: 25.

محمد بركات أبو علي: مناهج وآراء في لغة القرآن: 123.

والمتتبع لما جاء في دراسات بنت الشاطئ القرآنية، يلحظ انتفاعها بدراسات أصول اللغة من معاجم وكتب فقه اللغة والتفسير في خدمة هذا المنهج، إذ تورد المؤلفة أقوالاً للراغب الأصفهاني من كتابه المفردات، وللرازي في تفسيره الكبير، ولابن القيم الجوزي صاحب التبيان، ولأبي حيان الأندلسي (ت 774هـ) في بحره المحيط، وللجرجاني في دلالته وأسراره، وللفيروزآبادي في قاموسه المحيط، وللزمخشري في كشافه، ولعامة اللغويين في أقوال متفرقة، ولمحمد عبده في تفسيره لجزء عم.

كما تورد بنت الشاطئ مصطلحات من الأدب والنقد والبلاغة، وذلك توضيحاً لما في النص القرآني من معان لطيفة شريفة، والمؤلفة يقظة إلى استعارة هذه المصطلحات من ميدان الأدب والنقد والبلاغة لا تعدو على مصطلحات المفسرين من فاصلة وآية وسورة، إنما الغاية تقريب المعاني القرآنية من أذهان الدارسين والمشتغلين بالنص القرآني، وفن القول العربي، ولذا نجد في هذه الدراسة البيانية المصطلحات الآتية:

الأسلوب، الدلالات، المقام، الإنسان، النظم، التركيب، الملاحظ، التصوير، الإيحاء، الجو الملائم، المشهد، الخيال، البيان القرآني، السياق[1].

لقد عالجت بنت الشاطئ بعض الظواهر اللغوية في كتابها «الإعجاز البياني» كفواتح السور والزيادة والحذف والإلغاء والتناوب والترادف محتكمة في هذه المعالجات النصية إلى منهجها المختار.

(1) محمد بركات أبو علي: مناهج وآراء في لغة القرآن: 124.

ففي حديثها عن فواتح السور، وبعد الاستقراء الكامل للفواتح في سورها وترتيب سياقها، واستعراض الآراء المختلفة فيها، تخلص إلى القول بأنها بدأت من أوائل الوحي في سورة القلم لافتة إلى سر الحرف، ثم كثرت وتتابعت في أواسط العهد المكي من سورة ق إلى سورة القصص، حين بلغ الجدل في القرآن أشده، فعرضت قضية التحدي، وظلت آيات القران تعاجزهم وتتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه إلى أول العهد المدني الذي نزلت فيه آية البقرة، فحسمت الجدل بعد أن لزمتهم الحجة على صدق المعجزة بعجزهم مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله. وما من سورة بُدئت بالحروف المتقطعة إلا كان فيها احتجاج للقرآن وتقرير نزوله عند الله، وأكثر السور المبدوءة بالفواتح نزلت في المرحلة التي بلغ فيها عتو المشركين أقصى مدى.

وتضيف: ما أعجب أن تتحقق آيات الإنسان الناطق بحروف صماء، قد تتآلف منها أصوت عجماء لا تبين ولا تنطق، ومنها تصاغ الكلمات فيحقق بها الإنسان آية نطقه وبيانه، ويحقق آية القراءة والعلم. مميزاً عن الحيوان الأعجم ومرتقياً بإنسانيته إلى درجاتها العليا في الكائنات، ومحتملاً بها أمانة التكليف ومسؤولية الخلافة في الأرض، وبها نزلت آيات المعجزة البيانية فتجلى سر الكلمة في البيان الأعلى الذي أعيا العرب أن يأتوا بسورة من مثله، والحروف التي يتألف منها مبذولة لهم في لغتهم التي نزل بها القرآن كتاباً عربياً مبيناً[1].

(1) عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني: 166ـ 167.

انظر كذلك: عائشة عبد الرحمن: من أسرار العربية في البيان القرآني. دار الأحد، بيروت، 1972: 18.

وانطلاقاً من سر الحرف، فقد تناولت بنت الشاطئ ما ذهب إليه العلماء إلى القول بزيادة بعض حروف المعاني في بعض السياقات القرآنية، وأرادوا بذلك زيادتها من حيث الإعراب، وبعضهم جعلها زائدة من حيث المعنى، ومثلوا لذلك بالباء الداخلة على خبر ليس، وخبر ما العاملة عمل ليس، وهو أمر غالب في النص القرآني في عديد من آياته.

ولكن بنت الشاطئ لم ترقها وجهة نظر القائلين بالزيادة وتعليلهم لها، إذ لا يهون القول بأنها حروف زائدة، إذ إن مقتضى القول بزيادتها إمكان الاستغناء عنها وطرحها وهو ما لا يأنس إليه البيان القرآني[1].

لقد حكّمت بنت الشاطئ منهجها في هذه القضية فراحت تبحث عن الحكمة والمقصد البلاغي من اقتران خبر «ليس» و«ما» النافية بالباء عن طريق استقراء المواضع القرآنية التي ورد فيها خبر (كان) المنفية وخبر «ليس» و«ما»، ولاحظت حال تجرد الخبر من الباء وحال اقترانه بها، وخلصت من هذا الاستقراء بقاعدة مطردة لتجريد الخبر من الباء وقاعدة أخرى لاقترانه بها وهي:

- إن الجمل الخبرية المنفية بـ: ما كان، لا يقترن خبرها بالباء. ووجه الاستغناء عنها، أن النفي بهذا الأسلوب يتوثق بالجحد، شأنه شأن أسلوب الجحد في الفعل «ما كان الله ليعذبهم».
- حيثما جاء الخبر منفياً بما أو ليس في سياق نفيه وإبعاد أي احتمال لشك في هذا المعنى، وجب اقتران بالباء، إلا أن يكون المقام مستغنياً عن الجزم بالنفي، بأسلوب أخر كالقصر.

(1) المرجع السابق: 170.

- حين يُنفى خبر ليس رجماً بالظن، أو دون تثبيت من نفيه أو جزم به، لم يجز اقتران الخبر بالباء، لأن الشك يمنع توثيق النفي.

- في الجمل الاستفهامية، يطرد اقتران خبر ليس بالباء، فينتقض النفي بها ويخرج الاستفهام إلى إثبات جازم، لا إلى أي وجه آخر من الوجوه التي يعرفها علم البلاغة في خروج الاستفهام عن معناه الأول الذي وضع له في اللغة، إلى معان بلاغية[1].

وتناولت بنت الشاطئ من خلال منهجها قضية الحذف التي أشار إليها بعض اللغويين والنحويين في النص القرآني عندما يقدّرون حروفاً محذوفة، ويعمدون إلى تأويل الآيات على تقدير تلك الحروف ثم تأويل حذفها، وأوردت بنت الشاطئ مثالاً على ذلك ما ذكره النحويين من تقدير حرف لا النافية في هذه الآيات: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: 85] وقوله: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ [النساء: 176]، ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [البقرة: 184].

وبعد أن تستعرض بنت الشاطئ آراء اللغويين والمفسرين في هذه الآيات، تبين المعنى الصحيح لكل من الآيات على النحو الذي وردت فيه وتخلص إلى القول: إن زيادة أو تقدير حرف «لا» في الآيات المذكورة أمر لا داعي له، وأن الذي تفهمه هو أنه متى اطرد الحذف فالسياق حتماً مستغن عن المحذوف، ولا وجه إذن لتقدير الحرف، ثم تأويل حذفه لأن السياق متى أعطى المعنى المراد مستغنياً عن

(1) عائشة عبد الرحمن: من أسرار العربية في البيان القرآني: 26.

هذا الحرف أو عن غيره كان ذكره من الفضل أو الحشو الذي يتنزه عنه الكلام البليغ فضلاً عن البيان المعجز[1].

وهذه دعوة صريحة إلى فهم السياق القرآني كما ورد دون النظر إلى زيادة أو تقدير لأنه لا وجه لتقدير الحرف ثم تأويل حذفه، فعدم التقدير في هذا الوضع أولى من التقدير.

وتعرضت بنت الشاطئ إلى ما ذهب إليه بعض الدارسين من إلغاء بعض حروف المعاني كإلغائهم مثلاً عمل «لا» النافية في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ [التوبة: 44]، إذ ترى أن ينبغي أن تفهم الآية على صريح نصها في نفي استئذان المؤمنين «أن يجاهدوا» لا أن يتخلفوا ويقعدوا، كما رأى بعض المفسرين كالطبري، فليس المؤمن بحاجة لأن يستأذن في أن يؤدي فريضة الجهاد كما لا يستأذن في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج[2].

إلا أن القارئ ليساق الآيات السابقة واللاحقة يلحظ أن النفي جاء عن القعود والتخلف وليس النفي للاستئذان للجهاد، وهذا ما ذهب إليه الطبري في تفسيره وليس على ما حملته المؤلفة في تفسيرها.

ومن القضايا اللغوية القرآنية التي التفتت إليها بنت الشاطئ على ضوء منهجها في التفسير، قضية التعاقب أو التناوب في عمل الحروف، وهي قضية

(1) عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني: 178ـ 184.

(2) عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني: 184.

نحوية بلاغية كانت وما تزال محل خلاف بين مدرستي النحو العربي، فبعد أن تستعرض الآراء المختلفة فيها تعرض بنت الشاطئ هذا الخلاف على النص القرآني من خلال أمثلته المختلفة في هذا الموضوع كقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: 4] وبينت أن بعض المفسرين والبيانيين ذهبوا إلى القول بالتناوب بين حرفي الجر، وقالوا: ناب حرف (عن) عن حرف (في). والمعنى: الويل للمصلين الذين يسهون في صلاتهم. وهم الذين لا يخشعون فيها. وهذا قول مردود، فالسهو في الصلاة يكاد يشمل المسلمين المصلين، فلا تكاد ترى مصلياً إلا وهو يسهو في صلاته، ويخرج بخواطره وأفكاره خارج الصلاة؟ والصحيح هو فهم الآية على التضمين؛ أي أن حرف (عن) ضمن معنى حرف (في). فنفسرها على معنى حرف (في) المقدر، ثم نفسرها على معنى حرف (عن) المذكور، الذي شمل المعنيين.

هؤلاء المصلون يسهون (في) صلاتهم أولاً، ولا يخشعون فيها، ويسرحون أثناء الصلاة بخواطرهم ومشاعرهم، وهذا على معنى حرف (في)؛ فكأنه قال: ويل للمصلين الذين هم في صلاتهم ساهون. وهؤلاء الساهون (في) صلاتهم، ينتقلون إلى مرحلة أخطر، حيث يسهون (عن) صلاتهم، بحيث لا يهتمون بها، ولا يحرصون على أدائها، فيخرج وقت الصلاة وهم ساهون عنها، وبعد ذلك قد يقضونها وقد لايقضونها.

والذي قادهم إلى السهو (عن) الصلاة، وعدم أدائها في وقتها، هو سهوهم (فيها)، وإدمانهم لذلك السهو. ولو لم يتهاونوا في الخشوع فيها، ولم يستمروا على السهو فيها، لما سهوا عنها.

إن من حرص على الخشوع في صلاته، وبذل جهده في عدم السهو (فيها)، فسيبقى مهتماً بها حريصاً على أدائها، ولن يسه (عنها). وهذا معناه أن السهو (في) الصلاة، وسيلة وطريق للسهو (عنها)، بحيث يقصر المصلي في أدائها حتى يخرج وقتها.

وهؤلاء الذين توعدهم الله: سهواً (في) صلاتهم، ولم يخشعوا فيها، وقادهم هذا إلى السهو (عن) الصلاة، وعدم أدائها في وقتها.

وهكذا ضمن حرف (عن) معنى حرف (في) فدل على معنى ذلك الحرف، ثم دل على معناه بعد ذلك!ولهذا ينبغي أن توضع كل لفظة في موضعها الأخص بها، وهذا ما تفرد به النص القرآني دون غيره من أنواع الكلام[1].

وتتناول عائشة بنت الشاطئ في بحث «الأساليب وسر التعبير» بعد المظاهر الأسلوبية اللافتة في البيان القرآني، كالاستغناء عن الفاعل، والبدء بواو القسم، والسجع، ورعاية الفواصل والنفي مع القسم مطبقة منهجها في ذلك.

ففي باب الاستغناء عن الفاعل ترى بنت الشاطئ أن هذه الظاهرة تطّرد في موقف القيامة والبعث، وهو ما ينبه إلى أسرار بيانية وراء ضوابط الصنعة البلاغية وإجراءات الإعراب الشكلية، فأساليب البناء للمجهول والمطاوعة والإسناد والمجازي تلتقي جميعاً في الاستغناء عن ذكر الفاعل، فبناء الفاعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه، والمطاوعة فيها بيان للطواعية التي يتم بها الحدث تلقائياً أو على وجه التسخير، وكأنه ليس

(1)عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني: 255

في حاجة إلى فاعل، أما الإسناد المجازي فيعطي المسند إليه فاعله بصورة يستغني بها عن ذكر الفاعل الأصلي[1].

أما البدء بواو القسم فتشير الدكتورة عائشة بعد عرضها لمواقع ورود واو القسم، إلى أن هذه الواو قد خرجت عن أصل معناها اللغوي الأول في القسم للتعظيم إلى معنى بلاغي هو اللفت، بإثارة بالغة إلى حسيّات مدركة لا تحتمل أن تكون موضع جدل ومجاراة، توطئة إيضاحية لبيان معنويات يُمارى فيها تقرير غيبيات لا تقع في نطاق الحسيات والمدركات[2].

أما السجع ورعاية الفواصل، فبعد أن تعرض فيه إلى اختلاف العلماء في هذه القضية، ترى أن رعاية الفاصلى في البيان القرآني لا تكون مجرد رعاية شكلية للرونق اللفظي، وإنما تأتي لمقتضيات معنوية مع نسق الإيقاع بهذه الفواصل وائتلاف الجرس لألفاظها التي اقتضتها المعاني على نحو تتقاصر دونه طاقة البلغاء، ولا يُظن في ذلك هوان من قيمة التآلف اللفظي والإيقاع الصوتي لهذا النسق الباهر، الذي يجتلي فيه فنية البلاغة في تأدية المعنى بأرهف لفظ وأروع تعبير وأجمل إيقاع، فالبلاغة لا تفضل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها كما لا تعتد بألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عايه ليسلم لها زخرف بديعي[3].

(1) عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني: 222ـ225 من أسرار العربية: 53ـ56.

انظر كذلك: عائشة عبد الرحمن: من أسرار العربية في البيان القرآني. دار الأحد، بيروت، 1972: 18.

(2) المرجع السابق: 226ـ234.

(3) عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني: 249 ـ 258.

وفي سياق الحديث عن «النفي مع القسم» وبعد عرض آراء اللغويين والمفسرين في ذلك، وتدبر سياق آيات (لا أقسم) في موقعها من القرآن الكريم؛ فإن ذلك كلّه يدلنا ـ كما تقول بنت الشاطئ ـ أن (لا أقسم) لا تأتي لغيره تعالى في سياق نفي حاجته سبحانه إلى القسم، وفرق بعيد بين أن يكون «لا» زائدة لنفي القسم كما قال بعضهم، وبين أن تكون لنفي الحاجة إلى القسم يهدي إليه البيان القرآني، من ثم لا يجوز تأويلها على الزيادة بل تلزم القسم تقريراً للثقة واليقين بنفي الحاجة إليه، وما نزال بسليقتنا اللغوية نؤكد الثقة بنفي الحاجة معها إلى القسم، فتقول لمن تثق به، لا تقسم أو من غير يمين، مقرراً بذلك أنه موضع ثقتك، فلست بحاجة إلى أن تقسم، كما تقول لصاحبك: لا أوصيك بكذا تأكيداً للتوصية بنفي الحاجة إليها[1].

وتتناول بنت الشاطئ في القسم الثالث من كتابها الإعجاز البياني مجموعة مسائل في التفسير تعرف بمسائل ابن الأزرق، وتبلغ نحو مائتي مسألة في القرآن، سأل فيها «نافع بن الأزرق» عبد الله بن عباس ففسَّرها له، وقد خرجت بنت الشاطئ من دراستها لمسائل ابن الأزرق بتأكيد واضح بأن الكلمة القرآنية مهما روعيت الدقة في تفسيرها، وتبقى فوق ذلك منفردة بجلالها وجمالها وإعجازها.

وترى بنت الشاطئ أنه لا يغض من قدر المفسرين سواء أكانوا من الصحابة، أو التابعين أو من الأئمة المتأخرين ألا تكون الكلمة القرآنية مرادفة لما يذكرونه في تفسيرها، بل يفرض الإعجاز البياني للقرآن أن يعين أي مفسر عن

(1) المرجع السابق: 263 ومن أسرار العربية: 62.

الإتيان بمثل الكلمة القرآنية في مقامها. فما يأتي به إنما هو من قبيل الشرح والتقريب، ولا يعني ذلك بحال أنها والكلمة القرآنية سواء[1].

وبمثل كتاب التفسير البياني للقرآن الكريم بجزئيه الطريقة التطبيقية لمنهجها الذي أخذته عن أستاذها أمين الخولي وذلك من خلال تفسير سور بعينها من القرآن الكريم مثل: (الضحى والشرح والزلزلة والنازعات والعاديات والبلد والتكاثر) في الجزء الأول منه، و(العلق والقلم والعصر والليل والفجر والهُمَزة والماعون) في الجزء الثاني.

لقد حرصت بنت الشاطئ في هذه المحاولة التفسيرية للنصوص القرآنية التي وقع عليها اختيارها أن تفيد من جهودها في العرض المعجمي والاستعمالي للفظ، فهي كثيراً ما تلتفت إلى استيحاء السياق الدلالة الأدبية لاستعمال اللفظ ثم تأخذ في تعليل اختياره وبيان ميزته التي جعلته أنسب الألفاظ لوضعه المقسوم له.

وقد يبدو ولأول وهلة للناظر في تفسيرها لهذه السور القصار أن المؤلفة قد سلكت في تفسيرها منهجاً آخر غير منهج أستاذها، فلم ترتبط بفكرة الموضوع التي طال دعوته إليها، ولكنه إذا دقق التفكير وأمعن النظر في معالجتها النصية لهذه السور ستجدها لم تبتعد كثيراً عن فكرة التناول الموضوعي، لأن الوحدة الموضوعية ملحوظة في كل سورة على حد ما، وفوق ذلك فإن تفسير السور يفتح مجالات أخرى أمام المفسر قد تختلف عن الدراسة الموضوعية، ومن ذلك مثلاً مسألة المناسبة بين الآيات وملاحظة السياق في السورة الواحدة. وهكذا جمعت

(1) نفسه: 59.

المؤلفة في تفسيرها لهذه السور القصار بين التحديد الموضوعي وبين التأويل الأدبي للسورة كلّها[1].

ويأخذ عفت الشرقاوي على بنت الشاطئ تبنيها دائماً وجهاً واحداً من الدلالة في تفسير اللفظ أو الجملة أو الآية المقصودة، وهي طريقة تخالف ما جرى عليه العرف عند المفسرين قديماً وحديثاً، إذ لم يكن المفسر يجرؤ على الجزم بتأويل واحد للنص القرآني، ولا شك في أننا نظلم النص ظلماً لا حد له إذا نحن اقتصرنا في فهمه على معنى واحد، بخاصة وأننا لن نعلم حقيقة هذا النص وإمكانات الثراء الأدبي الكامنة فيه وهي إمكانات لا حدود لها[2].

وفي الحقيقة فإننا لا نذهب مع عفت الشرقاوي إلى ما ذهب إليه، إذ تنتهج بنت الشاطئ منهجاً أدبياً يقوم على الأخذ بوجه من الوجوه التفسيرية يناسب المعنى العام، وهذا الأخذ يقوم على الثبات لا الترجيح والظن، وهذا ما ذهب إليه الدكتور محمد بركات أبو علي في الإشارة إلى وضوح المنهج واستقصائه عند المؤلفة، مما جعلها تدلي برأيها من غير تردد في تفسيرها لكلمة (الكنود) في الآية: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ [العاديات: 6]. إذ تشير بنت الشاطئ إلى أن أقرب معانيها إلى آية العاديات أنه الكفران بنعمة الله، وهو ما ذكره الراغب في المفردات[3].

(1) محمد الطاووسي: من جهود المفسرين المحدثين: 47-48.

(2) عفت الشرقاوي: اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، مكتبة سعد رأفت، القاهرة، 1972:317.

(3) محمد بركات أبو علي: مناهج وآراء في لغة القرآن: 126، والأصل في التفسير البياني:ج1:137.

ويظهر هذا الحسن الأدبي في إطار الذوق العالي ـ كما يقول الدكتور محمد بركات ـ فيرتفع بصاحبه إلى إعطاء الرأي الواضح عندما تضطرب الآراء وتتعدد، ومن ذلك رأي المؤلفة حول قوله تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: 9] إذ تقول: (وشغل نحاة ومفسرون بعقد الصنعة الإعرابية عن لمح سر التعبير بـ(لو) التي تعطي حسّ التمني البعيد، فوقفوا طويلاً عند ثبوت النون في (فيدهنون) والقاعدة عندهم أنها تُحذف على النصب، في جواب التمني في (ودوا) لتضمنه معنى ليت، وقد قلت وأقول: ما يجوز أن يعرض البيان الأعلى على قواعد النحاة، وأنه الأصل والحجة، ومن ثم تبقى الآية على وجهها، وتكون الفاء حرف عطف، فتثبت النون رفعاً بالعطف، على تدهن والفاء العاطفة لا تفقد السببية[1].

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً تفسيرها للمقصود (بالضلال) الوارد في قوله تعالى: ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾ [الضحى: 6] فهي ترفض ما قاله المفسرون في هذا المجال، لتنافيه مع ما ورد في القرآن نفسه من استعمال هذه اللفظة (الضلال) إذا اتضح لها بعد الاستقراء أن الاستعمال القرآني لا يلتزم دائماً بالمعنى الاصطلاحي لكلمة الضلال، وهو الكفر، وإنما لحظ فيه الأصل اللغوي من ضلال الطريق، أو عدم الاهتداء إلى الصواب، وأدلتها على ذلك ورود هذه الكلمة في آيات قرآنية عديدة[2]، لم يكن الضلال فيها بمعنى الكفر، وإنما يُعبر عن معانٍ تفهم من السياق الذي وردت فيه، وهذا الفهم، يعفينا من تلك التأويلات العشرين

(1) عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن: 2:57، محمد بركات: مناهج وآراء في لغة القرآن: 128.

(2) انظر مثلاً: سورة يوسف: 3، 8، سورة الشعراء:20، سورة البقرة: 282.

التي تكلّفوها لتفسير آية الضحى لنفي الكفر عن رسول الله عليه السلام، قبل بعثته[1].

وتعود إلى كلمة (الضلال) في الجزء الثاني من تفسيرها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القلم: 7] فتقول المؤلفة: (وقد سبق استقراء الاستعمال القرآني للهدى والضلال، في تفسير سورة الضحى، فأصلها في الضلال عن الطريق، أو الاهتداء حسياً ومعنوياً، ثم نقل إلى الدلالة الإسلامية على الكفر والإيمان، وهذا هو معناها الظاهر في آية القلم مع ارتباطها بأصل المعنى الأول بلفظ السبيل، ترسيخاً للاستعارة على المصطلح البلاغي[2].

وتربط بنت الشاطئ بين معنى كلمة (زرتم) في الآية ﴿حتى زرتم المقابر﴾ [التكاثر:2] وبين سبب نزول الآية في المفاخرة بين بني سهم وبين عبد مناف، أيهم أكثر عدداً، فبعد أن تذكر قصة المفاخرة هذه وأقوال المفسرين في ذلك، تخلص إلى القول بأن زيارة المقابر هنا معناها الموت، وهو ملحظ بياني بالغ الروعة، فاستعمال الزيارة بهذا المعنى صريح الإيحاء ينفرد به لفظ (زرتم) دون غيره، فلا يمكن أن يؤديه لفظ آخر كأن يقول: قبرتم أو سكنتم في المقابر[3].

ولعل الحديث عن الترادف يعود هنا في تفسير الآية الأخيرة، من سورة التكاثر ﴿ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾ فبعد أن تستقرئ بنت الشاطئ الآراء المختلفة في النعمة والنعيم، تخلص إلى القول بأن (النعمة) تستعمل فيما أنعم الله به

(1) عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني: ج1:35.

(2) عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني: ج2: 55-56.

(3) عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني: ج1: 178.

على عباده من خير أو هداية في الدنيا، وقد جاءت بهذا المعنى (49) مرة، في حين خصص القرآن لفظ النعيم بنعيم الآخرة، وهذا المعنى لم يخطر ببال أحد من المفسرين[1].

وتعرض بنت الشاطئ لظاهرة التكرار في معرض تفسيرها لسورة الزلزلة، والتكرار كما تقول عائشة عبد الرحمن: (مألوف الإطناب والإطالة، لكنه حين يأتي في موقف الإيجاز الحاسمة يكون لافتاً ومثيراً، ففي سورة الزلزلة على إيجازها وقصر آياتها نجد التكرار في ثمانية مواضع، وهذه ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم، يعمد فيها إلى التكرار مع الإيجاز، والقصر- ترسيخاً وتقريراً وإقناعاً، والدراسة النفسية قد انتهت بعد طول التجارب إلى أن مثل هذا الأسلوب وهو أقوى أنواع الاستدلال النفسي وأدعاها إلى اليقين وأشدها إيحاء بالحسم والجد)[2].

وتشير بنت الشاطئ في تفسيرها لسورة الزلزلة إلى حذف الفاعل لتركيز الاهتمام بالحدث ذاته، وحصر الوعي فيه، فلا يتوزع في غيره. «زُلزلت الأرض ونفخ في الصور ودُكت الأرض والجبال وانشق القمر وانتثرت الكواكب وبُعثرت النجوم... الحدث هنا هو المقصود اللفت إليه، هو ما يتجه إليه البيان العالي، ولا تعلق بالمحدث ذاته: أهو الله سبحانه أم أحد ملائكته أم قوة إلهية...[3]».

والقسم في سورة الضحى هو لونٌ من ألوان البيان الفني للمعاني بالأشياء الحسية، ومقصده هو قوة اللفت، فالقرآن الكريم في قسمه بالصبح إذا أسفر وإذا

(1) المرجع السابق: ج1: 196.

(2) عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني، ج1: 68.

(3) المرجع السابق: ج1: 70.

تنفّس، والنهار إذا تجلّى، والليل إذا عسعس وإذا يغشى- ـ يجلو معاني الهدى والحق والضلال والباطل بماديات من النور والعظمة[1].

وانطلاقاً من أن الفاصلة لا تكون مجرد رعاية شكلية للرونق اللفظي، وإنما تأتي لمقتضيات معنوية فقد تحدثت عائشة عبد الرحمن عن ذلك في معرض تفسيرها لسورة التكاثر في قوله تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: 1-2] تجد الصنعة البلاغية فيها أن لفظ (المقابر) أوثرت على لفظ (القبور) للمشاكلة اللفظية بينها وبين التكاثر، إذ يحس البلاغيون ونحس معهم نسق الإيقاع بها وانسجام الجرس، ولكن وراء هذا الملحظ البلاغي في النسق اللفظي ملحظ بياني اقتضاه المعنى ـ فالمقابر جمع مقبرة، وهو مجتمع القبور، واستعمالها هنا هو الملائم معنوياً لهذا التكاثر، دلالة على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون في حطام الدنيا، هناك حيث مجتمع الموتى ومحتشد الرمم على اختلاف الأعمار والأجيال والطبقات، وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول لا يمكن أن يقوم بها لفظ القبور جمع قبر[2].

وتحمل بنت الشاطئ حرف (ثم) على معناه الحقيقي بخلاف ما حمله المفسرون في سورة البلد في قوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين أمنوا...﴾ [البلد: 17]، فتقول بأن عطف الإيمان على ما قبله بلفظ (ثم) يبيح لنا أن نفهم أن تحقيق الكرامة الإنسانية بفك الرقبة والعدالة الاجتماعية بإطعامٍ في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة، لا زمان للإيمان وما بعده من تواص بالصبر والرحمة، فلن يكون

(1) نفسه: ج1: 15.

(2) عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني: ج1: 181، وكذلك الإعجاز البياني: 255.

الإنسان مؤمناً مالم يكن له من نفسه وازع يرده عن الطغيان، ويلزمه حده، لا يسترق بشراً مثله ولا يتجاهل حق يتيم أو مسكين[1].

ويرى عبد العظيم المطعني أن كتاب الدكتورة عائشة «الإعجاز البياني» من أثمن ما وقف عليه حديثاً من الكتب الموضوعة في هذا المجال؛ إذ لم تنحُ فيه المؤلفة منحنى الوصف غير المحلل، ولم يكن وصفها للإعجاز، وأكثر من توجيهها وتعليلها لخصائصه، بل إن قارئ هذا الكتاب يرى المؤلفة تذكر كثيراً من نصوص القرآن ثم تقارن وتدرس وتنتهي إلى نتائج مسلّمة في كثير من الأحيان، فهي لا تعتسف القول اعتسافاً بل تستخرج ملاحظاتها من النص، وهذه طريقة مجدية وعملية في دراسة البيان القرآني.

وعلى ذلك فإن بنت الشاطئ استطاعت في هذا الاتجاه التفسيري للنص القرآني أن تحقق الغاية التي قصدت إليها من تطبيق هذا المنهج الذي اعتقدت وآمنت به في فهم القرآن الكريم، ونجحت في ذلك نجاحاً ملحوظاً مما هيّأ لكتاباتها في هذ المجال أن تكون من خير الجهود في التفسير الأدبي للنص القرآني في العصر الحديث.

(1) عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني ج1: 169، وكذلك الإعجاز البياني:190.

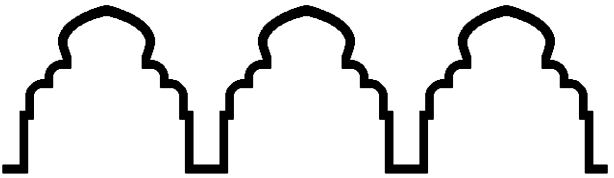

الفصل الثالث

الاتجاهات الحديثة

عند المستشرقين الإيطاليين
في الكتابة عن الرسول ﷺ والسيرة النبوية

المستشرقة الإيطالية ريتا دي ميليو نموذجا[1]

(1) ورقة مقدمة لندوة «السيرة النبوية في الكتابات الإيطالية» 13-15/ نيسان/ 2010م، تنظمها كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس ـ المغرب.

تعريف موجز بالكاتبة الإيطالية: الدكتورة ريتا دي ميليو

ولدت المفكرة الإيطالية ريتا دي ميليو في جزيرة اسيكا بخليج نابولي في إيطاليا، وتخرجت من كلية الآداب بجامعة روما، درست اللغة العربية قصد التعرف على الإسلام ومبادئه والقرآن وأحكامه، وأصبحت أستاذة الدراسات الإسلامية بجامعة روما، ثم متخصصة في الشؤون الإسلامية والعربية، وتعمل الآن أستاذة لدراسات الشرق الأوسط والعالم الإسلامي بجامعة روما، كما عملت لفترة طويلة خبيرة في الشؤون الإسلامية بوزارة الخارجية الإيطالية، وتشارك الدكتورة ريتا ميليو أيضا في العديد من الأعمال الخيرية بدولة إريتريا، وهي تعدّ مستشرقة منصفة للإسلام والمسلمين. ألفت كتابا خاصا عن الإسلام بعنوان: «الإسلام ذلك المجهول في الغرب» ولها **كتاب حديث عن دور المسلمين في إثراء الحضارة الغربية**، وتنقل الدكتورة ريتا دي ميليو إلى طلابها في الجامعة رسالة الإسلام الحقيقي ومساهمات الفكر الإسلامي في بناء الحضارة الإنسانية. وعندما بدأت تقدم وجهة نظرها المحايدة والمنصفة للدين الإسلامي وللمسلمين تفاجأت بحالة الاندهاش التي انتابت الكثيرين ممن قرأوا عن كتاباتها أو استمعوا لشهاداتها حول الإسلام، فالطلبة الذين درّستهم، أعربوا عن دهشتهم الشديدة ولم يصدقوا في بداية الأمر أن المسلمين سبقوا الغرب في الكثير من الاكتشافات الطبية والهندسية، وحتى في علوم الاجتماع والنفس، وبعض طلبتها أبدوا انزعاجا شديدا بسبب رؤيتها الجديدة للإسلام، وسرعان ما تسرب الخبر للقائمين على أمر الجامعة، قبل أن يصل للتيارات الصهيونية والشيوعية التي رفضت وجود أي صوت محايد للدين الإسلامي، وبدأوا في التحرش بها بشكل مباشر، فرضوا عليها

ابتداء تدريس مناهج محددة مسبقا، ثم أجبرت على تقديم الرؤية الغربية التي تدين الإسلام، وعندما رفضت تدريس تلك المزاعم ضغطوا عليها حتى نجحوا في استفزازها لتقدم استقالتها، وفوجئت بقبولها بأسرع ما يمكن، فجأة دون مورد رزق لها، وهو ما دفعها السفر إلى المملكة العربية السعودية، وافتتحت محلا لحياكة ملابس النساء، رغم ذلك لم تقطع صلتها بالعمل الأكاديمي، حيث قامت باغتنام تلك الفترة التي قضتها في المنطقة العربية لدراسة طبيعة الإنسان العربي المسلم وطبيعة الحياة في المجتمعات الإسلامية، واكتشفت أن المسلمين ما زالوا يحتفظون بالكثير من القيم الإسلامية، ومن أبرزها قيم الحياء وتحريم العلاقات غير المشروعة[1].

مضمون كتابها:

في كتابها «الإسلام ذلك المجهول في الغرب: الدين الإسلامي في ضوء القرآن والسنة»، هذا الكتاب في مجمله جديد على الثقافة الأوروبية، فهو صادر من أوساطها ويتكلم بإحدى لغاتها، ورغم أنه بدا محايدا في عرض الإسلام كحضارة وثقافة، إلا أنه ربما للمرة الأولى يقدمه على أنه دين سماوي يقف على قدم المساواة مع الأديان السماوية الأخرى، بعد أن كان الغرب والمستشرقون على وجه خاص يعتبرون أن الإسلام في أفضل الظروف طائفة منشقة عن المسيحية وخارجة عليها. أما في هذا الكتاب فإن ريتا دي ميليو تعلن منذ بداية سطوره أنها سوف تكتب عن الدين الذي تحبه وتحترمه وتعمل على تبليغ محتواه لمن لم يعرف، ليس لأنها تعمل في مجال الدعوة بل لما ترى من تعرض الإسلام إلى ظلم كبير من جانب من لم يعرفه. وفي أول فصل منه بدأت بعرض لحياة الرسول ﷺ وأبرزت فيه المؤلفة الخصال

(1) (أنظر: صحيفة الشرق القطرية 16، 3، 2009).

التي اشتهر بها قبل البعثة النبوية مثل الصدق والأمانة، كما عرضت لحال المجتمع العربي قبل نزول الإسلام، وكيف جاء هذا الدين لكي يصلح الكثير من الأمور التي كانت تضرب في أساس هذا المجتمع، وليحوله من مجتمع بدوي بدائي إلى واحد من أعظم الحضارات التي شهدها التاريخ. وأكدت أن محمدا هو نبي الله ورسوله وأن رسالته منزلة من السماء، وألمحت إلى أن أول من اعترف بنبوة محمد ﷺ كان مسيحيا، وهو ما استغله مفكرون آخرون، ليقدحوا في النبوة ويشككوا فيها عندما اعتبروا أن محمدا لم يكن إلا قسا متمردا وبينت في مقدمة كتابها أنها أقدمت على تأليف هذا الكتاب كشهادة محبة من قبل إنسانة مسيحية لكل مسلم، وذلك بتقديم فكرة شاملة عن العقيدة الإسلامية كما يمارسها معظم المسلمين، وحرصت في فصل الجهاد من الكتاب التأكيد للقارئ الأوروبي أن القرآن الكريم يقول فيما معناه، أنه لا ينبغي أبداً قتل الأطفال والأبرياء والنساء والشيوخ كبار السن. ووجهت سؤالا استنكاريا قائلة: هل دين يقدم مثل هذه التوصيات لأتباعه يستحق منا أن نربطه بالإرهاب؟

كيف تفهم ريتا دي ميليو الإسلام؟

صحيفة الشرق القطرية التقتها على هامش مشاركتها في مؤتمر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الذي عقد بالقاهرة، وأجرت معها حوارا مطولا، جاء فيه: لماذا درست اللغة العربية وكيف تعرفت علي الإسلام؟

قالت ريتا دي ميليو: درست اللغة العربية لأنني أردت أن أتعرف على الإسلام عن قرب عن طريق قراءة تراثه باللغة الأصلية التي كتب بها، وقد تعرفت إلى الإسلام في بداية حياتي التي قضيت جزءا كبيرا منها في العديد من الدول

العربية، حيث عمل والدي طبيبا في عدة مستشفيات بالدول العربية، وأعجبت بالإسلام كدين قويم يحث على الفضيلة والأخلاق والتعايش السلمي بين كل الناس، لا فرق بين أبيض وأسود، وعلى الرغم من أنني لم اعتنق هذا الدين العظيم، إلا أنه دخل إلى قلبي بشدة، ولعل هذا ما دفعني إلى تأليف كتاب خاص عن الإسلام، حاولت من خلاله أن أعلم تلاميذي في الجامعة الكثير عن الإسلام الحقيقي ومساهماته في بناء الحضارة الإنسانية، وقد أقدمت على كتابة هذا الكتاب كشهادة محبة من قبل إنسانة مسيحية لكل مسلم وذلك بتقديم فكرة شاملة عن العقيدة الإسلامية كما يمارسها معظم المسلمين.

سألتها الصحيفة: كثير من الغربيين يعترضون على مسألة الحدود الإسلامية ويعتبرونها دليلا على عنف الإسلام فكيف تنظرين أنت للأمر؟

قالت: للأسف الشديد فإن الغرب تعود على التسامح مع الجناة أكثر من اللازم وهو ما أدى إلى انتشار جرائم الشذوذ وزنا المحارم وكل فنون العري والإباحية، أضف إلى ذلك جرائم القتل، فمثلا مؤخرا قتلت إحدى السيدات بسيارتها فتاة تونسية عمرها 13 عاما، ولم تدخل السجن إلا لمدة يومين، خرجت بعدهما تقود السيارة لتقتل وتصيب آخرين، وهناك فتاة قتلت أمها وأخاها ودخلت السجن لمدة ست سنوات قضتها في لعب الرياضة، وخرجت بعدها وكأنها لم تزهق روحين بريئين، وهكذا فإن الغرب تعود على مسامحة الجاني وهو ما أدى إلى نشر الجريمة، ولهذا يستغربون أيضا موضوع الحدود في الإسلام، ولكنني شخصيا أفضل العقوبات الإسلامية، فلو أن قاتلا واحدا حكم عليه بالقتل، فسوف تختفي على الفور كل جرائم القتل حتى الخطأ منها، لأن الجميع سيفكر

ألف مرة قبل التساهل في التعامل مع أرواح الناس، فالعقاب الشديد مهم في بعض الأحيان. سألتها الصحيفة كسيدة مسيحية تعيش في إيطاليا كيف ترين العلاقة بين المسيحية والإسلام في الدولة التي تحتضن الفاتيكان رمز الكنيسة الكاثوليكية في العالم؟

أجابت: الإسلام هو الدين الثاني من حيث الانتشار في إيطاليا، فهناك أكثر من مليار ونصف المليار مسلم في العالم، ويجب ونحن نناقش أبعاد العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الإيطاليين أن نفرق بين المثقفين وغير المثقفين. فالمثقف الإيطالي مثل غيره من المثقفين في الغرب من القارئين الجيدين لمختلف الثقافات العالمية، ومنها الثقافة الإسلامية، وهؤلاء يتعاملون معاملة راقية مع المسلمين، أما الجهلاء المتأثرون بالدعاية العالمية السلبية التي يتعرض لها الإسلام في الفترة الأخيرة، فبالطبع يكون تعاملهم مع المسلمين تعاملا غير إنساني وغير حضاري، فهم يرون أن كل مسلم هو إرهابي أو مشروع إرهابي على أقل تقدير، وللأسف فإن معظم الإيطاليين ليس لديهم أي معلومات كافية عن حقيقة الإسلام، ومعظم الإيطاليين بل معظم الغربيين لا دينيين، ولهذا لا يقبلون بوجود متدينين بأي دين بجانبهم. والسؤال الذي أحرص على طرحه على كل المنتديات الغربية التي أشارك فيها: ألا يعد استهدافنا للمقدسات والرموز الدينية الإسلامية بالسخرية نوعا من أشرس أنواع الإرهاب؟ وألا يعد حرص الغرب على نشر الإباحية والفواحش في العالم الإسلامي نوعا من أنواع التطرف الفكري المرفوض؟ فلماذا نثير اشمئزاز المسلمين الذين ما زالوا متعودين على العفة والحياء؟ على الجانب الآخر فإنني أدعو كل مسلم إلى التمسك بدينه والعمل على نشر حقيقة الإسلام السمح، حتى يدرك

العالم كله أن المسلمين لا يمكن أن يكونوا أشرارا، وأن وجود عدد قليل من المسلمين المتشددين أو المتطرفين لا يجب أن يسيء إلى هذا الدين العظيم سألتها الصحيفة: كيف تنظرين إلى الخلط الواضح من قبل الغرب بين الجهاد كفريضة إسلامية وبين الإرهاب والعنف؟

قالت المستشرقة الايطالية الدكتورة ريتا دي مايو: يجب أن ندرك أن أحد أهم أسباب انتشار ذلك الخلط يعود إلى إحجام الحكومات الإسلامية عن نشر حقيقة الجهاد في الإسلام باللغات غير العربية، وأنا شخصيا رغم أنني غير مسلمة وجدت عند قراءتي المتعمقة أن هناك اختلافات جذرية بين الجهاد والإرهاب، فالجهاد يبدأ من جهاد النفس وصرفها عن فعل السوء، كما أن الجهاد المسلح كأمر مسموح به في الإسلام له شروط عديدة، لعل أبسطها هو ضرورة أن يدعو له الحاكم المسلم وليس أي شخص آخر، ولو نظر كل إنسان في العالم إلى مسوغات الجهاد في الإسلام لعرف أن الجهاد لا يعني الإرهاب بحال من الأحوال، فالجهاد مثلا هو حق من حقوق كل من احتلت أرضه من قبل شعب آخر أو دولة أخرى، فلماذا يصفون في الغرب المقاومة الفلسطينية بأنها إرهابية؟وإذا كان ما يقولونه صحيحا فلماذا اعتبروا العمليات التي شنها الفرنسيون ضد جيش ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية مقاومة فرنسية؟ ولماذا خصصوا لها صفحات عديدة في التاريخ الأوروبي ليبرزوا عظمة تلك المقاومة؟الحقيقة إن إصرار الغرب على وصف العمليات الاستشهادية الفلسطينية بأنها إرهاب لهو من قبيل التناقض الذي أرفضه، فالفلسطينيون لا يملكون السلاح اللازم لمواجهة العدوان الإسرائيلي، ولهذا فإن لجوءهم إلى تفجير أنفسهم في المحتل الصهيوني هو عمل عسكري

شريف يحث عليه الإسلام، ولا يستطيع أي عاقل أن يصفه بالإرهاب، فطالما أن الفلسطيني لا يملك سوى هذا العمل، فهو أمر يدخل تحت نطاق الجهاد الذي أباحه الإسلام، وحتى لو مات أبرياء نتيجة العمليات الاستشهادية، فهذا جزء من طبيعة الحرب، والحال نفسه بالنسبة للمحتل الأمريكي في العراق، وقد حرصت في فصل الجهاد في كتابي على التأكيد للقارئ الأوروبي أن القرآن الكريم يقول فيما معناه، أنه لا ينبغي أبداً قتل الأطفال والأبرياء والنساء والشيوخ كبار السن، فهل دين يقدم مثل هذه التوصيات لأتباعه يستحق منا أن نربطه بالإرهاب؟والغريب أن اليهود ظلوا دائما يلقون معاملة حسنة طوال فترة عيشهم تحت الحكم الإسلامي، ولكنهم لا يردون هذه المعاملة بمثلها اليوم، وإنما كان أسلوبهم دائما الغدر ونقض العهود، ومن المسؤول عن إثارة البغضاء والكراهية بين الغرب المسيحي والشرق المسلم؟ بلا جدال فإن الصهيونية العالمية لعبت دورا كبيرا في إثارة الحقد والبغضاء بين الغرب والعالم الإسلامي من أجل تحقيق مصلحة إسرائيل في التوسع والتمدد والبقاء، ويمكن للمسلمين والمسيحيين التغلب على تلك المخططات من خلال تفعيل إرادات الشعوب وإرادات القيادات السياسية من أجل دعم جهود الحوار وإزالة البغضاء والكراهية. سألتها الصحيفة: كمستشرقة معاصرة هل ترين أن الاستشراق لعب دوراً سلبياً في تشويه علاقة الغرب بالإسلام؟

أجابت ريتا دي ميليو: يجب أن نتعامل مع قضية الاستشراق بإنصاف شديد، فنقول إنه كان هناك في الماضي مستشرقون من الغرب نظروا إلى الإسلام نظرة محايدة ووصفوا الإسلام بحيادية شديدة، ولكن على الجانب الآخر كان هناك مستشرقون

أساءوا للإسلام وأساءوا لعلاقته بالغرب، وساهموا بلا شك في الأزمة الكبرى التي نعاني منها اليوم بين الغرب المسيحي والشرق المسلم، فهؤلاء المستشرقون لم يقدموا الإسلام بصورته الحقيقية، ومثلما كان الحال في الماضي فإن الموقف اليوم لم يتغير، فهناك مستشرق محايد ومستشرق غير محايد، ولكن بشكل عام فإن الواقع يؤكد ضرورة أن يدلي المسلمون بدلوهم في هذا الأمر، من أجل أن يساهموا في دعم جهود المستشرقين المحايدين، ولا مانع من أن يمد العالم الإسلامي هؤلاء بالمواد العلمية والأكاديمية التي تساعدهم في التغلب على أصحاب النظرية التصادمية من خلال تقديم الصورة الحقيقية للإسلام، ولا مانع من أن يقيم المسلمون في الشرق المؤتمرات العلمية التي يدعون إليها المستشرقين المحايدين ويمنحونهم الفرصة لدراسة الإسلام عن قرب.

سألتها الصحيفة: كيف تلقى الأوروبيون كتاباتك ورؤيتك المنصفة عن الدين الإسلامي؟

قالت الدكتورة دي ميليو: أولا لابد أن نعرف أن معظم الأوروبيين يجهلون حقيقة الدين الإسلامي ودوره العظيم في إثراء الحضارات الإنسانية، بل ودوره العظيم في وصول أوروبا لهذه النهضة الحضارية الكبيرة، ولكن للأسف فإن الإعلام الغربي الذي يدين معظمه بالولاء لجهات غير محايدة، نجح في تصوير الإسلام على عكس حقيقته، وفي ظل عجز الإعلام العربي والإسلامي عن تقديم الصورة الحقيقية للإسلام بالطريقة وباللغات التي يفهما الأوروبيون، توطن في اعتقاد الكثير من أبناء أوروبا أن المسلم إنسان همجي وإرهابي يجب الابتعاد عنه كثيرا، وأنا شخصيا عندما بدأت أعلن وجهة نظري المحايدة والمنصفة للدين

الإسلامي وللمسلمين فوجئت بحالة الاندهاش التي انتابت الكثيرين ممن قرأوا كتاباتي أو استمعوا لشهاداتي حول الإسلام، فالطلبة الذين أقوم بالتدريس لهم، أعربوا عن دهشتهم الشديدة ولم يصدقوا في بداية الأمر أن المسلمين سبقوا الغرب في الكثير من الاكتشافات الطبية والهندسية، وحتى في علوم الاجتماع والنفس، وبعض طلبتي أبدوا انزعاجا شديدا بسبب رؤيتي الجديدة للإسلام، وسرعان ما تسرب الخبر للقائمين على أمر الجامعة، قبل أن يصل للتيارات الصهيونية والشيوعية التي رفضت وجود أي صوت محايد للدين الإسلامي، وبدأوا في التحرش بي بشكل مباشر، ففي البداية بدأوا يفرضون عليّ تدريس مناهج محددة مسبقا، بحيث أجبر على تقديم رؤيتهم التي تدين الإسلام، وعندما رفضت تدريس تلك المزاعم ضغطوا علي حتى نجحوا في استفزازي لأقدم استقالتي وفوجئت بقبولها بأسرع مما كنت أتخيل لأجد نفسي، فجأة دون مورد رزق وهو ما دفعني إلى السفر إلى منطقة الخليج حيث أقمت في المملكة العربية السعودية وافتتحت محلا لحياكة ملابس النساء، وسبحان الله فقد فوجئت بإقبال المرأة الخليجية على التعامل معي وكلما عرفت سيدة من سيدات المجتمع بحكايتي أفاجأ بها تأتي لي بمزيد من السيدات ليس هذا فحسب بل كن يجزلن لي في العطاء لدرجة أنني كسبت من مهنة الحياكة في سنوات قليلة أضعاف أضعاف ما كسبته من عملي في الجامعات الإيطالية لسنوات طويلة، ولكنني رغم ذلك لم أقطع صلتي بالعمل الأكاديمي حيث قمت باستغلال تلك الفترة التي قضيتها في المنطقة العربية لدراسة طبيعة الإنسان العربي المسلم وطبيعة الحياة في المجتمعات الإسلامية، واكتشفت أن المسلمين ما زالوا يحتفظون بالكثير من القيم الإسلامية ومن أبرزها قيم الحياء وتجريم العلاقات المحرمة ولعل هذا هو ما ساهم في حماية كافة

المجتمعات الإسلامية من تفشي الكثير من الأمراض المعدية والخطيرة كما هي الحال في أوروبا.

ثم سئلت: كيف وجدت المرأة المسلمة عندما تعاملت معها مباشرة في المجتمعات الخليجية؟

أجابت الدكتورة ميليو: لقد وجدت امرأة تختلف تماما عما يتم الترويج له عبر وسائل الإعلام الغربية التي تقدم المرأة العربية المسلمة مجرد كيان جسدي للرجل العربي المسلم وقتما يحتاج، ولا وظيفة لها سوى التزين انتظارا لرجل يدور على نسائه الأربع، والأمر الذي قد يثير الكثيرين أنني جئت إلى المنطقة العربية وأنا في ذهني تلك الرؤية حول المرأة المسلمة، ولهذا دهشت للغاية عندما فوجئت بصورة أخرى غير التي رسمتها، فقد وجدت المرأة العاملة المثقفة والجميلة والقادرة على التواصل مع الآخرين بسهولة، وكذلك وجدت المرأة سيدة البيت التي تحمل قدرا كبيرا من الثقافة، فلا يعني أبداً وجودها في المنزل أنها جاهلة أو ما شابه، بل وجدت أن هناك الكثيرات تحملن شهادات عالية، وبعضهن يحملن الماجستير والدكتوراه، بل إنني وجدت من تناقشني حول التاريخ الإسلامي ودور الإسلام في تنوير أوروبا، وسمعت من النساء العربيات اللاتي قابلتهن معلومات مدهشة حول التاريخ الأوروبي، قد لا تكون الكثير من نساء أوروبا يعرفن عنها شيئا وهو ما يعني أن المرأة العربية تعرضت لظلم بيّن وواضح في الإعلام الغربي الذي لم يعطها حقها.

سئلت الدكتورة دي ميليو: كيف يساهم المسلمون في تقديم الصورة الحقيقية للمرأة في الإسلام؟

قالت: أولا لابد أن يعي المسلمون أن تعامل الإعلام العربي تجاه المرأة وقضاياها كان سلبيا، وهو ما ساهم في نشر المغالطات الغربية، علما بأن هناك عدة محاور يمكن للإعلام الخوض فيها وإظهار الصورة الحقيقة لمساهمة المرأة العربية المسلمة من خلال مشاركتها في شتى الجوانب وخاصة الحياة الاقتصادية والتي تعتبر مشاركة المرأة العربية فيها إنجازا كبيراً لتحسين ظروفها المعيشية ولزيادة مساهمتها في عملية التنمية عامة، كما كان للإعلام العربي مواد غنية تجاهلها ولم يعمد إلى بثها أو عمل الدعاية الإعلامية لها، ومن هنا فعلى الإعلام العربي أن يلعب دورا واقعيا في نقل الصورة الحقيقة لمساهمة المرأة العربية في مناحي الحياة على الصعيد السياسي والثقافي والاجتماعي، حيث إن الغزو الإعلامي الغربي ساهم كثيرا في تقديم صورة باهتة.

سألتها الصحيفة: من وجهة نظرك ما السبب في انتشار المعلومات المضللة عن الإسلام والمسلمين في الغرب؟

أجابت: دعنا في البداية نعترف أن المسلمين قصروا كثيرا في حق أنفسهم عندما تركوا الساحة للإعلام المضلل ينشر المعلومات المضللة عن الإسلام دون أن يحاولوا كبح جماح ذلك التضليل، وعندما انتبه المسلمون لذلك كان السيف قد سبق العذل، وأصبحت المجتمعات الغربية أرضا خصبة لنشر كل المفاهيم المغلوطة عن الدين الإسلامي، وأصبح المواطن الغربي لديه حصانة خاصة ضد أي محاولات لتصحيح الصورة، وبالطبع نحن نعرف جيدا أن الصهيونية العالمية هي أهم طرف من الأطراف التي عملت وتعمل على تشويه صورة الإسلام، لإدراكها أن تحسن العلاقة بين الغرب والمسلمين لن يصب في صالح إسرائيل، حتى وإن

كان سيصب في صالح الإنسانية كلها، وأنا شخصيا كثيرا ما ناديت وسائل الإعلام الغربية، بأن تكون صحافة سلام، تعني بنشر الأخبار التي تبشر بالسلام لا بالحرب، وتعمل على إعادة ربط الأخبار وتقييمها بصورة فاعلة، فللأسف الشديد أن وسائل الإعلام الغربية تكاد تهتم فقط بأعمال العنف، ولا تعير أعمال السلام اهتماما، ورغم أنه من الضروري بالطبع فضح كل ما هو سيئ، لا يكاد المرء يسمع شيئا عن الإيجابيات في وسائل الإعلام الغربي.

ومن الأسئلة التي وجهتها الصحيفة للدكتورة دي ميليو: كيف يواجه المسلمون هذه المغالطات بصورة إيجابية؟

قالت: مشكلة العرب والمسلمين أن تصرفاتهم بطيئة للغاية، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمواجهة الثقافية، فعلى سبيل المثال لي كتاب حديث عن دور المسلمين في إثراء الحضارة الغربية، ورغم أنني سلمت كل فصول الكتاب للناشر منذ فترة ليست بالبسيطة، فإن الناشر وحتى هذه اللحظة لم يقدم على طبع الكتاب رغم أنه استعجلني كثيرا قبل أن أسلمه الكتاب، لدرجة أنني تخيلت أن المطبعة في الانتظار، ورغم أنني تسلمت كل مستحقاتي عن تأليف هذا الكتاب إلا أنني حزينة لأن البطء العربي في مواجهة السرعة الغربية يعني نشر مزيد من المعلومات المغلوطة عن الإسلام في الغرب، ولهذا لابد أن يتخلص المسلمون من الروتين الذي سيطر على كل تصرفاتهم ولابد أيضا أن يواجهوا المغالطات الغربية بنفس الطريقة وهي الإعلام، لأن الإعلام هو السلاح الوحيد الذي يملك العرب والمسلمون استخدامه اليوم لتحسين صورتهم ونشر حقيقة الدين الإسلامي السمح، فالعرب في حاجة فعلية للتخلي عن استخدام المصطلحات الضخمة، والبدء فورا في مخاطبة الغرب عبر سلسلة تحقيقات واقعية تستخدم اللغات الغربية كالإنجليزية

والفرنسية والإيطالية وغيرها، وتقدم كل ما يتعلق بالمجتمعات الإسلامية بحيث يشعر الغرب بأن المجتمعات الإسلامية لا تختلف في شيء عن المجتمعات الغربية إن لم يكن تتفوق عليها في خلوها من الكثير من المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها الغرب بسبب الحرية المطلقة.

سئلت المستشرقة ريتا دي ميليو: في رأيك من صاحب المصلحة في تشويه العلاقة بين الغرب المسيحي والشرق المسلم؟

أجابت: بلا جدال فإن الصهيونية العالمية لعبت دورا كبيرا في إثارة الحقد والبغضاء بين الشعوب المسيحية والمسلمين من أجل تحقيق مصلحة إسرائيل في التوسع والتمدد والبقاء ويمكن للمسلمين والمسيحيين التغلب على تلك المخططات من خلال تفعيل إرادات الشعوب وإرادات القيادات السياسية من أجل دعم جهود الحوار وإزالة البغضاء والكراهية، ولابد للغرب أن يرى حقيقة الممارسات «الإسرائيلية» التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني الأعزل، ولن يحدث ذلك إلا إذا تفوق العرب في استخدام الآلة الإعلامية وأصبح لديهم خبراء في تحديد الطريقة المثلى لمخاطبة الغرب بلغة إعلامية صحيحة وقادرة على الوصول لعقلية المواطن الغربي[1].

نظرتها للسيرة النبوية:

المؤلفة الإيطالية التي عاشت وتجولت في مدن العالم الإسلامي، ولم تكتب عن الإسلام إلا بعد أن قرأته ودرسته وعاشته. كتبت مؤلفها «الإسلام ذلك المجهول في الغرب: الدين الإسلامي في ضوء القرآن والسنة» هذا الكتاب يسلط

(1) (الشرق القطرية 16، 3، 2009).

الضوء على عظمة الإسلام وسماحته، وجاء الكتاب في فصول سريعة بدأت بعرض لحياة الرسول ﷺ أبرزت فيها المؤلفة الخصال التي اشتهر بها قبل البعثة النبوية مثل الصدق والأمانة، كما عرضت لحال المجتمع العربي قبل نزول الإسلام، وكيف جاء هذا الدين لكي يصلح الكثير من الأمور التي كانت تضرب في أساس هذا المجتمع، وليحوله من مجتمع بدوي بدائي إلى واحد من أعظم الحضارات التي شهدها التاريخ. وربما كان أهم ما في هذا الجزء من عرض الحياة الأولى للرسول ﷺ هو أنه ابتعد عن الطروحات التي سادت في كتب وأفكار عدد غير قليل من المستشرقين، بل ردت عليهم المؤلفة وأكدت أن محمدا هو نبي الله ورسوله وأن رسالته منزلة من السماء. ولمحت إلى أن أول من اعترف بنبوة محمد ﷺ كان مسيحيا، وهو ما استغله مفكرون آخرون ليقدحوا في النبوة ويشككوا فيها، عندما اعتبروا أن محمدا لم يكن إلا قسا متمردا وناقما. والمؤلفة تطرح أفكارها بقوة وترد عليها بقوة أيضا، من دون خوف أو تردد، بل لا تتردد في اتهام كتاب بني جلدتها بالغرور حينا وبالجهل دائما. وضعت ريتا دي ميليو مقدمة لكتابها تعبر فيها عما يجيش في وجدانها من حب وتأثر بالدين الإسلامي، إلى الحد الذي يجعلك تتصور أنها اعتنقت الإسلام بالفعل. في مقدمة الكتاب تشير الكاتبة إلى أن الإسلام لا يمكن أن يحيط به أي كتاب مهما تضخمت صفحاته، فهو يستحق الكثير من الكتب، لكي تلم بجوانبه المتعددة، وهو كالماسة لها ألف بريق، وليس من الإنصاف اختصاره في كتاب واحد.

وفي هذا إشارة إلى القضايا الكثيرة التي يمكن الكلام فيها عن الإسلام والسيرة النبوية والجوانب المتعددة له. ورغم نص الكاتبة على أنها تأخذ بمنهج التبليغ الإسلامي، فقد تعرضت في فصول كتابها المختلفة إلى كثير من القضايا

الخلافية، قالت فيها رأيها بصراحة وجرأة، خاصة قضية الجهاد، التي قدمت فيها مسوغات منطقية عقلانية للجهاد الإسلامي، بعيدا عن استغلال هذا الفرض الديني لأهداف سياسية وإرهابية. وفصلها في الجهاد، رغم أنه يتحدث عن الجهاد بوصفه «الحرب المقدسة»، وهو التعبير الذي لم يعرفه الإسلام، ولكنه منقول عن الغربيين في حروبهم الصليبية، ولكنها استخدمت المصطلح الغربي لكي تقرب إلى أذهان الغربيين هذا المفهوم، هذا الفصل عن الجهاد يعتبر من أجمل ما كتبه قلم غربي منصف ومحايد في هذه القضية. فهي ترى فيه فرضا على كل مسلم، ولكنها تقول إن الحرب في الإسلامية دفاعية، لأن القرآن ينهى صراحة عن الاعتداء على الغير، ويأمر المسلمين بالدفاع عن أنفسهم، وعن أموالهم، وبالتعاضد لنصر المستضعفين من المسلمين.

تأخذ ريتا دي ميليو بالمنهج العزيز على الغرب، وهو النقدي التاريخي، الذي يحاول أن يتناول الأحداث في الجزيرة العربية، من خلال الترتيب الزمني لحدوثها، وتفسيرها ضمن السياق التاريخي لهذه العصور، من دون أن تعطي للبعد الغيبي ثقلا كبيرا في التفسير، ورغم هذا فهي تصل إلى نفس النتائج التي يمكن أن يصل إليها علماء الدين، اعتمادا على النصوص المقدسة وحدها، من دون تحليلها نقديا وضمن السياق الاجتماعي والإنساني والتاريخي لها. ولهذا فإنه ليس من المبالغة أن نعترف لها بفضل الاجتهاد في تفسير بعض أحداث التاريخ، التي تخص مسيرة الدين والحضارة الإسلامية. هكذا تبدأ ريتا دي ميليو بعرض حياة العرب قبل الإسلام وترسم خريطة للمعتقدات الدينية، التي كانت سائدة في هذه المنطقة، والتي تجاورت فيها الوثنية إلى جانب عبادات غريبة للنباتات والأشجار والأشياء

المختلفة، كما كان هناك انتشار محدود، وفي مواضع بعينها للمسيحية واليهودية، خاصة في اليمن وفي شمال الجزيرة العربية. في شبه الجزيرة العربية، وبخلاف تقديس الأشجار والنباتات، كانت هناك عبادات للأحجار المقدسة، وهي أحجار متحركة أو متساقطة أو صخور بارزة أو معلقة، تحمل الملامح البشرية، ولم يكونوا يعبدونها لذاتها، وإنما باعتبارها حاملة للألوهية أو رمزا لها. فكانوا يقيمون إلى جوارها الاحتفالات الدينية التي تشتمل على القرابين وأعمال الحج والمهرجانات. أما البدو الرحل فكان لديهم على العكس محراب متنقل، يسمى القبة، وهو نوع من المراكب المقدسة، كانت ترافق القبائل في تنقلاتها السلمية أو الحربية. والكاهن، وهو شخصية بين القس والساحر، كان له تأثير كبير، وكانوا يستشيرونه في الأمور المهمة. وفضلا عن الأصنام كان العرب يؤمنون بالجن، وهي مخلوقات غير مرئية، يمكن أن تكون طيبة أو تكون شريرة، ويمكنها أن تؤثر سلبا أو إيجابا على حياة البشر.

وتشير ريتا دي ميليو إلى النظام السياسي السائد في الجزيرة العربية قبل الإسلام وهو تنظيم سياسي واحد هو القبيلة. كانت الصلة الوثيقة بين أبناء القبيلة الواحدة ناشئة عن وعي أبنائها بأنهم سلالة جد واحد مشترك. وهذا الجد، طبقا للتراث العربي، سليل جد آخر، وهو زعيم مجموعة من القبائل، وهكذا من جد إلى جد نصل إلى شخصيتين رئيسيتين، تعتبران الأصل في أهل شبه الجزيرة كلها. هاتان المجموعتان الكبيرتان يمكن تقسيمهما إلى مجموعة الشمال ومجموعة الجنوب. المجموعة الجنوبية هي القحطانية التي تنتسب إلى جدهم قحطان، والمجموعة الشمالية تحمل اسم العدنانيين وتنتسب إلى عدنان، ويسمون كذلك بالإسماعيليين، لأنهم يعتبرون عدنان سليلا لإسماعيل بن إبراهيم. وكان أهل مكة يسيرون على

سنة باقي أهل شبه الجزيرة، ويعتمدون نظاما اجتماعيا قائما على القبلية. وأكبر قبائل مكة التي كانت تضم معظم السكان، وبصفة خاصة الأغنياء وكبار القوم، هي قريش، ومنها الكلمة المعروفة في الإيطالية، القرشيين Quraishiti. كان لمجلس القبيلة مقر، وله رئيس هو الذي يدير شؤون المدينة. وقد تكونت وتشكلت مهام توزعت على القبيلة، منها خدمة وصيانة الكعبة، ووفادة وسقاية وإطعام الحجيج، وهكذا دواليك. وقد وصلت الحياة الاجتماعية في هذه المدينة إلى مستويات أكثر رقيا من تلك التي شهدتها المراكز الحضرية الأخرى، خاصة مجتمعات البداوة. هذا هو باختصار حال البيئة الدينية والاجتماعية التي ولد محمد وعاش فيها حتى نزول الوحي، وما تبعه من انتشار للإسلام.

تعرض المؤلفة مولد وحياة الرسول محمد ﷺ بنفس الطريقة والمنهج التاريخي النقدي الذي يقبله الغرب، ولكنها تأخذ في الاعتبار في نفس الوقت أن المسلمين يعتبرون أن حياة محمد وأقواله وأفعاله جزءا لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، التي تقوم على القرآن والسنة. كما تعرضت لزواجه ﷺ من السيدة خديجة، التي جذبت استقامته انتباهها، فكلفته بتجارتها وأرسلت معه ميسرة، الذي حكى لها بعد عودته عن المعجزات التي أتى بها الرسول ﷺ في رحلته، واستشارت فيها قريبا لها هو ورقة بن نوفل، الذي أكد لها أن هذه الصفات تنطبق على النبي، الذي بشرت به الكتب المقدسة، والذي سوف يظهر في بلاد العرب. فرحت خديجة بهذا وعرضت الزواج على محمد ﷺ فقبل وأنجب منها أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وولدين ماتا. كان يسر الحال الذي جاءه من زواجه بخديجة، سببا في أن يستطيع محمد ﷺ التفرغ لحياة تلائم ميوله الطبيعية:

الخلوة والتأمل، ثم تحكي المؤلفة كيف هبط الوحي على النبي في غار حراء، كما ترويه الروايات العربية، وقد جاءت في هذا السياق التاريخي متسقة ومتوافقة، والأهم أنها لم تبذر أي بذرة شك في بعثة الرسول ﷺ، وفي نزول الوحي عليه، وفي أن القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل للعالمين.

وقدمت المؤلفة للهجرة النبوية وهجرة المسلمين الأولى والثانية، ووصفت محمدا ﷺ في المدينة بأنه كان نبيا وكان زعيما سياسيا عبقريا، استطاع أن يقود الأمة منطلقا من المدينة، رغم كل مشاكلها، ورافعا شأن الأمة إلى عنان السماء. كما أشارت إلى أول ميثاق للتعامل مع الآخر في التاريخ، وهو «صحيفة المدينة» التي رتبت حقوق المسلمين وغير المسلمين في دولة الإسلام الجديدة. ورغم هذا فقد عرضت الوضع في المدينة كما يلي: «في المدينة اعتنق الوثنيون الإسلام وأظهر المسيحيون تعاطفهم مع النبي، أما اليهود فظلوا متصلفين ومعادين رغم العهد الذي أشرنا إليه». وفي الكتاب كله نلمح حرص المؤلفة على إظهار أن اليهود ظلوا دائما يلقون معاملة حسنة من الإسلام، ولكنهم لا يردون هذه المعاملة بمثلها، وإنما كان ديدنهم دائما الغدر ونقض العهود، وهو بالتأكيد من المواقف الشجاعة، التي يقل من يقررها في الغرب، خوفا من التهمة الشائعة بمعاداة السامية، التي أصبحت تخيف الأقلام جميعها هناك.

الرأي الوحيد الذي تأثر بما يكتبه المستشرقون هو ما روته المؤلفة عن فترة صدر الإسلام، وبالتحديد غزوة بدر، فقد قالت: «ودفعت ضرورة توفير احتياجات الجماعات محمدا إلى مهاجمة قافلة ثرية لمكة، كانت متجهة إليها من الشام. وعندما علمت قريش أرسلت جيشا يغيثها مكونا من ألف رجل..».

فالمستشرقون عادة يرون أن محمدا والمسلمين كانوا يهاجمون القوافل ويقطعون الطريق لتوفير الطعام والشراب للمهاجرين، وهو ما لم يكن صحيحا، وإنما كانت هناك أسباب أخرى يرغب عن ذكرها هؤلاء ولم تذكرها المؤلفة أيضا. رغم أنها بعد ذلك تروي معركة بدر من الوجهة الإسلامية، وأن الله عزز فيها المسلمين بجند من عنده، كما يؤكد القرآن الكريم، ليس هذا فحسب، بل إنها عندما تعرضت إلى قضية الجهاد في الفصل العاشر من الكتاب، نفت عن غزوة بدر أن تكون بهدف قطع الطريق على قوافل مكة، وإنما كانت حربا للدفاع عن النفس والمال. تفرد المؤلفة جزءا خاصا بمحمد النبي والإنسان، وتقرر فيه إن شخصية محمد هي إحدى الشخصيات الأكثر تفردا من بين أعظم الشخصيات التي صنعت تاريخ البشرية. ومعجزاته، بالنسبة لمن يؤمن به وبالنسبة لمن لا يؤمن، تعد من الأحداث المذهلة. ولكنه كان هو نفسه المعجزة الأكبر، شخصيته وحياته.

ولأن ما تقوله ريتا دي ميليو في هذا الموضوع يستحق أن يعرض بالكامل، فهو ممتع كتابة وأسلوبا، فسوف نعرض له في ما يلي مع بعض الاختصار غير المخل بالمعنى والسياق. في مكة كان رجلا وديعا، يكاد يكون زاهدا في تعبده وفي عزلته الروحية. وكان رب بيت مثاليا طوال عشرته التي دامت خمسة وعشرين عاما من الحب مع زوجته التي كانت تكبره، خديجة. ورغم ما تعرض له من عداوة واستهزاء، فإنه ظل واثقا من نفسه ومن النصر النهائي لربه، ويجيب بهدوء ليهزأ من الكفار بآيات من القرآن وهو يهددهم بنار السعير. وفي المدينة تحول إلى رجل سياسي محنك، حتى أصبح رئيس دولة ومحاربا لا يشق له غبار. من ذا الذي يستطيع أن يتعرف في هذا الواعظ الوديع الذي كان في مكة على الفارس المقدام

الذي يقود جيشه لفتح الجزيرة العربية وما خلفها؟ يحكى أن النبي كان يمكن التعرف عليه من بين جميع المحاربين، رغم وجهه المغطى، وذلك من خلال ومضات بريق في عينيه. من يريد أن يشوه هذه الشخصية العظيمة فهو يضعه عادة في مقارنة بالمسيح. ولكن الشخصية الزاهدة للمسيح ليس لها أي علاقة بإنسانية محمد. فنبي الإسلام الذي كان يخوض الحروب، ويشن الغارات ويمارس القصاص، يجب النظر إليه داخل البيئة التي وجد فيها، والذي كانت طريقة حياته فيها هي القاعدة. فقد كان «رجلا مثل جميع الرجال»، رجلا مصطفى ولكنه في جميع الأحوال رجل، وقد أكد القرآن على هذا المفهوم مرتين. المرة الأولى في سورة الكهف: ﴿قل إنما انا بشر مثلكم يوحى الي﴾ [الكهف: 110]. والمرة الثانية في سورة الإسراء: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ [الإسراء: 93].

والفارق بينه وبين الآخرين من البشر هو أن الله اصطفاه وكلفه بتبليغ رسالته. وجعل منه خاتم الأنبياء! وهناك من لا يزال يرى في القرآن مجموعة من القواعد الدينية من أصول مسيحية ويهودية، تعلمها محمد من خلال اتصالاته مع شخصيات كبيرة تنتمي إلى هذين الدينين، قابلهم في مكة وفي المدينة. ومنها لفق محمد قرآنه. أي أن هؤلاء يرمون محمد بالانتحال. وفي هذا المجال فإنني أطرح الأسئلة التالية. لماذا كان عليه أن يخترع كذبة ضخمة مهولة مثل تلك؟ لجنون العظمة، حبا بالسلطة؟ في مكة، حيث لم يحقق الكثير من النجاح وواجه العديد من الآلام، لم يكن ليلتزم بهذا الصراع الذي كان يبدو بلا مخرج، إلا إذا مقتنعا بصحة رسالته. كيف استطاع أن يفحم بآيات القرآن اللاذعة الكاذبين والمنافقين إذا كان هو نفسه كاذبا؟ وإذا كان هو الذي ابتدع هذا الإسلام من بنات أفكاره فلماذا لم

يجعله بسيطا سهلا مقبولا من غالبية قومه؟ هؤلاء القوم الذين كانوا مشركين وثنيين وأتى لهم بدين توحيدي؟ بالإضافة إلى الديانة التوحيدية لماذا فرض عليهم صيام رمضان وهو أمر شاق جدا في شبه الجزيرة العربية حارقة الحرارة؟ وكيف أمكن أن يصبح من أصدقائه أشخاص من نبلاء الروح ومن الموهوبين بالذكاء الراقي إذا لم يكونوا يعتبرونه من الصادقين؟ وكيف استطاع وهو الأمي أن ينتج عملا على قدر كبير من القيمة أدبيا ولغويا؟ كم من الأسئلة التي يمكن طرحها وكم من الإجابات! ولكن هذا العرض هو عرض إسلامي وليس دراسة نقدية. وبالنسبة للمسلمين فإن محمدا هو نبي شديد النقاء والصدق، رسول الله، قدوة للمؤمنين، وخاتم للنبيين.

على اتهامه بالقسوة يمكن الرد ببساطة: لقد عاقب محمد بقسوة أفرادا ارتكبوا جرائم، أو أعداء عنيدين مثل القلائل (ستة) من القرشيين عند فتح مكة، واليهود الذين خانوه.. واستعمل كل الوسائل التي أتاحها له المجتمع آنذاك للدفاع عن جماعته ودعمها. حارب بإمكانيات متواضعة وبمعاونة قليلة حتى لا يسقط أمام الأعداء والمنافقين الذين كانوا يريدون له الخراب. ولكي يواجه احتياجات جماعته لجأ إلى شن الغارات، التي كانت تعتبر مشروعة في شبه الجزيرة العربية منذ أزمنة بعيدة وليست قابلة للحكم عليها بمقاييس أفكارنا الغربية. والحروب التي قام بها، سواء دفاعية أو هجومية، كانت لنشر دعوته. ولكن هذا العمل الوحشي في حياة الإنسانية حاول هو أن يجعله أقل وحشية. فقد أمر جنوده: «لا تقتلوا شيخاً فانياً لا تقتلوا امرأة لا تقتلوا صغيراً رضيعاً لا تهدموا بناءً لا تحرقوا شجراً لا تقطعوا نخلاً وأحسنوا».

كم هو فارق كبير بين هذا وقلة من المتطرفين في إحدى دول شمال أفريقيا الذين لم يتورعوا ولا يتورعون عن قتل البشر من جميع الأعمار والملل. لقد قتلوا طفلا في مقبرة! ولكني لا أزيد على هذا. ولكن هل يكون «المتطرفون» هم فعلا من يرتكبون مثل هذه الجرائم البشعة؟ أم كما يرى البعض، هم «آخرون» لهم مصلحة في إظهار المسلمين في زي القتلة السفاحين؟ من يدري! ومع ذلك لا بد من الاعتراف بأن التطرف يؤدي إلى كثير من التجاوزات التي لا تخطر على البال! يحلو لبعض الكتاب الغربيين على غير علم أن يتندروا بالزيجات المتعددة، التي عقدها محمد ﷺ في المدينة ويركزون على الجانب الشهواني فيها. أولئك الكتاب لا يضعون في حسبانهم، أو لا يعرفون، العادات السارية في زمن النبي، حيث كان الزواج يتم بسهولة فائقة وينفسخ من دون قيود، وتعدد الزوجات كان هو القاعدة العامة. والإسلام الذي كان يدعو إليه محمد وضع للزواج قواعد لم تكن موجودة قبله. وينبغي التأكيد مع ذلك على أنه تقدم في العمر، وحتى الخمسين من عمره، كان مخلصا لخديجة. وبعد أن ماتت عقد عددا من الزيجات الكثير منها كان لأهداف سياسية. فجميع زوجاته (ومن بينهن التاسعة وهي يهودية) كن جميعهن أرامل، وواحدة فقط هي التي كانت صغيرة السن، وهي عائشة بنت أبي بكر، وقد تزوجها عذراء. وكانت بعض الزيجات أيضا بدافع إنجاب ولد ذكر، لأن من أنجبهم من خديجة وماريا القبطية ماتوا.

ومن ثم فقد تحمل مسؤولية وأعباء أسرية ضخمة، رغم قلة موارده المالية، ومع ذلك لم يستخدم الحق في الطلاق. وعلى أي حال فإن الإسلام لا يحبذ الطلاق. وهناك كثير من الآيات القرآنية التي تدين الطلاق ضمنيا، وكثير من الأحاديث تؤكد على هذا المعنى، مثل: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له العرش».. «أبغض الحلال إلى

الله الطلاق، ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق». ولم يختلف سلوك محمد في هذا عن سلوك الأنبياء القدامى، مثل داوود وموسى، الذين لم يفكر أحد مطلقا في إدانتهم بسبب تعدد الزوجات، بنفس القدر الذي حدث مع نبي الإسلام! رغم السلطة التي اكتسبها في المدينة لم يكن محمد أبدا رجلا ثريا، أو سيدا عظيما، أو ملكا له قصور مشيدة وثياب فاخرة، لا لنفسه ولا لمن يعول. كان رجلا معتدلا مقتصدا. يحكي التراث أن طعامه اليومي كان يتكون معظمه من بضع ثمرات تمر وكوب من الحليب. وذات يوم دخل عليه عمر بن الخطاب، الذي أصبح ثاني الخلفاء المسلمين، وسأله: أما أنا فاشهد أنك رسول الله ولأنت أكرم على الله من قيصر- وكسرى وهما فيما هما فيه من الدنيا وأنت على الحصير قد أثر في جنبك!! فقال الرسول ﷺ: أما ترضى أن يكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟! وقد بنى لنفسه في المدينة في بداية هجرته إليها مسكنا واسعا بسيطا له فناء كبير، حيث كان يعقد الاجتماعات مع المؤمنين لإبلاغهم بالوحي الإلهي، ولإقامة صلاة الجماعة، ولإعطاء الأوامر من كل نوع سواء ذات الطابع الديني أو المدني أو الحربي، حيث كان محمد يستقبل السفارات التي تأتي للتعرف عليه وتقديم الهدايا له، حيث كانت تعيش زوجاته.

أما عن الثروات فكان يستطيع الحصول على الكثير منها ولكنه لم يكن يريد. حذره ربه من هذا في كثير من سور القرآن. كان حب النبي للضعفاء حبا يضرب به المثل، سواء من الرجال أو الأطفال، من الفقراء واليتامى. فقد كان هو فقيرا يتيما. وفي هذا المجال يكفي أن نذكر أقواله التالية: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت فيه يتيم يساء إليه، أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، ويشير بإصبعيه». «من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات». «لكل أمر مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء، وهم جلساء الله يوم القيامة». أما حبه وعطفه على الحيوان فيمكن أن

نلخصه في القصة التالية: ذات يوم نام النبي وعندما استيقظ وجد قطا قد تسلل إلى كم ثوبه الواسع ونام هو الآخر، فتركه ولم يتحرك حتى لا يزعجه، إلى أن استيقظ القط وانصرف من نفسه.

محمد، النبي والإنسان، بضعف أي كائن بشري، وبالقوة التي أمده بها الإيمان العميق برسالة الرسول الذي بعثه الله، كان بلا شك، وهو ما أؤكده وأشدد عليه لأنني مؤمنة به، من أعظم الشخصيات في التاريخ الإنساني. فهو لم يكن وحسب صاحب دعوة لديانة توحيدية، وإنما كان مناديا بالأخلاق السامية. نصر الضعيف على القوي، والفقير على الغني وحماية المعدمين وأشار إلى أن الغاية الأخيرة هي الحياة الخالدة. ووصل إلى أرقى مراتب الأخلاق عندما راح يبلغ ما أرسله إليه ربه. وكان يدعو: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين*لا شريك له﴾ [الأنعام: 162-163] [1].

جهاد النبي محمد ﷺ في كتاب ريتا دي ميليو:

أما عن حروب الرسول ﷺ خلال المرحلة المدنية, فليس من شرح أفضل من ذلك الذي قدمته «ريتا دي ميليو» الكاتبة المستشرقة المسيحية الكاثوليكية الملتزمة, في آخر كتبها المعنون «الإسلام.. ذلك المجهول في الغرب», حيث تقول هذه الباحثة الموضوعية في سيرة محمد عليه السلام ما يلي:

«في مكة كان رجلا وديعا, يكاد يكون زاهدا في تعبده وفي عزلته الروحية. وكان رب بيت مثاليا طوال عشرته التي دامت خمسة وعشرين عاما من الحب مع

(1) د. حسين محمود، الشرق الأوسط، 20، 9، 2009.

زوجته التي تكبره, خديجة، ورغم ما تعرض له من عداوة واستهزاء فإنه ظل واثقا من نفسه ومن النصر النهائي لربه ,فنبي الإسلام الذي كان يخوض الحروب, ويشن الغارات ويمارس القصاص, يجب النظر إليه داخل البيئة التي وجد فيها, والذي كانت طريقة حياته فيها هي القاعدة, فقد كان رجلا مثل جميع الرجال, رجلا مصطفى ولكنه رجل في كل الأحوال, وقد أكد القرآن على هذا المفهوم مرتين».

وتضيف «دي ميليو» في موضوع اتهام نبي الإسلام ﷺ بالقسوة: «لقد عاقب محمد بقسوة أفرادا ارتكبوا جرائم, أو أعداء عنيدين مثل القلائل (ستة) من القرشيين عند فتح مكة, واليهود الذين خانوه.. واستعمل كافة الوسائل التي أتاحها له المجتمع آنذاك للدفاع عن جماعته ودعمها.. حارب بإمكانيات متواضعة وبمعاونة قليلة حتى لا يسقط أمام الأعداء والمنافقين الذين كانوا يريدون له الخراب. ولكي يواجه احتياجات جماعته لجأ لشن الغارات, التي كانت تعتبر مشروعة في شبه الجزيرة العربية منذ أزمنة أبعد, وليست قابلة للحكم عليها بمقاييس أفكارنا الغربية. والحروب التي قام بها, سواء الدفاعية أو الهجومية, كانت لنشر دعوته, ولكن هذا العمل الوحشي في حياة الإنسانية, حاول هو أن يجعله أقل وحشية, فقد أمر جنوده بقوله, لا تقتلوا شيخا فانيا, ولا امرأة, ولا صغيرا رضيعا, ولا تهدموا بناء, ولا تحرقوا شجرا, ولا تقطعوا نخلا, وأحسنوا كما أحسن الله إليكم».

عقدت فصلا في كتابها بعنوان: محمد النبي والإنسان

تقول المستشرقة الإيطالية في فصل عقدته في كتابها بعنوان: محمد النبي والإنسان: «بضعف أي كائن بشري, وبالقوة التي أمده بها الإيمان العميق برسالة

الرسول الذي بعثه اللـه, كان بلا شـك, وهـو مـا أؤكـده لأننـي مؤمنـة بـه, مـن أعظـم الشخصيات في التاريخ الإنساني. فهو لم يكن وحسب صاحب دعوة لديانـة وحيديـة, وإنمـا كـان مناديا بالأخلاق السامية, نصر الضعيف على القوي, والفقير على الغني, وحماية المعدمين.. ومـن يريد أن يشوه هذه الشخصية العظيمة فهو يضعه عادة في مقارنـة بالمسـيح, ولكـن الشخصـية الزاهدة للمسيح ليس لها أي علاقة بإنسانية محمد».

إن ما يمليه الإيمان التوحيدي الحق, اليهودي أو المسيحي أو الإسلامي, هو احترام عقائـد البشر الدينية والروحية, التي تلتقي لدى كل منصـف في روحهـا الإنسـانية وخطابهـا المتسـامح, وهي عند كل متعمق متألق ومتنور, طرق إلى اللـه, إذ ليس معقـولا أن يكـون للخلـق الواحـد مئات الآلاف من المسارات الموصلة إليه, ولا يكون لخالق الخلق طرق بعدد مخلوقاته على قول المتصوفة, أما المتعصبون من ذوي العقل الضيق والرؤية السطحية, فإيمـانهم مـن طينـة عقلهـم ورؤيتهم, ظاهري يظلم المعتقد حقه وجوهره. ومـن العلمانيـة مـا يعلـم المـرء شـديد الاحـترام للعقائد الروحية والدينية على السواء, فالخلاف ليس مع الأديـان, إنمـا مـع مـن يريـد تطويعهـا لمصالحه وأهوائه الدنيوية ويحرفها عن مساراتها الأصلية, كما من الليبرالية ما يرشـد المـرء إلى أن من الحرية المقدسة, حرية المعتقد, مـن شـاء فليـؤمن ومـن شـاء فليكفـر, ومـن حـدث نفسـه باحترام الحق في الكفر, فلا ريب في أنه قرنه باحترام الحق في لإيمان. ثمة من المسلمين السـابقين, من يدخل في علاقة مع الغرب موطنه الجديد, بشكل مختل ومرضي, قائم عـلى الانبهـار المبـالغ به بالآخر وقيمه, في مقابل احتقار الذات الشديد والخجل منها, والانبهار المتطـرف كـما احتقـار الذات المتشدد كلاهما

مفض إلى طريق واحد ضيق ودائري يجعل صاحبه يلف حول نفسه غير قادر على النظر إلى أبعد من أرنبة أنفه, وقد كان يفترض بالداخل إلى معتقد أن لا يثير جلبة كما الخارج منه, فلا أحد يمكنه الوثوق بالحالة الإيمانية, في تقلبها وضعفها وقابليتها الدائمة للمراجعة, ولهذا فإن مجرد تحويلها إلى حالة إعلامية, سينفي عنها كل مصداقية. وأعود فأقول, بأن من حق الجميع أن ينقد السلوك البشري, لكن المبادئ التي تزكيها الفطرة البشرية, تجعل المس بالعقائد والأديان والأنبياء والرسل والقادة الروحانيين الذين نالوا حظوة ورمزية لدى أتباعهم, سلوكا غير مقبول ومستهجنا لا يمكن نسبته لأي خطاب إنساني حقيقي, دينيا كان أو علمانيا[1].

(1) أنظر: «جريدة السياسة الكويتية 13، 4، 2008».

توصيات البحث

بما أنَّ العالمَ الغربيَ معنيٌ بعالمِنا حيثُ صدرَ في العام الفائتِ 2008م خمسةُ الآفِ كتابٍ عنْ العالمِ الإسلامي والعربي ـ كما ذكرَ د. باسم خفاجي ـ غيرَ المقالاتِ والنَّدواتِ والأبحاثِ العلمية، ونظراً لتأثرِّنا بنظرةِ هذا العالمِ الغالبِ إلينا فلا محيدَ عنْ محاولةِ كسبِ منصفيهِ وعقلاءِ مفكريه وكتَّابِه، وهو أمرٌ تكادُ تخلو منه جوائزُ المسلمينَ التي تلتفتُ للبارعينَ في العلومِ التطبيقيةِ وتنسى المنصفينَ منْ المفكرينَ والكتَّابِ مع عظمِ أثرهم على القرارِ في بلدانِهم، ومنْ المقترحاتِ الممكنةِ لردم هذه الفجوة:

1- تخصيصُ جائزةٍ سنويةٍ مستقلةٍ بعدَّةِ فروعٍ لمَنْ ينصفُ الإسلامَ ديناً ومقدَّساتٍ وقضايا ورجالات؛ وتمنحُ لكتَّابٍ أوْ باحثينَ غربيين، وما أحرانا بإكرامِ عقلاءِ الغربِ المتعاطفين.

2- إضافةُ فرعٍ إلى الجوائزِ الإسلاميةِ القائمةِ لمَنْ ينصفُنا منْ مفكري الغرب؛ كجائزةِ الملكِ فيصل والشيخ زايد والعويسِ والبابطين وجائزةِ الدَّولةِ في مصر ـ والأردن وغيرِها؛ ولو اقتضى ذلكَ تعديلَ لوائحها.

3- استضافةُ المنصفينَ منْ الغربِ في المهرجاناتِ الثقافيةِ ومعارضِ الكتابِ والجامعاتِ والنَّوادي الأدبية؛ وكمْ هو جميلٌ أنْ تكونَ الاستضافةُ ذاتَ طابعين: رسمي وشعبي.

4- ترجمةُ كتبٍ ومقالاتٍ ومواقع هؤلاءِ الكتَّابِ إلى اللغةِ العربيةِ وغيرِها منْ لغاتِ المسلمين.

5- إهداءُ نتاجِهم الفكري إلى مراكزِ البحثِ الغربيةِ.

6- الإفادة منْ هؤلاءِ المنصفينَ في مراكزِ الدِّراساتِ والبحوث.

7- إشراكُ الكتَّابِ والمفكرينَ العقلاءِ في حلقِ النِّقاشِ الخاصَّةِ باستشرافِ مستقبلِ أمتنِا أوْ التخطيطِ للعملِ المثمرِ في الغرب.

8- طلبُ رأي المنصفينَ في القضايا الإسلاميةِ التي يثيرُها الإعلامُ الغربي.

9- تخصيصُ أوراقِ عملٍ لهم في المؤتمراتِ والحواراتِ التي ترعاها بلادُ المسلمينَ في الغربِ أوْ معه.

10- عقدُ لقاءاتٍ معهم ضمنَ جدولِ أعمالِ الوفودِ الإسلاميةِ الزَّائرةِ على مستوى الرؤوساءِ فما دون.

11- تيسيرُ زيارةِ الباحثينَ المعتدلينَ للبلادِ الإسلاميةِ لتوثيقِ العلاقةِ معهم.

12- تمويلُ المراكزِ ووسائلِ الإعلامِ التي يمتلكُها أيُّ منصفٍ لأمتنا.

13- إشهارُ جوائزِنا الخاصَّةِ بمفكري وكتَّابِ الغربِ إعلامياً حتى تكونَ حافزاً للبحثِ المنصف.

14- التغاضي عنْ بعضِ المواقفِ لهؤلاءِ المنصفين، فالكمالُ منتفٍ معْ المسلم فكيفَ بغيره؛ وهذهِ المسألةُ تحتاجُ ضبطاً شرعياً لهُ أهلهُ الذينَ يقدِّرونَ المصلحةَ الشرعية.

مراجع البحث

1ـ الإسلام ذلك المجهول في الغرب: «الدين الإسلامي في ضوء القرآن والسنة»، ريتا دي ميليو، صورة مصورة عن نسخة مترجمة إلى العربية غير منشورة، ترجمة عبد الله حسون، والكتاب سينشر بالعربية قريبا.

2ـ مقابلة الدكتورة ريتا دي ميليو مع صحيفة الشرق القطرية 16، 3، 2009.

3ـ مقال الدكتور حسين محمود، الشرق الأوسط، العدد 10642 تاريخ 17، 1، 2008.

4ـ مقابلة الدكتورة ريتا دي ميليو مع «جريدة السياسة الكويتية 13، 4، 2008».

5ـ نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر، لخضر شايب، مكتبة العبيكان، 2002.

6ـ الإستشراق والدراسات الإسلامية، عبد القهار العاني، عمّان، دار الفرقان، 1428هـ

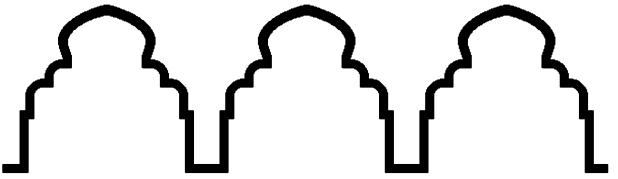

الفصل الرابع

دور الدعوة الإسلامية

في توعية الحجاج وإرشادهم[1]

(1) بحث مقدم للمشاركة في ندوة الحج الكبرى (التوعية في الحج)، مكة المكرمة ـ 1431هـ.

الملخص

الحج مؤتمر إسلامي كبير وتجمع ضخم يلتقي فيه المسلمون من بقاع الأرض المختلفة، وإن الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ في موسم الحج سنّة نبوية منذ فجر الإسلام؛ إذ كان النبي ﷺ يعرض دعوته على الناس في مواسم الحج، وقد استمر علماء الإسلام ودعاته الصادقون على مرّ العصور في اغتنام هذا الموسم العظيم دعويًا مستفيدين منه في إيقاظ القلوب وإنارة البصائر وعرض الإسلام النقي، والحج موسم دعوي وفرصة ذهبية للدعاة والعلماء والمصلحين، فالناس فيه مقبلون على الخير وقد تجردوا عن مشاغل الدنيا وملهياتها، ولمشاهد الموسم ومناسكه أثر عجيب على قلب كل حاج، وفي موسم الحج تكون الحاجة ماسّة إلى فقه العلماء وإرشادات الدعاة، ويقصد البيت الحرام ويحج إليه فئات كثيرة من الناس، والدعاة والعلماء أنفسهم يأتون من شتى الأمصار بأعداد كبيرة تكفي القيام بأعباء الدعوة في هذا الموسم العظيم، وتفويت هذه الفرصة الدعوية من قبل الدعاة تفريط لا مسوغ له، لذا ينبغي عليهم أن يعدوا عدتهم لتبصير الحجيج بفقه الحج وإرشادهم وتوجيههم التوجيه الصحيح واختيار الوسائل الدعوية الحديثة المؤثرة التي تسهم في التأثير على سلوك الحجاج. والآلاف من الحجاج الذين يتهيئون في هذه الأيام لـ«رحلة العمر»، يحتاجون من التوعية والإرشاد والتوجيه عناية واهتماما كبيرا بتعلم أحكام الحج ومعانيه ومقاصده وأسراره وأهدافه وفلسفته. وتوعية الحجاج غاية شرعية ومطلب أساسي ملح لتبصيرهم بفقه الحج وإرشادهم

وتوجيههم التوجيه الصحيح لأداء مناسك الحج بسهولة ويسر- إن موسم الحج يفتح آفاقاً رحبة للوعظ والإرشاد والدعوة.

ونحن نريد اليوم من يفهم الحج فهما صحيحا شاملا، ومن يدرك مراميه وغاياته، ومن يعرف فلسفة الحج في الإسلام بتدبر واع وتأمل دقيق. والمقاصد في المناسك كما بين العلماء، فإن غالبية المسلمين يفتقر إلى معرفة هذه المقاصد. وفي تقديري أن هذه المعاني بالنسبة للحاج كالروح للجسد، وإلا فما قيمة حج يرجع الإنسان منه كما جاء إليه، لم يغير في نفسه ولا سلوكه شيئاً. والحديث عن الحج زماناً ومكاناً وأداء ليس حديثاً عابراً عن رحلة إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج والعمرة فحسب، بل هو حديث عن مدرسة مؤصلة، لها منحاها العقدي، وتشريعاتها الدينية، وقيمها الاجتماعية بأبعد ما تكون تلك المعاني والمقاييس في العقيدة والشريعة والسلوك الاجتماعي بالأهداف والمقاصد.

لذا لابد من أن ندرك أن حركة الإنسان الجسمية في طريق تأدية فريضة الحج لابد أن تكون مسبوقة بحركة فكرية تعقد العزم على أن العودة من هذه الرحلة يجب أن تتفوق على الذهاب إليها من حيث تقويم السلوك واستقامة اعوجاجها. فما أجمل أن يعود الحاج وقد استشعر دروس الحج واستشعر معاني الحج، هذه المعاني العظيمة، التي من تأصلت في قلبه رجع شخصا آخر.

وفي عصرنا نرى في الحج جهودًا دعوية مباركة، وأعمالاً مشكورة يقوم بها العديد من الجهات والأفراد في المملكة العربية السعودية؛ ولكنها ـ مع كثرتها ـ وبسبب توارد الأعداد الضخمة من الحجيج والتي تتزايد موسمًا بعد آخر، لا تزال غير كافية وتحتاج إلى المزيد، مما يحتم إعطاء الدعوة والإرشاد في موسم الحج أولوية

تفوق أولوية الاهتمام بشؤون تغذية الحجيج وإسكانهم وتوفير النقل لهم، كما يحتم تكثيف البرامج الدعوية ومراجعة القائم منها ومحاولة إدخال التجديد عليها بما يتلاءم وأهمية الدعوة في هذا المقام المبارك. ومجالات التوعية في الدعوة متنوعة ومختلفة منها: توعية الحجاج بأهمية التنظيم والنظام، فالتقيد بتعليمات ولي الأمر في المحافظة على أنظمة الحج للحفاظ على أرواح الحجاج وممتلكاتهم وحمايتهم من حوادث الدفع والاختناق واجب شرعا، وفي ثقافتنا الإسلامية يعدّ الالتزام بهذه القوانين والأنظمة إلزامًا وتكليفًا شرعيًا، بحيث من يتسبّب في ضرر نفسه يأثم بهذا العمل، ويتحمّل وزر إيقاع الضرر بالآخرين كذلك. ومنها توجيه الحجاج إلى تصحيح الأفكار والمعتقدات الخاطئة، إذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو باب كبير من أبواب الدعوة إلى الله، **وتبيّن الدراسات الميدانية المعنية بإدارة الأزمات، أنّ أكثر التجاوزات والأخطاء الإدارية والثقافية والدينية التي يقع فيها الحجاج أثناء أدائهم لمناسك الحج؛ هو نتيجة لعدم إعدادهم لها مسبقاً في بلدانهم وبالكيفية والحجم المناسبين.** لذا ينبغي إعداد خطة كاملة وشاملة لتوعية الحجاج في بلدانهم وحتى وصولهم إلى الديار المقدسة، للتيسير على زوّار بيت الله الحرام في كل ما يلتبس عليهم في أمور دينهم لكي يؤدوا نسكهم بطريقة ميسرة وسليمة.

وبسبب ضيق موسم الحج وانشغال الحجاج في عباداتهم فإن توعية الحجاج وتبصيرهم في أمور دينهم في بلادهم هي أفضل وذات جدوى أكبر، وكذلك ينبغي التركيز على برامج التوعية والتدريب العملي للحجاج في بلادهم وبوقت كاف قبل وصولهم إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، وإنني أوصي بإدراج شرط الحصول على شهادة حضور برامج التوعية الشاملة ضمن متطلبات

الحصول على تأشيرة الحج، على أن تكون هذه الشهادة صادرة من جهة معتمدة في تنفيذ برامج التوعية. وكذلك أن يتم إلزام الدول بتنفيذ برامج توعية شاملة لحجاجها قبل وصولهم إلى الديار المقدسة. كما أقترح الاستعانة بالخبراء في جميع وسائل الإعلام سواء المرئية أو المقروءة أو المسموعة للمشاركة في توعية حجاج بيت الله الحرام. وأخيرا فإن التوعية في مجال الدعوة الإسلامية غير محددة وغير متناهية وتتجدد مع التزاحم والتطوير والتنظيم والمستجدات الحديثة والنوازل الفقهية المعاصرة التي تقع في موسم الحج.

وفي الختام فإنّ ما توليه حكومة المملكة العربية السعودية من عناية واهتمام للمشاعر المقدسة أمر ظاهر للعيان ولا ينكر ذلك إلا جاحد مكابر، فلهم منّا ومن المسلمين الشكر والثناء والدعاء من الله عز وجل بالقبول والثبات والتثبيت، وإننا نطمع من الحكومة الرشيدة المزيد من الإنجازات المباركة التي تخدم المشاعر المقدسة وضيوف الرحمن من حجاج ومعتمرين.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذه الورقة البحثية المتواضعة عن علاقة التوعية في الحج بالدعوة الإسلامية جاءت استجابة لدعوة كريمة من القائمين على ندوة الحج الكبرى للمشاركة في ندوة (التوعية في الحج) المزمع إقامتها بعون الله عزّ وجلّ بمكة المكرمة في موسم حج 1431هـ.

من فضل الله تعالى ورحمته أن جعل لعباده مواسم للخير، له فيها نفحات تغتنمها النفوس، وتلين فيها القلوب؛ فتذوق حلاوة الإيمان، وتجد لذة الطاعات، وتستقبلها بالتوبة الصادقة؛ فتكون الدعوة فيها مثمرة. والحج مؤتمر إسلامي كبير وتجمع ضخم يلتقي فيه المسلمون من بقاع الأرض المختلفة... ولو أحسن المسلمون الاستفادة من هذا اللقاء الكبير لوجدوا فيه خير مكان تجتمع فيه وحدة المسلمين وكلمتهم.

إن الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ في موسم الحج سنّة نبوية منذ فجر الإسلام؛ إذ

كان النبي ﷺ يعرض دعوته على الناس في مواسم الحج، فقد روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن ربيعة بن عباد الديلي قال: رأيت النبي ﷺ في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». ومن حديث جابر رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في المواقف فيقول: «هل من رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل!»[1].

وفي حجة الوداع , وفي أكبر جمع وأعظم ظرفي زمان ومكان. يقول ﷺ: «بلغوا عني ولو آية، نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، ربّ حامل فقه لمن هو أفقه منه»[2]. كما أرسل العديد من أصحابه رضي الله عنهم لذلك، وقد استمر علماء الإسلام ودعاته الصادقون على مرّ العصور في اغتنام هذا الموسم العظيم دعويًا مستفيدين منه في إيقاظ القلوب وإنارة البصائر وعرض الإسلام النقي.

والحج موسم دعوي وفرصة ذهبية للدعاة والعلماء والمصلحين، فالناس فيه مقبلون على الخير وقد تجردوا عن مشاغل الدنيا وملهياتها، ولمشاهد الموسم ومناسكه أثر عجيب على قلب كل حاج، وفي موسم الحج تكون الحاجة ماسّة إلى فقه العلماء وإرشادات الدعاة، ويقصد البيت الحرام ويحج إليه فئات كثيرة من الناس، والدعاة والعلماء أنفسهم يأتون من شتى الأمصار بأعداد كبيرة تكفي القيام بأعباء الدعوة في هذا الموسم العظيم، وتفويت هذه الفرصة الدعوية من قبل الدعاة تفريط لا مسوغ له، لذا ينبغي عليهم أن يعدوا عدتهم لتبصير الحجيج بفقه الحج

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (15448) وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (834)

(2) سنن الترمذي [2656].

وإرشادهم وتوجيههم التوجيه الصحيح واختيار الوسائل الدعوية الحديثة المؤثرة التي تسهم في التأثير على سلوك الحجاج. والآلاف من الحجاج الذين يتهيأون في هذه الأيام لـ«رحلة العمر»، يحتاجون من التوعية والإرشاد والتوجيه عناية واهتماما كبيرا بتعلم أحكام الحج ومعانيه ومقاصده وأسراره وأهدافه وفلسفته. وقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة وتوصيات ومقترحات.

والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

تعريف التوعية والدعوة

المطلب الأول ــ تعريف التوعية:

التوعية هي: العملية التي تشير إلى إكساب الفرد فهما حول أمر ما أو أمور بعينها، وتبصيره بالجوانب المختلفة المحيطة بها.

وعرّفها آخرون: بأنها عملية توجيه بعض الأفكار والآراء والمفاهيم بهدف تغيير بعض أنماط السلوكيات السلبية أو الخاطئة لدى الأفراد ومحاولة تقويمها لخدمة المجتمع[1].

وعموماً فالتوعية بشيء تعني ما يلي:

1- معرفة ماهية وظروف هذا الشيء.

2- فهم طبيعة حركته، وهل هي مفيدة أو ضارة، إيجابية أو سلبية...؟

3- التوصل إلى أسلم الطرق الممكنة واقعياً للتعامل مع هذا الشيء، والسيطرة عليه.

(1) انظر: التوعية والإرشاد سالم محمود ص54.

المطلب الثاني ــ أهداف التوعية:

تهدف التوعية في بؤرة اهتمامها إلى التوجيه والإرشاد للتزود بالمعرفة وإكساب واكتساب الخبرة.

كما تهدف إلى معالجة العديد من القضايا المختلفة، وإلى التوجيه من خلال أنشطة وبرامج معينة بغية تغيير مفاهيم وعادات تجاه أسلوب أو مفهوم معين.

ويمكن القول أن التوعية تشير إلى مدى التأثير في إنسان أو جماعة أو مجتمع لقبول فكرة أو موضوع ما.

المطلب الثالث ــ التعريف بالدعوة لغة واصطلاحاً:

الدعوة لغة:

جاء في مختار الصحاح: دعا الدعوة إلى الطعام بالفتح، ويقال كنا في دعوة فلان، ومدعاة فلان وهو مصدر، والمراد بهما: الدعاء إلى الطعام، و(الدعوة) بالكسر في النسب، و(الدعوى) أيضاً هذا أكثر كلام العرب، وعدي الرباب يفتحون الدال في النسب ويكسرونها في الطعام، و(الدعي) من تبنيته، ومنه قول الله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم﴾[1].

وادعى عليه كذا، والاسم الدعوى، وتداعت الحيطان أي تهادمت، و(دعاه) صاح به، واستدعاه أيضاً، و(دعوت) الله له وعليه أدعوه (دعاءا)، و(الدعوة) المرة الواحدة، و(الدعاء) واحد الأدعية، وتقول للمرأة: أنت تدعين وتدعوين وتدعين بإشمام العين الضمة، وللجماعة أنتن تدعون مثل الرجال سواء،

(1) انظر: مختار الصحاح للرازي ص205.

و(داعية اللبن): ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده، وفي الحديث (لا تفعل دع داعي اللبن)[1].

وقال محمد أمين حسن: ورد لفظ الدعوة في القرآن الكريم في آيات كثيرة وبمعان متعددة يهمنا هنا معنيان، الدعوة بمعنى التبليغ والبيان، ونقل هداية الله إلى الناس، وقد ورد بهذا المعنى آيات كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا﴾ [فصلت: 24]، وقول الله تعالى: ﴿قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا ﴾ [نوح: 5]، وقول الله تعالى: ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة ﴾ [يوسف: 108].

فمفهوم الدعوة من خلال مدلولها اللغوي يشير إلى النداء والطلب للاجتماع على شيء أو الاشتراك فيه، فدعا الرجل ناداه أو طلبه، والاصطلاح هو الذي يعين ويحدد المراد من النداء أو الطلب وبغير بيان المقصود يبقى المعنى عاماً شاملاً.

التعريف بالدعوة اصطلاحاً:

الدعوة في لسان الشرع قد وردت فيها عدة تعاريف، نذكر منها:

1ـ تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

(الدعوة إلى الله، هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا)[2].

(1) رواه أحمد في مسنده 4، 76.

(2) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ج15، 157

2ـ تعريف د. السيد محمد الوكيل:

الدعوة إلى الله هي جمع الناس إلى الخير، ودلالتهم على الرشد، بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ [آل عمران: 104][1].

3ـ تعريف الشيخ الصواف:

الدعوة هي رسالة السماء إلى الأرض، وهي هدية الخالق إلى المخلوق، وهي دين الله القويم، وطريقه المستقيم، وقد اختارها الله وجعلها الطريق الموصل إليه سبحانه،﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: 19]، ثم اختارها لعباده، وفرضها عليهم، ولم يرض بغيرها بديلاً عنها ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [آل عمران: 85].

وخلاصة التعاريف فإننا نقول بأن الدعوة إلى الله هي: قيام الداعية المؤهل بإيصال دين الإسلام إلى الناس كافة (أمة الدعوة وأمة الاستجابة) وفق الأسس والمنهج الصحيح، وبما يتناسب مع أصناف المدعوين ويلائم أحوال وظروف المخاطبين.

(1) انظر: أسس الدعوة وآداب الدعاء للدكتور السيد محمد الوكيل، ص9.

المبحث الثاني

علاقة التوعية في الحج بالدعوة الإسلامية

المطلب الأول ــ التوعية في الحج:

توعية الحجاج غاية شرعية ومطلب أساسي ملح لتبصيرهم بفقه الحج وإرشادهم وتوجيههم التوجيه الصحيح لأداء مناسك الحج بسهولة ويسر.

والتوعية في الحج: هو العمل على تغيير سلوك الحجاج نحو الجانب الإيجابي.

المطلب الثاني ــ الحج فرصة عظيمة لتوعية الحجاج:

الدعوة إلى الله تعالى من أعظم أعمال البر لما يترتب عليها من فوائد جليلة، ومصالح عظيمة تعود على الداعي والمدعو وعلى المجتمع والأمة والبشرية جمعاء، وقد أثنى الله سبحانه على الدعاة من عباده فقال: ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إني من المسلمين﴾ [فصلت: 33]. والحج مناسبة كبرى، وفرصة مهمة للدعوة إلى الله وتبصير المسلمين بأمور دينهم حيث تحتشد الملايين من بقاع المعمورة في هذا الموسم، بدافع التعبد لله تعالى، وهم أحوج ما يكونوا إلى من يوصل إليهم الخير والبر والإحسان والمعروف الديني والدنيوي. إن موسم

الحج يفتح آفاقاً رحبة للوعظ والإرشاد والدعوة. ونحن نريد اليوم من يفهم الحج فهما صحيحا شاملا.. ومن يدرك مراميه وغاياته.. ومن يعرف فلسفة الحج في الإسلام بتدبر واع وتأمل دقيق. والمقاصد في المناسك كما بين العلماء.. فإن غالبية المسلمين يفتقر إلى معرفة هذه المقاصد. وفي تقديري أن هذه المعاني بالنسبة للحاج كالروح للجسد، وإلا فما قيمة حج يرجع الإنسان منه كما جاء إليه، لم يغير في نفسه ولا سلوكه شيئاً.. والحديث عن الحج زماناً ومكاناً وأداء ليس حديثاً عابراً عن رحلة إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج والعمرة فحسب، بل هو حديث عن مدرسة مؤصلة لها منحاها العقدي، وتشريعاتها الدينية، وقيمها الاجتماعية بأبعد ما تكون تلك المعاني والمقاييس في العقيدة والشريعة والسلوك الاجتماعي بالأهداف والمقاصد. لذا لابد من أن ندرك أن حركة الإنسان الجسمية في طريق تأدية فريضة الحج لابد أن تكون مسبوقة بحركة فكرية تعقد العزم على أن العودة من هذه الرحلة يجب أن تتفوق على الذهاب إليها من حيث تقويم السلوك واستقامة اعوجاجها. فما أجمل أن يعود الحاج وقد استشعر دروس الحج واستشعر معاني الحج.. المعاني العظيمة، التي من تأصلت في قلبه رجع شخصا آخر.

المطلب الثالث ــ الحاجة إلى توعية الحجيج:

في عصرنا نرى في الحج جهودًا دعوية مباركة، وأعمالاً مشكورة يقوم بها العديد من الجهات والأفراد في المملكة العربية السعودية؛ ولكنها ـ مع كثرتها ـ لا تزال غير كافية وتحتاج إلى مزيد لأسباب عديدة أهمها:

1ـ توارد الأعداد الضخمة من الحجيج والتي تتزايد موسمًا بعد آخر، وهو مما يهيئ لإحداث نقلة دعوية نوعية في العالم الإسلامي متى أحسنا ذلك.

2ـ تفشي الأمية الشرعية وعموم الجهل بعقائد الإسلام وأحكامه، وانتشار الشركيات والبدع والخرافات بشكل مذهل في أوساط كثير من الحجاج.

3ـ نوعية الحجيج؛ إذ كثير ممن يأتي للحج من البلدان المتفرقة هم من ذوي العواطف الدينية الجياشة الذين توفَّرَ لديهم نوع من اليسار النسبي والوجاهة في أوساط أقوامهم، مما يرجى أن يكون لدعوتهم أثر على أقوامهم بعد عودتهم.

4ـ استعداد الحجيج وتهيؤهم للاستماع والتلقي.

5ـ نظرة كثير من المسلمين لأبناء الحرمين نظرة تقدير وإجلال، وتقليدهم لهم فيما يرونهم يفعلونه ويدعون إليه، وهذا مما يضاعف المسؤولية ويزيد العبء على عاتق الدعاة والمخلصين في بلاد الحرمين.

كل ذلك يحتم إعطاء الدعوة والإرشاد في موسم الحج أولوية تفوق أولوية الاهتمام بشؤون تغذية الحجيج وإسكانهم وتوفير النقل لهم، كما يحتم تكثيف البرامج الدعوية ومراجعة القائم منها ومحاولة إدخال التجديد عليها بما يتلاءم وأهمية الدعوة في هذا المقام المبارك[1].

المطلب الرابع ــ أبرز مجالات التوعية بالحج في الدعوة إلى الله تعالى:

المسلمون اليوم بحاجة أولا لتوعيتهم في فقه الأولويات ومقاصدها: يقول الدكتور يوسف القرضاوي: في موسم الحج من كل عام نرى أعداداً غفيرةً من المسلمين الموسرين يحرصون على شهود الموسم متطوعين، وكثيراً ما يضيفون إليه العُمرة في رمضان، ينفقون في ذلك عن سخاء، وقد يصطحبون معهم أناساً من

(1) أنظر الدعوة إلى الله في الحج، فيصل البعداني، مجلة البيان ـ العدد 148 ذو الحجة 1418 هـ

الفقراء على نفقتهم، وما كلَّف الله بالحج ولا العُمرة هؤلاء. فإذا طالبتهم ببذل هذه النفقات السنوية ذاتها لإنشاء مركز للدعوة، أو تجهيز دعاة متخصصين متفرغين، وتأليف أو ترجمة ونشر كتب إسلامية نافعة، لوَّوْا رؤوسهم، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون.

كتب أحد الدعاة المسلمين مقالا يقول للمسلمين بصراحة: إن إنقاذ المسلمين في غزة مقدَّم على فريضة الحج، وقد سأل كثيرون ممن قرأوا المقال عن مدى صحة هذا الكلام من الناحية الشرعية والفقهية:فقلنا لهم إن لكلام الكاتب وجهاً صحيحاً ومعتبراً من ناحية الفقه، فإن من المقرر شرعاً: أن الواجبات المطلوبة فوراً مقدَّمة على الواجبات التي تحتمل التأخير. وفريضة الحج تحتمل التأخير، وهو واجب على التراخي عند بعض الأئمة.

أما إنقاذ أهلنا في غزة والعراق من هلاك الجوع والمرض من ناحية، ومن خطر الإبادة الجَماعية والحصار، فهي فريضة فورية ناجزة، لا تقبل التأخير، ولا تحتمل التراخي، فهي فريضة الوقت، وواجب اليوم على الأمة الإسلامية كلها. أكثر الذين يتزاحمون في موسم الحج كل عام هم من الذين أسقطوا عنهم الفريضة وحجوا من قبل. والذين لم يحجوا قبل ذلك لا يكوِّنون من مجموع الحجيج أكثر من 15% فإذا كان الحجاج نحو مليونين فإن الذين يحجون منهم ـ عادة ـ لأول مرة، لا يزيدون غالباً عن ثلاثمائة ألف. فليت الذين يتطوعون بالحج ـ وهم الأكثرية ـ ومثلهم الذين يتطوعون بالعمرة طوال العام، وخصوصاً في شهر رمضان، يتنازلون عن حجهم وعمرتهم، ويبذلون نفقاتهما في سبيل الله، أي في إنقاذ إخوانهم المسلمين والمسلمات، الذين يتعرضون للهلاك المادي والمعنوي، وللعدوان الغاشم،

الذي يستبيح كل حرماتهم، لو عرف المسلم فقه الأولويات ومقاصدها، لكان عليه أن يشعر بسعادة أكبر، وروحانية أقوى، كلما استطاع أن يقيم بنفقات الحج مشروعاً إسلامياً، يكفل الأيتام، أو يطعم الجائعين، أو يؤوي المشردين، أو يعالج المرضى، أو يُعلِّم الجاهلين، أو يُشغِّل العاطلين[1].

كما ان هناك توعية في جانب الأحكام الفقهية لمناسك الحج مثل جواز الرمي قبل الزوال في اليوم الثاني عشر حفاظا على أرواح وسلامة وأمن الحجاج وتوعيتهم في الاقتصار على طواف الركن والواجب أو في تأخير طواف الإفاضة إلى آخر أيام الحج أي في تأجيل طواف الإفاضة مع طواف الوداع وجعلهما طوافا واحدا قبيل مغادرة الحاج وكذلك في إمكانية اتخاذ بعض الرخص في مسألة الطواف لتخفيف الضغط على المطاف في موسم الحج. وان يتبنى العلماء والدعاة فتاوى التيسير وتوعية الحجاج باتباعها دون مزاحمة الآخرين والإضرار بهم. وتوعية الحجاج بالسير على منهج الرسول ﷺ في حجة الوداع عندما سكن في منطقة البطحاء البعيدة عن الحرم حوالى «2» كم والتي تعرف حاليا بالمعابدة ولم يذهب للحرم بعد الحج إلا عند قيامه بطواف الوداع. وكأن النبي ﷺ يعلم ماذا سيكون عليه الحج بعد مئات السنين من ازدحام لذلك، فقد سنّ سنة حسنة عندما سكن بعيدا عن الحرم ولم يذهب لكل صلاة، فحجاجنا من هذه الناحية بحاجة إلى توعية وتبصير إذ أن الكثير من الحجاج يذهبون إلى الحرم كل يوم للصلاة والطواف، وفي ذلك مشقة عليهم وتضييق على باقي المسلمين في الحرم وتعريض أنفسهم والآخرين للخطر. والحجاج لو ساروا على هذا المنهاج لما حصل الازدحام

(1) أنظر فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، ص66 بتصرف.

الكبير الذي نراه في الطواف فترة الحج. ومن مجالات التوعية في الدعوة توعية الحجاج بأهمية التنظيم والنظام، فالتقيد بتعليمات ولي الأمر في المحافظة على انظمة الحج للحفاظ على أرواح الحجاج وممتلكاتهم وحمايتهم من حوادث الدفع والاختناق واجب شرعا، وفي ثقافتنا الإسلامية يعدّ الالتزام بهذه القوانين والأنظمة إلزامًا وتكليفًا شرعيًا، بحيث من يتسبّب في ضرر نفسه يأثم بهذا العمل، ويتحمّل وزر إيقاع الضرر بالآخرين كذلك. ومنها توجيه الحجاج إلى تصحيح الأفكار والمعتقدات الخاطئة، إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو باب كبير من أبواب الدعوة إلى الله، وهناك بعض فئات من الحجيج تخصص اليوم السادس، ليلة السابع من شهر ذي الحجة في القيام ببعض الأعمال التي تتنافى مع الإسلام والتي تسبب تجمهر الناس حولهم وتعيق حركة الناس داخل الحرم أو في المطاف، وهناك من يمسكون بعضهم البعض في شكل جماعات مما يضيق على الناس ويثير ضجرهم ويسببون الزحام، لذا كان واجب الدعاة تبصير الحجاج بمشكلة الزحام بالحج وكذلك بتنبيههم على مسألة الزحام بسبب تكرار الطواف. حيث إن منهج النبي ﷺ لم يطف إلا طواف النسك فقط، كذلك توجيههم وتوعيتهم بمسألة تكرار العمرة التي فيها تضييق على من يؤدي النسك المفروض، فيحصل الزحام في المسعى والطواف ويلحقون الأذى

والضرر بالحجاج، وكما هو معلوم فإن إلحاق الأذى ممنوع في الشريعة، حيث إن الأمر الذي يتولد منه مفسدة مرفوض في ديننا، وكذلك ينبغي على الدعاة والمرشدين

والعلماء على اختلاف مستوياتهم توجيه الحجاج إلى عدم تقبيل الركن

اليماني، لأن السنة استلامه من غير تقبيل، وتوجيههم على عدم المزاحمة على الحجر الأسود، وأن استلامه وتقبيله يكون في غير مزاحمة، وتبصيرهم في أن استلام الحجر الأسود سنّة، والتحرز عن أذى المسلم واجب فلا ينبغي له أن يؤذي أحدا، وإرشاد الحاجّ أن يرمل في الزحام إذا وجد فرجة مع توقي الضرر والإضرار، وتوجيه حجاج بيت الله الحرام في ترك التعلق بأستار الكعبة والتمسك بجدرانها وأيضا ترك استلام الركنين الشاميين.

وكذلك توجيه الحجاج على أن الصلاة داخل مسجد نمرة ليس واجبا وإرشادهم إلى أن صلاة ركعتي الطواف يمكن أن تؤدى في أي مكان في المسجد الحرام وإرشاد الحجاج للتمييز بين الواجب والسنّة، والسنّة والبدعة، والصحيح والباطل من أعمال الحج، وتوجيه الحجاج أن المرور بالمزدلفة كاف لتحقيق الوقوف وما دامت هي على الطريق فالكل سيمرّ بها، وإرشاد الحجاج إلى ضرورة التوكيل في رمي الجمرات لمن لا يستطيع، وتوجيههم إلى مدة الرمي وكذلك إرشادهم إلى أنّ المبيت بمنى ليلة التاسع من ذي الحجة هو سنّة. وتبصيرهم وتوعيتهم بعدم وجوب الوقوف في جبل الرحمة وتوجيههم بضرورة قضاء الحجاج يوم عرفة بالأعمال الصالحة. هذه أمثلة على مجالات التوعية والإرشاد الدعوي في الحج[1].

(1) أنظر:أعمال وبحوث ندوة مشكلة الزحام في الحج وحلولها الشرعية، الجزء الثاني، ص211، مجمع الفقه الإسلامي، 1422هـ

المبحث الثالث

الحج وعي وفهـــم

المطلب الأول ــ قصور في وعي بعض الحجيج في فهم آداب الإسلام:

من يقصد البيت الحرام في موسم الحج لا تغيب عن ناظريه ظاهرتـان سـلبيتان، ليسـتا من خلق المسلم والحاج لبيت الـلـه، ولا تمتـان إلى أدب الإسـلام بصـلة؛ أولى هـاتين الظـاهرتين، ظاهرة عدم مراعاة قواعد النظافة في الأماكن المقدسة، وهـذا مـا يتضـح مـن أطنـان المخلفـات التي تلقى على الأرض في منى وعرفات، ما يتنافى مع الهدف الأسمى من الحج، وثانيهما ظـاهرة الفوضى وعدم مراعاة النظام واحترام الآخرين. إن العديد من المؤدين لمناسك الحـج لا يكترثـون كثيرًا بهذا الأدب الإسلامي، ولا يلقون له بالاً، مع أن المكان الـذي هـم فيـه أولى وأجـدر بمراعـاة هذا الأدب، وهـذا إن دل عـلى شيء، فإنمـا يـدل عـلى قصـور في الـوعي وجهـل في فهـم الـدين ومقاصده. ونحسب أن الالتزام بقواعـد وسـلوكيات الـدين الإسـلامي في النظافـة والتـزام النظـام مقصدان هامان من مقاصد الحج. وهما مظهران من مظاهر رقي الأمم، ومـؤشران مـن مـؤشرات وعيها الثقافي. لا نريد أن نأخذ صورة العبادة ونغفل عن روحها. لا نريد أن تغيب عنا معـاني هـذه العبادة المهمة ومقاصدها العظيمة.. لا بد من تمثل الأهداف البعيدة التـي يرمـي إليهـا المشرـع من وراء أداء شعائر الحج وتعظيم حرماته.

وهذه التوعية وهذا التوجيه الدعوي منصب على عاتق العلماء والدعاة في تبصير المسلمين في أمور دينهم وأخلاق دينهم. وتبيّن الدراسات الميدانية المعنية بإدارة الأزمات، أنّ أكثر التجاوزات والأخطاء الإدارية والثقافية والدينية التي يقع فيها الحجاج أثناء أدائهم لمناسك الحج؛ هو نتيجة لعدم إعدادهم لها مسبقاً في بلدانهم وبالكيفية والحجم المناسبين. ولا يتوقف الأمر على الذين يحجّون لأول مرة، حيث إنّ الاحتشاد البشري الهائل، والتغيّر المستمر في بعض مفرزات الطرق المتصلة بمناسك الحج، يستدعي تثقيفاً متجدداً ومواكباً للمتغيرات الحاصلة والإرشادات الإدارية والتوعية العبادية اللازمة لها.

المطلب الثاني ــ توعية الحجاج في بلادهم:

ينبغي إعداد خطة كاملة وشاملة لتوعية الحجاج في بلدانهم وحتى وصولهم إلى الديار المقدسة، للتيسير على زوّار بيت الله الحرام في كل ما يلتبس عليهم في أمور دينهم لكي يؤدوا نسكهم بطريقة ميسرة وسليمة. وبسبب ضيق موسم الحج وانشغال الحجاج في عباداتهم فإن توعية الحجاج وتبصيرهم في أمور دينهم في بلادهم هي أفضل وذات جدوى أكبر، وكذلك ينبغي التركيز على برامج التوعية والتدريب العملي للحجاج في بلادهم وبوقت كاف قبل وصولهم إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، وفي دراسة لوزارة الحج السعودية بينت أنّ من بين الدول التي تنفذ برامج توعية مختلفة لحجاجها قبل سفرهم إلى المملكة العربية السعودية لأداء الحج هي:

(**ماليزيا، الأردن، إيران**) إذ كانت أعداد الوفيات والمصابين بين حجاج

هذه الدول أثناء رمي الجمرات قليلة جدا، رغم ارتفاع أعداد الحجاج القادمين منها[1].

(1) أنظر: مجلة الحج، العدد 3، مايو 2004.

وانظر: دور الإدارة العامة في مواجهة التحديات التي تواجه أجهزة الدولة أثناء الحج، رجاء الشريف، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، 1416 هـ

المبحث الرابع

وسائل دعوية في الحج

كتب الأستاذ فيصل البعداني مقالا بعنوان: «الدعوة إلى الله في الحج» تحدث فيه عن بعض الوسائل الدعوية المقترحة في الحج وهي كثيرة، وهي تصب كلها في مجال توعية الحجاج وتبصيرهم وإرشادهم، وللاستفادة منها سأوردها كما يلي:

أولاً: وسائل دعوية للحجاج في بلدانهم:

- السعي إلى التنسيق مع مسؤولي الحج في الجهات والمشيخات والمجالس والمؤسسات والمراكز الإسلامية في الدول المختلفة لعقد دورات شرعية عن صفة الحج وآدابه، ومتطلبات الحاج في السفر، والأمور التي يشرع فعلها قبل السفر، وتهيئة الأجواء الملائمة لإنجاحها.
- تكليف الجهات الدعوية والمؤسسات والمراكز الإسلامية بعضَ دعاتهم في البلدان المختلفة بمرافقة الحجاج القادمين من بلدانهم وتعليمهم والقيام بتوعيتهم.
- إيجاد حقيبة إرشادية للحاج بلغته، تتكون من مصحف وبعض الكتيبات والأشرطة والخرائط الخاصة بمكة والمشاعر، والتنسيق مع الجهات التي تتولى سفر الحجيج في البلدان المختلفة لتوزيع هذه الحقائب.

- توفير الكتيبات والأشرطة والخرائط الخاصة بمكة والمدينة والمشاعر بلغات مختلفة وعرضها للبيع في البلدان التي يقدم منها الحجاج قبل زمن الحج بوقت كافٍ.

- الاستفادة من التقنيات الحديثة لشرح معالم الحج وأركانه وآدابه، كأشرطة الفيديو والمجسمات والشرائح الفلمية؛ لأن كثيرًا من الأخطاء التي يقع فيها الحجيج ناتجة عن الجهل بكيفية المشاعر ومواقعها.

ثانيًا ــ وسائل دعوية في وسائل التنقل المختلفة إلى بلاد الحرمين:

- عرض أفلام فيديو وتشغيل أشرطة كاسيت حول صفة الحج وآدابه عند القدوم إلى المشاعر، وعند المغادرة وحول أهمية الاستمرار في العمل الصالح، وأن يكون العبد بعد الحج خيرًا منه قبله، والحث على تجنب البدع والمنكرات التي يقع فيها بعض الحجيج عند عودتهم إلى بلدانهم، وأن يكون للحاج عند عودته دور في إصلاح أهله ومجتمعه وبث الوعي الشرعي ومجابهة الفساد.

- توزيع حقائب إرشادية على الحجاج تتضمن مصحفًا وسواكًا ومجموعة من الكتيبات والأشرطة الإسلامية المعتمدة من جهات علمية موثوقة.

- توزيع حقائب توعية خاصة بالمرأة تتضمن ـ بالإضافة إلى ما تتضمنه الحقيبة الإرشادية ـ كتيبات وأشرطة عن صفة الحجاب الشرعي وكيفية الالتزام به، ودور المرأة المسلمة، كما يمكن أن يضاف إلى هذه الحقيبة حجاب شرعي.

- في الرحلات التي تستمر وقتًا طويلاً ويكون العدد مناسبًا يمكن التنسيق مع المطوفين وأصحاب الحملات وشركات النقل لتعيين داعية أو أكثر

من الذين يجيدون لغة الركاب لشرح صفة الحج وآدابه والأخطاء التي يقع فيها الحجيج لتجنبها، وطرح بعض الموضوعات العقدية والفقهية، والإجابة عن استفسارات الحجاج ونحو ذلك مما يهمهم.

- الاقتراح على شركات النقل الجوي والبحري وضع مكتبة شرعية صغيرة مقروءة ومسموعة وعرضها على الركاب للشراء أو الاستعارة أثناء الرحلة.

- التأكيد على شركات النقل الجوية والبحرية بأهمية تنبيه الحجيج عند محاذاة الميقات؛ لأن كثيرًا منها لا يقوم بذلك، كذلك عدم عرض أو تقديم ما لا يحل شرعاً.

ثالثًا ــ وسائل دعوية في منافذ بلاد الحرمين الحدودية:

- توزيع المصاحف والكتيبات والأشرطة الإسلامية والخرائط الإرشادية عند قدوم الحجاج ومغادرتهم.

- وضع لوحات توجيهية، وأخرى تحمل عبارات الترحيب والوداع باسم الجهات والمؤسسات الدعوية.

- توزيع دليل بعدة لغات يتضمن أرقام هواتف الجهات الدعوية والخدمية الهامة وأرقام هواتف طلبة العلم والدعاة، ولابد من تضمنه أرقام هواتف بعض الدعاة الذين يتحدثون بلغات مختلفة والإشارة إلى اللغة التي يتحدث بها كل منهم.

رابعًا ــ وسائل دعوية في مدن الحجاج والمواقيت:

- تكثيف الدعاة في هذه المواقع وبلغات مختلفة؛ بحيث تكون مهمتهم تعليم الحجاج ما يحتاجون إليه من أمر دينهم، وتوجيههم إلى ما ينفعهم،

ومساعدتهم في تصحيح الأخطاء التي تُرَى عليهم، والإجابة عن استفساراتهم، ونحو ذلك.

- تكليف دعاة ميدانيين للرجال وداعيات ميدانيات للنساء يتخاطبون بلغات مختلفة يتجولون في مدن الحجاج بالسيارات وعلى الأقدام بحيث تكون مهمتهم التعليم المباشر للحجاج والدعوة لهم بحكمة ولين.

- الإكثار من مكاتب الإرشاد الشرعي الصغيرة في مدن الحجاج والمواقيت بقدر المستطاع؛ مع أهمية تخصيص بعضٍ منها للرجال وأخرى للنساء.

- توزيع المصاحف وما يستطاع توزيعه من الكتيبات والنشرات والأشرطة

- الإرشادية بحيث يُضمن وصولها إلى كل حاج بلغته.

- وضع لوحات إرشادية تتضمن صفة الحج وآدابه ونماذج من الأخطاء العقدية والسلوكية التي يقع فيها الحجاج، ويمكن أن يكون بعضها لوحات إلكترونية حتى يتمكن الدعاة القائمون عليها من تحديد التوجيهات الملائمة بلغات مختلفة.

- إقامة الدروس العلمية والدورات الشرعية في مدن الحجاج بعد انتهاء موسم الحج في وقت انتظار الحجيج زمن المغادرة إلى بلدانهم.

- التنسيق مع المجلات الإسلامية لأخذ مسترجعاتها لتوزيعه على الحجاج في مدن الحج بعد انتهاء موسم الحج.

- التنسيق مع مكاتب دعوة الجاليات والمكتبات والتسجيلات الإسلامية لإقامة معارض للكتاب والشريط الإسلامي بلغات مختلفة في مدن الحجاج.

خامسًا ـ وسائل دعوية في النقل الداخلي بين المدن وفي المشاعر:

- إلزام الجهات المعنية جميع أصحاب السيارات بإصلاح مكبرات الصوت وأجهزة العرض والتسجيل المرئي والمسموع.
- توجيه رسائل إلى السائقين تذكرهم بالله، وتحثهم على القيام بالدور المنوط بهم في توجيه الحجاج وإرشادهم، والحرص على أداء الحجاج لنسكهم حسب الوجهة الشرعية.
- إعداد قائمة بالمخالفات الشرعية التي تقع في وسائل النقل، وحث السائقين وشركات النقل على تحاشي وقوعها.
- حث شركات النقل والسائقين على توفير الأشرطة النافعة مرئية ومسموعة، ووضع الكتيبات والمطويات داخل سياراتهم لتزويد الحجاج بها.
- وضع مكتبة شرعية صغيرة مقروءة ومسموعة في الطائرات والحافلات يُمكِّن الركاب من الشراء منها أو الاستعارة أثناء الرحلة.
- وضع لوحات إرشادية تُجعَل خلف الكراسي بشكل أنيق ومناسب في سيارات الأجرة والحافلات تتضمن بعض التوجيهات والإرشادات الشرعية.
- التنسيق مع شركات النقل وأصحاب الحافلات للاستفادة من حافلاتهم في وضع بعض اللوحات والملصقات الإرشادية عليها بلغات مختلفة من الخارج.
- قيام المطوفين وأصحاب الحملات بتعيين داعية في الحافلات الخاصة بهم بلغة الركاب للتوجيه والإرشاد وإقامة البرامج الدعوية والإجابة على الاستفسارات.

سادسًا ـ وسائل دعوية في الحرمين الشريفين:

- تكثيف الدروس والمحاضرات المقامة في الحرمين بلغات مختلفة.
- تخصيص أمكنة معروفة في الحرمين لترجمة خطب الجمعة بعد أداء الصلاة ودروس كبار العلماء إلى لغات المسلمين الحية عبر مكبرات الصوت الداخلية.
- إلقاء كلمات لكبار علماء الأمة ودعاتها بعد الصلوات المفروضة.
- الاستفادة من ساحات الحرمين وأعمدتهما وجدرانهما وأسقفهما بوضع لوحات إرشادية إلكترونية وعادية بلغات مختلفة.
- تعيين جملة من الدعاة الميدانيين والداعيات الميدانيات من ذوي اللغات المختلفة في ساحات الحرمين الداخلية والخارجية لتعليم الحجاج وإرشادهم.
- تفعيل دور رجال الحسبة للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات الشرعية التي يقع فيها بعض الحجيج.
- تخصيص مكاتب للدعوة والفتوى في جنبات الحرمين الداخلية وساحاتها الخارجية.
- إقامة مكتبات مصغرة في جنبات الحرمين بلغات مختلفة وتخصيص عدد من الخزانات (الدواليب) والأرفف لوضع جملة من ترجمة معاني القرآن الكريم والكتيبات والمطويات الإسلامية بلغات مختلفة.

سابعًا ـ وسائل دعوية في مساجد منطقتي مكة والمدينة:

- قيام الأئمة والمؤذنين بدورهم في توجيه الحجاج الذين يصلون في

مساجدهم وتعليمهم، ومحاولة التأثير عليهم وإزالة ما قد يكون لديهم من أخطاء شرعية.

- تفعيل دور جماعة المسجد في الاختلاط بالحجاج وإكرامهم وزيارتهم في مساكنهم، والقيام بتوعيتهم وإرشادهم.
- تفعيل دور نساء جماعة المسجد في الاختلاط بالنسوة القادمات من مناطق مختلفة للحج، وحثهن على تعلم الدين والدعوة إليه والقيام بدورهم في تربية النشء تربية صالحة، والتمسك بالحجاب، وعدم الانسياق وراء الدعوات المشبوهة التي تهدف إلى إفساد المرأة المسلمة وإبعادها عن دينها.
- الاهتمام بإقامة المحاضرات والدروس والكلمات التوجيهية في المساجد بلغات مرتاديها.
- التنسيق مع مكاتب دعوة الجاليات لترجمة خطب الجمعة والمحاضرات والدروس العلمية كل مسجد بلغة مرتاديه من الحجيج.
- إقامة الحلقات القرآنية والدورات العلمية المناسبة باللغات المختلفة.
- اختيار بعض الكتب العقدية والفقهية الملائمة للحجيج للقراءة منها عليهم بعد الصلوات.
- عرض بعض الدروس والمحاضرات المسجلة باللغات المختلفة عبر مكبر صوت المسجد.
- الاعتناء بتوفير ترجمات معاني القرآن الكريم والكتيبات والأشرطة ووضع ملصقات ولوحات إرشادية ومكتبة مصغرة للاطلاع بلغة مرتادي المسجد من الحجيج.

ثامنًا ـ وسائل دعوية في مساكن الحجاج في مكة والمدينة:

- وضع مكتب للدعوة في كل عدد مناسب من المجمعات السكنية يعمل فيه مجموعة من الدعاة الذين يجيدون لغة القاطنين فيها؛ بحيث تكون مهمتهم توعية الحجيج وإقامة البرامج الدعوية والعلمية لهم، والإجابة عن استفساراتهم.

- وضع مقسم (سنترال) ضخم للدعوة والإرشاد يضم مجموعة من الدعاة بلغات مختلفة بحيث يكون لكل لغة جملة من خطوط الهاتف برقم موحد من ثلاث خانات، ويتم إلزام المجمعات السكنية بتشغيل المقاسم (السنترالات) الخاصة بها، ووضع جهاز في كل غرفة أو جناح ووضع ملصق بجواره يتضمن جملة من الإرشادات الشرعية وأرقام هواتف مقسم (سنترال) الدعوة والإرشاد بكل لغة، وإلى أن يقام هذا المقسم (السنترال (يمكن التنسيق مع شركة الاتصالات السعودية للاستفادة من مقاسم (سنترالات (الاستعلامات لديها في منطقتي مكة والمدينة في موسم الحج في هذا الأمر.

- قيام المطوفين وأصحاب الحملات بوضع مكتبة مقروءة وسمعية بلغة القاطنين تتضمن جملة من المصاحف والكتيبات والأشرطة في كل مجمع سكني.

- وضع لوحات إرشادية في الأجنحة والأدوار والمجمعات السكنية تتضمن بعض الملصقات والنشرات التوجيهية بلغة الحجيج القاطنين فيها.

- التنسيق مع طلبة العلم والدعاة الذين يتحدثون بلغات مختلفة للقيام بزيارة الحجاج في مساكنهم للنصح والتوجيه وإلقاء دروس ومحاضرات وكلمات في المصليات، إن وجدت.

- مشاركة بعض الدعاة لإخوانهم الحجيج في السكنى في أماكن إقامتهم واستغلال ذلك في تعليمهم وتوجيههم الوجهة الراشدة.

- وضع ركن للدعوة والفتوى في مداخل المجمعات السكنية يتضمن رفًّا توضع عليه الكتيبات والمطويات والأشرطة الخاصة بالتوزيع، ولوحة للفتوى وصندوقًا لجمع الأسئلة والاقتراحات الدعوية على أن تكون الكتابة بلغة ساكني المجمع.

تاسعًا ــ وسائل دعوية في المخيمات في المشاعر:

- الاقتراح على المطوفين وأصحاب الحملات بوضع مكتبتين تتضمنان عددًا مناسبًا من المصاحف وترجمة معاني القرآن الكريم، والكتيبات والأشرطة بلغة رواد المخيم في المخيمات التابعة لهم؛ بحيث تكون واحدة في جناح الرجال وأخرى في جناح النساء.

- قيام المطوفين وأصحاب الحملات بتوفير عدد من الدعاة المعتمدين من قِبَلِ الجهات المعتبرة بحيث يكون على الأقل نصيب كل مئتي حاج داعية يخالطهم معلمًا إياهم ومبينًا لهم هدي النبي ﷺ وسنته في أداء المناسك ومحذرًا إياهم من البدع والمخالفات التي يقع فيها كثير من الحجيج.

- التنسيق مع المطوفين وأصحاب الحملات لإيجاد إدارة للإشراف الدعوي والثقافي في مخيماتهم تتولى وضع سلسلة من البرامج الدعوية والعلمية التي تتعلق بالحج وغيره مما يهم المسلم في دينه ويقربه إلى ربه بلغة الحجيج.

- قيام مكاتب دعوة الجاليات ببلاد الحرمين بتنظيم جولات لدعاتها الذين

يتحدثون بأكثر من لغة على مخيمات الحجيج الأعاجم الذين يجيدون التخاطب معهم لتوعيتهم وإرشادهم والإجابة على استفساراتهم.

- تنظيم زيارة للعلماء وطلبة العلم إلى مخيمات المطوفين وأصحاب الحملات لوعظهم وإرشادهم وإلقاء الدروس والمحاضرات عليهم.
- العمل على إيجاد قنوات تلفزيونية داخلية في منطقة المشاعر تبث بلغات مختلفة وتكون تابعة للمؤسسات الدعوية في بلاد الحرمين ليقوم من خلالها العلماء والدعاة بتوجيه الحجيج وإرشادهم إلى ما ينفعهم في أمور دينهم.
- ويساعد على نجاح هذه الفكرة بقاء الخيام في الفترة الأخيرة في منطقة منى وجزء من منطقة مزدلفة على مدار العام.
- وضع لوحات إرشادية في المخيمات تتضمن بعض التوجيهات الشرعية بلغات قاطنيها.
- وضع أرفف توضع عليها المصاحف والكتيبات والأشرطة الخاصة بالتوزيع.
- تفعيل دور طلبة العلم الموجودين في المخيمات، ومطالبة من يستطيع منهم بإلقاء دروس ومحاضرات وكلمات بعد الصلوات في مخيماتهم والمخيمات المجاورة.
- تفعيل دور طالبات العلم والداعيات الموجودات في المخيمات باعتبارهن الأقدر على التأثير في أوساط النساء ودعوتهن.
- الاهتمام بالمرأة المسلمة وتوعيتها وتنبيهها إلى أهمية اهتمامها بتعلم دينها واعتزازها بهويتها ومحافظتها على الحجاب وترك الاختلاط بالرجال والابتعاد عن التشبه بالكافرات ومن سار في فلكهن.

- إيجاد مجسمات وخرائط للمشاعر للاستفادة منها في بيان الصورة الصحيحة والطريقة السهلة لأداء المناسك.
- ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مخيمات الحجيج بحكمة ولين.
- توفير الأجواء الملائمة والأدوات اللازمة لإنجاح عملية الدعوة والتوجيه داخل المخيمات.
- وضع صناديق للاقتراحات الدعوية في المخيمات في أقسام الرجال والنساء تكون تابعة لهيئة التوعية في الحج والجهات الدعوية في بلاد الحرمين لكي تستفيد من اقتراحات الحجاج في خططها الدعوية للأعوام القادمة.
- زيارة العلماء والدعاة القادمين من مناطق مختلفة للاستفادة منهم والاستماع إلى أخبارهم ومؤازرة أنشطتهم الدعوية معنويًا وماديًا بما يستطاع.
- تفريغ خطوط هاتفية في كل مخيم في قسمي الرجال والنساء تكون خاصة بالاستفسار وطلب الفتوى من أهل العلم.
- وضع لوحة للفتوى، وصندوق لوضع الأسئلة في قسمي الرجال والنساء على أن تكون الإجابة بلغة قاطني المخيم.

عاشرًا ــ وسائل دعوية في الطرقات والأماكن العامة في مكة والمدينة ومنطقة المشاعر:

- وضع مواقع صغيرة في الطرقات والأماكن العامة وبجوار المخيمات للوعظ والإرشاد عبر مكبرات الصوت والإجابة على الاستفسارات وتوزيع الكتيبات والأشرطة في الطرقات وبجوار المخيمات.

- وضع لوحات إرشادية إلكترونية وعادية على الجسور وفي الطرق والأماكن العامة بلغات مختلفة.
- التنسيق مع الجهات ذات الاختصاص في منطقتي مكة والمدينة للاستفادة من اللوحات الإعلانية الموجودة بها في توعية الحجيج وإرشادهم بلغات مختلفة.
- تكثيف جهود طلبة العلم والدعاة الميدانيين الذين يجولون الطرقات والأماكن العامة بالسيارات وعلى الأقدام للتوعية والإرشاد عبر مكبرات الصوت وبلغات مختلفة.
- الاستفادة من أسوار المخيمات في المشاعر وواجهات وأسطح المجمعات السكنية بوضع لوحات إرشادية يكتب عليها نصوص شرعية وعبارات توجيهية بلغات مختلفة.
- وضع ملصقات للتوعية الشرعية على أجهزة الهواتف العمومية وأبواب المستشفيات والجهات الخدمية المختلفة.
- وضع أجهزة عرض تلفزيوني وتسجيل في أماكن تجمعات الناس العامة كالمطاعم والمستشفيات وجوار كبائن الهواتف العمومية ونحو ذلك لعرض برامج دعوية وعلمية.
- إعداد خرائط بمواقع هيئة التوعية في الحج والجهات الإرشادية لتسهيل عملية الوصول إليها والاستفادة منها.
- تفعيل دور جهات الحسبة للقيام بدورها في وسط هذه الأعداد الضخمة من البشر لزيادة الخير وردع ضعاف النفوس من استغلال هذا التجمع الضخم بفعل ما لا يحل.

- حث طلبة العلم والدعاة والعامة على إحياء السنن التي يُتساهل فيها كالتلبية والتكبير ونحو ذلك[1].

(1) أنظر: مجلة البيان ـ العدد 148 ذو الحجة 1418هـ

المبحث الخامس

صور ونماذج توعوية

المطلب الأول ــ الدعوة إلى اللـه تعالى وأثرها في توعية الحجيج:

الحج مناسبة كبرى وفرصة للدعاة إلى اللـه لينشروا فيه دعوة الحق، والأمـم العقائديـة تفرح أن يكون لها مثل هذا الموسم العظيم، الذي تحتشد فيه مثل هذه الملايـين بـدافع التعبـد لله تعالى؛ فإنهم ما جاءوا إلى تجارة، ولا سياحة.. وإنما تكبدوا المشاق، وانفقـوا الأمـوال، وغيرهـا، حتى يصلوا إلى هذه الأماكن والبقاع، طلبًا لما عند اللـه ﷻ. فمثل هؤلاء هم ـ في الغالـب ـ مـن صفوة المسلمين وخيارهم، ويُعتَبَرون نموذجًا لمن تركوا وراءهم من المـؤمنين، فقـد جـاءوا بـدافع التعبد لله تعالى. أليس من المناسب أن نحشد كل ما نستطيع لإيصال الخـير إلـيهم؟ وأن نوصـل إليهم من البر، والإحسان، والخير، والمعروف الديني والدنيوي؛ ما عجزنـا عـلى إيصـاله إلـيهم في بلادهم؟

قدم سليمان بن عبد الملك مكة حاجاً، فلما أخذ يطوف طواف القـدوم أبصر ـ سـالم بـن عبد اللـه يجلس قبالة الكعبة في خضوع، ويحرك لسانه بالقرآن في تبتل وخشوع ودموعه عـلى خديه، فلما فرغ الخليفة من طوافه، وصلى ركعتين سنة الطواف، توجه إلى حيث يجلـس سـالم فأفسح الناس له الطريق حتى أخذ مكانه

بجانبه، فلم ينتبه له سالم ولم يلتفت إليه، لأنه كان مستغرقاً بما هو فيه، مشغولاً بذكر الله عن كل شيء وطفق الخليفة يرقب سالماً بطرف خفي، ويلتمس فرصة يتوقف فيها عن التلاوة ويكف عن النحيب حتى يكلمه، فلما واتته الفرصة مال عليه وقال: السلام عليك يا أبا عمر, فقال: وعليك السلام ورحمة الله تعالى وبركاته, فقال الخليفة بصوت خفيض: سلني حاجة أقضها لك يا أبا عمر؟ فلم يجبه سالم بشيء فظن الخليفة أنه لم يسمعه فمال عليه أكثر من ذي قبل وقال: رغبت بأن تسألني حاجة لأقضيها لك, فقال سالم: و الله إني لأستحي أن أكون في بيت الله ﷻ، ثم أسال أحداً غيره, فخجل الخليفة وسكت، لكنه ظل جالساً في مكانه، فلما قضيت الصلاة، نهض سالم يريد المضي إلى رحله فلحقت به جموع الناس، هذا يسأله عن حديث من أحاديث رسول الله ﷺ وذاك يستفتيه في أمر من أمور الدين، وثالث يستنصحه في شأن من شئون الدنيا ورابع يطلب منه الدعاء.. وكان من جملة من لحق به خليفة المسلمين سليمان بن عبد الملك، فلما رآه الناس وسعّوا له حتى حاذى منكبه منكب سالم، فمال عليه وهمس في أذنه قائلاً: ها نحن أولاء قد غدونا خارج المسجد فسلني حاجة أقضها لك؟ فقال سالم: من حوائج الدنيا أم حوائج الآخرة؟, فارتبك الخليفة وقال: بل من حوائج الدنيا, فقال له سالم: إنني لم أطلب حوائج الدنيا ممن يملكها، فكيف أطلبها ممن لا يملكها[1]؟

هذا مقصد من مقاصد الحج نريد للمسلمين أن يعوه ويفقهوه.. وهذا الفهم يتعلمه المسلمون في الدعوة إلى الله وفي توعيتهم في مقاصد الحج. لأنه ينبغي

(1) أنظر البداية والنهاية لابن كثير(ج9، ص244)، سير أعلام النبلاء للذهبي(4، 466).

على الحاج أن يكون خارجاً من ملاذ الدنيا، تاركاً ماله وأهله ووطنه، مقبلاً على ربه، استجابة له.

ولا ينبغي أن تكون العبادات جسداً بلا روح.. وليست العبرة بكثرة الحج.. ولكن بأثر الحج في سلوكياتنا.

المطلب الثاني ــ صور دعوية في توعية الحجاج في موسم الحج:

يقول د. محمد المختار رئيس الجمعية الشرعية بمصر: إنه مع بداية شهر ذي القعدة تبدأ الجمعية حملة تتعلق بالحج؛ فتوزع على الدعاة والوعاظ دروس وبرامج موسم الحج التي تتناول أسرار الحج ومقاصده، وكيفية أداء المناسك، والفوائد التي يجب أن يحرص الحاج وغير الحاج على اغتنامها في هذا الموسم. ومن أول ذي الحجة نركز على المعاني التي يجب أن نعيشها جميعًا في موسم الحج، مثل وحدة الأمة وقوتها، وتحقيق المساواة وتحقيق العبودية، والامتثال لأوامر الله عز وجل، وتذكير الناس بيوم الحشر، وفضل العمل الصالح في العشر ـ الأيام الأول من ذي الحجة، من صيام وذكر ومسارعة بالطاعات، والتشبه بالحجيج. وقبل سفر وفد الحجاج التابع للجمعية نلتقي بهم ونعلمهم عمليا كيفية أداء المناسك والسلوكيات التي يجب التحلي بها أو اجتنابها حتى يصير حجهم مبرورًا، ويصاحبهم أثناء رحلة الحج أحد وعاظ الجمعية. وبعد انتهاء الموسم تتناول الدروس والخطب موضوع «وماذا بعد الحج؟».

حفلات منزلية:

وترى «نادية شاهين» مديرة معهد الدعوة بالقاهرة أن للدعوة في موسم الحج صورا مختلفة؛ ففي درس المسجد نتناول كل ما يهم الحاج، وأهمها ما يجب

عليه قبل سفره، من رد المظالم، وقضاء دينه، والرجوع إلى الله، والتوبة النصوح، كما ندرس مناسك الحج عمليًّا، ونوزع الكتيبات التي تتناول رحلة الحج منذ إعداد جواز السفر حتى انتهاء الرحلة. ونؤكد على محظورات الحج، وحسن الخلق عن طريق الدروس والتجارب العملية للحجاج، ونحثهم على التصدق بالجسد؛ حيث قد يتعرض الحاج للزحام والمضايقات التي يجب أن يصبر عليها. ونستضيف أحد العلماء لوعظ الحجاج وإرشادهم في المسجد والأماكن العامة كالجمعيات الخيرية. ومن الصور الناجحة أيضًا الحفلات المنزلية؛ حيث نعرض شريط فيديو لمناسك الحج، أو أسطوانات ليزر، ونستخدم وسائل تعليمية كالخرائط لشرح أماكن المناسك وتتابعها، ونستضيف بعض من أدَّيْن الحج ليتحدثن عن ذكرياتهن، والمشكلات التي واجهتهن، وكيف تغلبن عليها، وينصحن المسافرات للحج ليكون حجهن مبرورًا.

إفطارات جماعية:

ومن الصور الدعوية الطيبة في العشر الأوائل من ذي الحجة: الإفطارات الجماعية في المساجد والعمارات السكنية؛ إذ تكون فرصة للوعظ والإرشاد وفق برنامج سابق الإعداد. فيمكن أن تقوم الداعية بإعداد إفطار جماعي للأقارب من عائلتها وعائلة زوجها، وتتعاون النساء للانتهاء من إعداد الطعام عصرًا؛ حيث تنظم برنامجًا عبارة عن درس عن فضل العشر الأوائل من ذي الحجة، وما يستطيع أن يناله غير الحاج من ثواب في هذه الأيام المباركة، ومسابقة وإجابة على أسئلة الحاضرات واستفساراتهن، وترديد أذكار المساء والدعاء، وتوزيع مطويات تتعلق بهذه الأيام، ونفس البرنامج ينظمه زوجها مع الرجال. كما يمكن تنفيذ الفكرة

بمسجد الحي؛ حيث تشترك الداعية مع جاراتها في إقامة إفطار لأهالي الحي لتحقيق التواصل بينهم وربطهم بالمسجد، ودعوة الفقراء لتوطيد صلاتهم بالأغنياء؛ حثًّا لهم على مساعدتهم، ويرسل طعام الإفطار إلى العاملين بالمحلات المحيطة بالمسجد. وبعض الداعيات يحرصن على استقبال شهر ذي الحجة بتهنئة الجيران، وتوزيع مطويات وكتيبات خاصة بالعشر الأوائل من ذي الحجة، وتعليق اللافتات داخل المنازل، ومجلة حائط على جدران العمارة لتذكير السكان بفضل هذه الأيام، وحثهم على المسارعة بالطاعات فيها.

فوائد تربوية:

وترى «أم عبد الرحمن» ـ إحدى الداعيات المصريات ـ أن موسم الحج فرصة للارتقاء بالأولاد روحانيًّا؛ فلله في هذه الأيام نفحات؛ حيث تكون النفوس مهيأة للتقرب إلى الله وأداء طاعات لا يأتونها في غيرها من الأيام؛ فلنغتنم هذه الفرصة لتعوديهم المواظبة على الطاعات، فأتفق مع أولادي على أن يُعِدَّ كل منهم لافتة يعلقها في حجرته، تحمل طاعة يواظب عليها أو أدبًا من الآداب التي سيتحلى بها في هذه الأيام، ويعاهد الله تعالى أن يصير خلقًا له طوال حياته، كما أحثهم على صيام التسع الأوائل من ذي الحجة، أو على الأقل صيام يوم عرفة، ونقوم بتزيين المنزل بنية استقبال أيام نفحات وبركة يمن الله بها على المسلمين. وفي اليوم التاسع ندعو أولاد الجيران والأقارب، ونُعِدَّ أكياسًا نزينها بشرائط الستان، ونضع بها الحلوى ونوزعها على الجيران في بيتنا والعمارات المجاورة. وتعقد «إيناس عبد العزيز» ـ مسئولة دار لتحفيظ القرآن بالقاهرة ـ حلقات علم للحاجّات قبل سفرهن؛ لأنها ترى أن الدعوة للحجاج يجب أن تبدأ قبل الذهاب إلى الأراضي المقدسة، وتركز

فيها على مقاصد الحج وفوائده والآداب التي يجب أن يلتزمها الحاج ليكون حجه مبرورًا؛ لأنه مما يؤذي النفس ما نراه لدى البعض من فساد عقدي وسلوكي؛ فالكثير من الحجاج لا يفهمون آداب الاستئذان وحدود التعاملات مع الأجنبية، وحقوق الآخرين من حولهم؛ فهناك للأسف انفصال تام بين أداء الحج كعبادة، وبين السلوكيات والأخلاق؛ فبعض الحجاج يؤدون المناسك دون أن يدروا الحكمة من الحج، فتراهم يغضبون لأتفه الأسباب ويؤثرون أنفسهم على غيرهم، ويؤدون المناسك بأسلوب ليس فيه مراعاة للغير، فيتسابقون ويتزاحمون على الرجم وزمزم والحجر الأسود، والصلاة في الروضة، ويتشاجرون في السكن من أجل أمور تافهة، ويختلفون في الأحكام الشرعية، ويسفه بعضهم البعض، وهم ليسوا أهلاً للفتوى، وقد ينشغلون بالشراء أو القصص والحواديت بدلا من ذكر الله الذي جعلت هذه الأيام خصيصًا له، وخصوصًا أيام مِنَى، ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ [البقرة: 203].

وتناشد «إيناس» الدعاة وأهل العلم في كل المساجد أن يهتموا بتوجيه هذه السلوكيات قبل سفر الحجاج؛ فالمناسك يسهل تعلمها؛ حيث تتناولها وسائل الإعلام ليلا ونهارا، فليبثّوا في نفوسهم الخشوع والخوف من ضياع حجتهم، وأن أجر الحج ليس على المناسك والعبادات فقط، وإنما الدين المعاملة.

تصحيح المفاهيم:

الدكتورة عبلة الكحلاوي ـ أستاذة الفقه بجامعة الأزهر ـ أخذت على عاتقها في أثناء الحج تصحيح المفاهيم الخاطئة، وإشعار زميلاتها من المسلمات بأهمية الفريضة؛ لأن هناك من تؤديها كرحلة سفر، ولا تفقه المقصود الأسمى،

وكانت تشرح للنساء أن الحج هو الركن الوحيد الذي يوضح مدى التزام المسلم وتمكن الإيمان من قلبه، وفهمه للإسلام وحقيقته؛ فهو الفريضة الوحيدة التي يؤديها بانتقال وأسفار ومشقة، وعدا هذا الركن فكل الأركان تؤدى في أي مكان، وهذا يدل دلالة واضحة على أنه مؤمن حقًّا؛ فكل نسك نؤديه اعترافًا وإذعانًا واستسلامًا ويقينًا بالإيمان الذي وقر في قلوبنا.

فلا بد من تعليم الناس وتصحيح المفاهيم وإبراز هذه الحقيقة، إلى جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لمواجهة الممارسات الخاطئة للحجاج.

موسم عطاء علمي وروحاني:

وترى د. عصمت أبو سنة ـ الأستاذة بجامعة أم القرى بمكة سابقًا ـ أن حلقات العلم من أطيب الصور الدعوية في رحلة الحج؛ فهو موسم عطاء علمي وروحاني؛ لأنه موسم هداية وإنابة إلى الله؛ فالمسلم يكون متلهفًا على ما يقربه إلى الله ﷻ، والحجاج يحتاجون إلى دروس العلم خاصة النساء؛ فنجدهم يبحثون عن العلماء في كل مكان، ويلتفون حولهم كلما سنحت الفرصة، خاصة في الحرم المكي؛ حيث يوجد العلماء في أركان الحرم، وفي السكن بعد صلاة الظهر، ويوم التروية بعد صلاة العشاء، ويوم عرفة بعد صلاة الظهر؛ حيث تتضمن الوعظ والتذكرة والإجابة على أسئلة الحجاج والدعاء، وهكذا حتى انتهاء الموسم.

الداعية قدوة للحجاج:

وتضيف سمية رمضان ـ داعية مصرية ـ أن أكثر ما يحتاجه الحجاج الصبر، ودور الداعية أن يثبتهم حتى لا يتفوهوا أو يفعلوا ما يضيع أجرهم؛ فيستوعبهم بسعة صدره ليشعروا بالأمان النفسي؛ ليقصوا عليه مشكلاتهم، ويشغل وقتهم

بالطاعات، ويذكرهم في كل موقف بالدعاء والسنن الخاصة به، وأن يكون قدوة لهم؛ فيجدوا الابتسامة على وجهه مهما لاقى من صعاب، ويقضي حوائجهم وييسر أمورهم على حساب نفسه ويتودد إليهم، كل ذلك له انعكاس طيب على نفوسهم، ويحرص أن تكون حلقات العلم مراجعة لحياتهم وسلوكياتهم، وتغيير مفاهيمهم حتى يلتزموا بمنهج الله بعد العودة من الحج.

كما ينبغي أن يحرص على التعارف؛ فالله تعالى خصص مواسم لتجمع المسلمين، والحج مؤتمر المسلمين للتعارف، وإشعارهم أنهم صحبة في الخير، ويؤدي ذلك إلى ترابطنا وتواصلنا في الله سبحانه[1].

المطلب الثالث ـ التجربة الأردنية في توعية الحجاج دعويا:

تسعى وزارة الأوقاف الأردنية في كل عام لتقديم موسم نموذجي أساسه راحة الحجاج وتمكينهم من أداء مناسك الحج بكل يسر وسهولة كما تبذل قصارى جهدها في تنظيم شؤون الحج ووضع التعليمات اللازمة لهذه الغاية اعتماداً على مبدأ التخطيط المسبق والإعداد والترتيب المبكر لشؤون الحج لكل موسم. وإيماناً من الوزارة بأهمية البعد التوعوي الشامل وفي مجال توعية الحجاج قبل السفر إلى الديار المقدسة فقد أولت جلّ عنايتها لهذا الأمر البالغ الأهمية ضمن منظومة متكاملة ابتداء بضرورة معرفة الحاج لأحكام ومناسك الحج وانتهاء بالمحاور الصحية والبيئية والمسلكية والأمن والسلامة العامة. وأعدت الوزارة البرامج الإرشادية المتنوعة لعقد دورات توعوية إنعاشية لجميع مديري الأوقاف وعدد من قيادات

(1) أنظر موقع الإسلام الدعوي والإرشادي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية www. al-islam. Com.

الوعظ والإرشاد الذين تم اختيارهم في المحافظات والألوية لإكسابهم المهارات المتنوعة والبرامج المقررة ليقوموا بدورهم بعقد الندوات والورشات التوعوية لجميع حجاج المملكة الأردنية الهاشمية كل في منطقته قبل مغادرتهم لأداء مناسك الحج. كما خصصت الوزارة لكل حافلة مرشداً دينياً، وبهذا يستطيع الحاج أن يبقى على علم بأمور مناسك الحج طيلة الطريق فضلاً عن التوعية الدينية العامة وبيان الأحكام الشرعية والإرشادات الصحية والمسلكية التي تستمر في مساكن الحجاج ومخيماتهم وطيلة الرحلة، وتقوم الوزارة سنوياً بعقد دورات للمرشدين والإداريين قبل السفر للحج من اجل توضيح المهام والواجبات الملقاة على عاتقهم ولضمان حسن أدائهم لهذه الواجبات. واهتماما من الوزارة بالتوعية الدينية للحاجات الكريمات، وضرورة تعريفهن بأحكام مناسك الحج فإنها تقوم بإيفاد عدد من الواعظات (الموظفات في هذه الوزارة) من حملة المؤهلات في الشريعة الإسلامية لتتولى هؤلاء الواعظات عملية الإرشاد والتوعية للنساء. كما يتم تزويد كل حاج بنسخة من كتاب (فقه الحج والعمرة) الذي أصدرته الوزارة والذي يتضمن كيفية أداء الحاج للمناسك خطوة بخطوة بالإضافة إلى كثير من المسائل الفقهية والإجابة عنها إجابة مختصرة ووافية وبعيدة عن الخلافات الفقهية. وتنفذ الوزارة خطتها السنوية في توعية الحجاج على مرحلتين: **المرحلة الأولى** قبل موعد سفر الحجاج للديار المقدسة **والمرحلة الثانية** أثناء سفر الحجاج وتأديتهم للمناسك. وتعتمد الوزارة في تنفيذ هذه الخطة عقد الندوات والمحاضرات في المساجد. وبث المحاضرات والندوات بوسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة. وطباعة النشرات والكتيبات التعليمية والإرشادية وتوزيعها على الحجاج قبل السفر وأثناء السفر. ويتم الإيعاز للمرشدين والمفتين بإعطاء الفتاوى الميسرة للحجاج التي لا

تتنافى مع الأحكام الشرعية. وقد نظمت الوزارة ورشة عمل لتوعية أفراد البعثات الإدارية والإرشادية المرافقة للحجاج، بمشاركة عدد من ممثلي الدول الاسلامية، حيث تم اعتماد الأردن مركزا إقليميا لتوعية الحجاج. ونظرا للنجاح الذي لقيه المعرض التعليمي لمناسك الحج الذي أقامته الوزارة خلال السنوات الماضية فقد قامت بتعميم هذه الفكرة على أقاليم المملكة حيث تمّ إقامة معرض تعليمي في الشمال وآخر في الجنوب إضافة إلى المعرض الرئيس في عمان كما تمّ ولأول مرة إقامة معرض للمجسمات واللوحات في مطار الملكة علياء الدولي وكذلك عرض لفيلم خاص عن الحج من خلال شاشات العرض في صالات المطار وقد اشتملت هذه المعارض على مجسم متكامل للحرم المكي الشريف والكعبة المشرفة وموقع ماء زمزم والسعي بين الصفا والمروة ومجسم لجسر الجمرات ومخيمات منى وعرفات بحيث يتمكن الحاج من التدرب على أداء المناسك والتعرف على المشاعر ولتمكين الحجاج من الاطلاع عليها ومشاهدتها قبل رحلة الانطلاق ولتسهيل عملية تنفيذها على ارض الواقع. كما ستقيم في المستقبل القريب بعونه تعالى معارض مشابهة بهدف تدريب وتعليم الحجاج قبل السفر إلى الديار المقدسة على كيفية الطواف وكذلك موقع رمي الجمرات لتدريب الحجاج على الطريقة الآمنة والسليمة لرمي الجمرات وكيفية تجنب مواقع وأوقات الزحام. كما يتم اختبار الحجاج بعد تدريبهم لمعرفة مدى الاستفادة من هذه المعارض[1].

(1) انظر موقع وزارة الأوقاف الأردنيةwww. awqaf. gov. jo .

الخاتمة

- الحج موسم دعوي وفرصة ذهبية للدعاة والعلماء والمصلحين.

- إن موسم الحج يفتح آفاقاً رحبة للوعظ والإرشاد والدعوة.

- الدعوة إلى الـلـه ـ تعالى ـ في موسم الحج سنّة نبوية منذ فجر الإسلام.

- التوعية الدينية في الحج وتنميتها مسؤولية مؤسساتنا الشرعية والدعوية.

- ينبغي على الدعاة أن يعدوا عدتهم لتبصير الحجـيج بفقـه الحـج وإرشـادهـم وتـوجيههم التوجيه الصحيح.

- في موسم الحج تكون الحاجة ماسّة إلى فقه العلماء وإرشادات الدعاة.

- الحجاج يحتاجون من التوعية والإرشاد والتوجيه عناية واهتماما كبيرا بتعلم أحكام الحـج ومعانيه ومقاصده وأسراره وأهدافه وفلسفته.

- توجيه الحجاج إلى تصحيح الأفكار والمعتقدات الخاطئة عن أعمال الحج.

- إرشاد الحجاج للتمييز بين الواجب والسنّة، والسنّة والبدعة، والصحيح والباطل من أعمال الحج.

- توعية الحجاج غاية شرعية ومطلب أساسي ملحّ.

- التوعية في الحج من وسائل الدعوة الإسلامية.

- حركة الإنسان الجسمية في طريق تأدية فريضة الحج لابد أن تكون مسبوقة بحركة فكرية وعلمية.

- ينبغي على الدعاة إدراك الأهداف العامة لبرامج التوعية الإسلامية في الحج.

- يجب إعطاء الدعوة والإرشاد في موسم الحج أولوية كبرى.

- نشر الوعي الديني الصحيح بين الحجاج يكون بنهله صافياً نقياً من منابعه ومصادره الأصلية: الكتاب والسنّة.

- توعية الحجاج وتبصيرهم في أمور دينهم ومناسكهم في بلادهم هي أفضل وذات جدوى أكبر.

- ليست العبرة بكثرة الحج. ولكن بأثر الحج في سلوكياتنا.

التوصيات والمقترحات

- اختيار الوسائل الدعوية الحديثة المؤثرة التي تسهم في التأثير على سلوك الحجاج.

- غرس قدسية الحرم وتعظيمه في نفوس المسلمين عموما والقاصدين خصوصا.

- التأكيد على قيام علماء الشريعة والدعاة إلى الله بدورهم الإرشادي والدعوي.

- التأكيد على الدور الدعوي من خلال وسائل الإعلام الحديثة والشبكات المعلوماتية.

- التأكيد الدائم بوجوب ابتعاد الحجاج عن التوتر والجدال وتجنب الاختلاف.

- تثقيف الحجاج وتوعيتهم توعية إسلامية وتعريفهم بآداب الإسلام في التعامل مع الأفراد والجماعات.

- توعية الحجاج في المستجدات المعاصرة المتعلقة بهذه الشعيرة العظيمة لتبصيرهم بأحكامها الشرعية.

- توعية الحجاج في الحلول المناسبة للمشكلات التي تقع في موسم الحج المبارك.

- حاجة الحجاج لتبصيرهم في نوازل الحج في ضوء المستجدات المعاصرة.

- تذكير الحجاج بقواعد الأخلاق الفاضلة والتعامل الإسلامي الراقي وترسيخ معاني الأخوة الإيمانية بينهم.

- توعية الحجاج وتزويدهم بثقافة الحج المتميزة التي تساعدهم في أداء مناسكهم بيسر وسهولة.

- توعية الحجاج بأنّ اختلاف الفقهاء في المسائل الفرعية رحمة وسعة وخير للأمّة

- رفع درجة الوعي الديني بشكل عام لدى جميع الحجاج.

- الاستعانة بالخبراء في جميع وسائل الإعلام سواء المرئية او المقروءة او المسموعة للمشاركة في توعية حجاج بيت الله الحرام.

- إدراج شرط الحصول على شهادة حضور برامج التوعية الشاملة ضمن متطلبات الحصول على تأشيرة الحج، على أن تكون هذه الشهادة صادرة من جهة معتمدة في تنفيذ برامج التوعية.

- ينبغي أن يتم إلزام الدول بتنفيذ برامج توعية شاملة لحجاجها قبل وصولهم إلى الديار المقدسة.

وأخيراً فإن التوعية في مجال الدعوة الإسلامية غير محددة وغير متناهية وتتجدد مع التزاحم والتطوير والتنظيم الذي يقع في موسم الحج.

وفي الختام فإنّ ما توليه حكومة المملكة العربية السعودية من عناية واهتمام

للمشاعر المقدسة أمر ظاهر للعيان ولا ينكر ذلك إلا جاحد مكابر، فلهم منّا ومن المسلمين الشكر والثناء والدعاء من الله عز وجل بالقبول والثبات والتثبيت، وإننا نطمع من الحكومة الرشيدة المزيد من الإنجازات المباركة التي تخدم المشاعر المقدسة وضيوف الرحمن من حجاج ومعتمرين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

محمد مختار المفتي

قسم أصول الدين، كلية الشريعة

جامعة آل البيت ـ الأردن

5 ذو القعدة 1431هـ

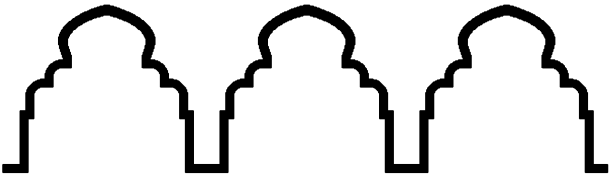

الفصل الخامس

أثر الحرص على السنّة النبوية في ابتكار مناهج علمية جديدة[1]

(1) بحث مقدم لمؤتمر السنة في الدراسات المعاصرة، كوالالمبور ـ ماليزيا، في الفترة من 12-13 ربيع الأول 1432هـ الموافق 15-17 فبراير 2011م.

نحاول في هذا البحث أن نبين جهود العلماء المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم خلال القرون الثلاثة الأولى في الحرص على السنة النبوية، وأثر ذلك في بناء حضارتهم وعلى ابتكار المناهج الجديدة في مختلف ميادين حياة المسلمين الدينية والاجتماعية، وكذلك التقدم في مظاهر الرقي العلمي والأدبي والأخلاقي، وأن هذه الجهود تنبع من عقيدتهم التوحيدية لله.. تلك العقيدة هي التي تبث في المسلمين قيماً رفيعة، وترسم لهم أبعاد منهج الإسلام في الحياة ونظمه وأصوله وفروعه.

وهذا المنهج الإسلامي للحياة، يتمثل من حيث قواعده وأصوله وقيمه وآدابه في السنة النبوية المطهرة كمصدر ثاني بجانب القرآن الكريم، ومن خلال النظر والتأمل والأخذ بهذا المصدر ـ أي السنة ـ يستطيع المسلمون في كل زمان ومكان أن يبتكروا مناهجهم الجديدة ويشيدوا حضارتهم الكبرى. وكما عرفنا أن فيهما دعوة إلى العلم والمعرفة، ودعوة إلى الإحسان والتعاون الاجتماعي على البر والتقوى، وإقامة نظام للحياة الإنسانية يقوم على العدل والشورى.

ومن أجل أهمية هذا المصدر ـ أي السنة ـ في صنع الحضارة وابتكار المناهج، كان للمسلمين الأوائل من الصحابة والتابعين وتابعيهم جهود هائلة في توثيق كل كلمة في الأحاديث النبوية للحرص عليها، وفي توثيق أو تضعيف كل تصدي لحمل شيء منها. فكان لهم عمل كبير ومنهج متميز في مجال العلم والمعرفة بصفة عامة، وكذلك في مجال العلاقة الاجتماعية وغيرها، مما أدى إلى أن يتفوقوا فيها ويحتفظوا بأصالتها ويتعمقوا في دراستها وتحليلها، بل أحسنوا استخدام مناهجها في مختلف جوانب الأعمال، وسوف نحاول أن نستعرض ذلك في هذا البحث إن شاء الله.

المبحث الأول

دور علماء السنة في نشأة مناهج علمية

من المعروف لدى العلماء المسلمين عموما وأهل العلم خصوصاً، بأن الصحابة رضوان الله عليهم هم الطبقة الأولى من رواة الأحاديث وحفظة السنة النبوية، لأنهم كانوا يعيشون مع الرسول ﷺ ويشاهدونه ويسمعون منه ويأخذون عنه ويحرصون على أن يقتدوا به.

وأما التابعون فهم الطبقة الثانية ـ بعد الصحابة والتابعين ـ الذين قاموا بهذه المهمة، لأنهم عاشوا مع التابعين وشاهدوهم وسمعوا منهم وحفظوا عنهم وحرصوا على أن يأخذوا منهم ما أخذوه عن الصحابة من سنة الرسول ﷺ، وبذلوا في سبيل هذا العلم جهداً كبيراً، فرحلوا وانتقلوا من مكان لآخر وسجلوا ودونوا.

فمن خلال هذا الجهد الجهيد والمهمة الجليلة التي قام بها العلماء سواء كانوا من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين، تمكنوا من إتمام هذا العمل في حفظ السنة النبوية والتثبت من مأثوراتها، حيث أجمعوا على وجوب تلقي السنة النبوية بمزيد من الاعتناء والضبط ووضعوا لذلك قواعد ثابتة، ونظما واضحة، ومناهج دقيقة قائمة بذاتها من بين العلوم الإسلامية. ويمكن أن نلخص أسس هذه القواعد والمناهج فيما يلي:

أولاً ـ التمسك بالإسناد:

كان الإسناد يعتبر من أهم عناصر المنهج الإسلامي فهو ذو مكانة كبرى في نقل الخبر، وذلك لتركزه في أبحاث العدالة والضبط، ومختلف بحوث هذا العلم. وقد وقع الالتزام بالإسناد والعناية به منذ عهد الصحابة ﷺ وفي وقت مبكر[1] وقد سلك مسلكهم التابعون ثم تابعوهم.

وبالتحديد بدأ اهتمام العلماء من الصحابة والتابعين بعد أن وقعت الفتنة الكبرى في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، حيث إن هذه الحادثة قد أظهرت الفرق والأحزاب التي نتجت عنها مظاهر الكذب على الرسول ﷺ من بين أهل الأهواء، وأخذ الدس على السنة النبوية يربو عصراً بعد عصر. من أجل مواجهة ذلك فقد أخذ العلماء من الصحابة والتابعين منذ القرن الأول إلى منتصف القرن الثاني من الهجرة موقفاً قوياً للحفاظ على الحديث الشريف والسنة النبوية، وأصبحوا متشددين في طلب الإسناد حيث لا يقبلون الأحاديث إلا ما عرفوا طريقها ورواتها، واطمأنوا إلى ثقتهم وعدالتهم، لأن السند للخبر كالنسب للمرء. يقول ابن سيرين في ذلك: «لم يكونوا يسألوا عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم»[2].

وقد تجرد عدد من الصحابة ﷺ لحفظ الأحاديث النبوية وضبطها، وبخاصة من كانوا منهم أكثر ملازمة للرسول ﷺ، وكانوا في هذا الحفظ والضبط

(1) المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل ـ فاروق حمادة ـ ص252.

(2) روى عن ابن سيرين ـ أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي ـ ج1، 84 (المقدمة: (5) باب بيان أن الإسناد من الدين. .)، وسنن الدارمي ـ ج1، 112.

على جانب كبير من التدقيق والتحقيق «ولقد كان بعضهم يستحلف من روى له حديثاً لم يكن هو قد سمعه منه ﷺ، فإذا حلف صدقه مع أنه من الصحابة رضي الله عنهم وأنهم كانوا على جانب كبير من الصدق والأمانة والإخلاص، وقد أجمع من يعتمد به من العلماء عند أهل السنة والجماعة أن الصحابة كلهم عدول»[1]. سواء في ذلك من لابس الفتن أو لم يلابسها، للحديث الصحيح المروي عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، قال «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه شهادته»[2].

وعلى سبيل المثال ما روى الإمام أحمد بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كنت إذا سمعت من رسول ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيري استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني ـ وصدق أبو بكر ـ حدثني أنه سمع النبي ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له»[3].

(1) التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة ـ د. علي عبد الحليم محمود ـ ص36 و106، والسنة قبل التدوين ص221، ومباحث في علوم القرآن ـ مناع القطان ص57 والحديث والمحدثون: محمد زهوة ص151.

(2) متفق عليه، روى عن عمران بن الحصين ـ أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع، ج3، 337 (كتاب الشهادات: باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد)، وج5، 63)، باب فضائل أصحاب النبي ج8، 163 (كتاب الرقاق: باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها)، وج8، 254 (كتاب الإيمان والنذر: باب إثم من لا يفي بالنذر)، وإخراج مسلم في صحيحه بشرح النووي ـ ج16، 87 (كتاب فضائل الصحابة.. (52) باب فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم).

(3) روى عن علي بن أبي طالب ـ أخرجه أحمد في المسند، ج2، 41 و56، وأبو داود رقم (1512)، وينظر: تهذيب التهذيب.. ، ابن حجر العسقلاني، ج1، 268.

واستمر اهتمام الصحابة بالتدقيق والتثبت بالإسناد في كل حديث نبوي يسمعونه من أحد عن الرسول ﷺ، بل استمر ذلك الاهتمام في عصر التابعين رضي الله عنهم وتابعيهم وأهل القرون الثلاثة الأولى، وعلى رأسهم أئمة المذاهب وجمهرة كبيرة من جامعي الحديث كالإمام البخاري والإمام مسلم وغيرهما.

وبذلك فقد ابتدأ هذا التثبت منذ عهد صغار الصحابة وكبار التابعين الذين ما زالوا يعيشون في زمن متأخر بعد الفتنة، واستمر إلى عهد أتباع التابعين الذين حركوا أنشطة التأليف والتدوين، وفي هذا يروي الإمام مسلم بسنده عن مجاهد قال: «جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله ﷺ كذا، وقال رسول الله ﷺ كذا، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس. ما لي أراك لا تسمع لحديثي، أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف»[1].

وكان التابعون وأتباعهم من بعدهم أيضاً يسألون عن الإسناد ويلتزمونه ويطالبون به، وذلك في منتصف القرن الثاني ومنتصف القرن الثالث من الهجرة وخصوصاً بعد أن فشا الكذب على الرسول ﷺ، ولهذا قال أبو العالية: «كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ، فما رضينا حتى رحلنا إليهم،

(1) روى عن قيس بن سعد عن مجاهد ـ راجع صحيح مسلم بشرح النووي، جزء 1، 81 (المقدمة ـ (4) باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحملها)، والسنة ومكانتها.. ،. للسباعي، ص91.

فسمعناها من أفواههم»[1]. وبذلك فإن التابعين وأتباعهم أيضاً يتواصلون بطلب الإسناد، ويقول ابن المبارك: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[2]، وقال أيضاً: «بيننا وبين القوم القوائم ـ يعني الإسناد»[3].

وهكذا نرى أن منهج الإسناد قد اتخذه العلماء من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن جاء بعدهم، وتشددوا بالطلب فيه خاصة عن نقلهم الأحاديث والأخبار أو السنة النبوية عن الرسول ﷺ، وهو من أهم عناصر المنهج الذي ابتكره العلماء المسلمون أو المحدثون في سبيل الحفاظ على السنة النبوية، لكي تبقى بعيدة عن التغيير والتبديل، وتسلم من التزوير والتحوير. ولهذا فقد تمسك علماؤنا بهذا المنهج ونفوا عن السنة المطهرة تحريف الغالين، وانتحال المبطلين. وتأويل الجاهلين، ولا يزالون ينفون والحمد لله[4].

ثانياً ــ الحرص على التوثيق:

ومنهج التوثيق عند المحدثين؛ هو أن يوثق واحد من الناس ليكون أهلا لرواية الأحاديث النبوية الشريفة، لتقبل روايته، وهو أن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً سليماً من أسباب الفسق وخوارم المروءة. وكذلك أن يكون من تقبل روايته لتوثيقه

(1) السنة قبل التدوين، الدكتور محمد عجاج الخطيب، ص223.

(2) روى عن عبد الله بن المبارك، راجع صحيح مسلم بشرح النووي، جزء 1، 87 (المقدمة، (5) باب بيان أن الإسناد من الدين. .)، والكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي، ص68، والمنهج الإسلامي في الجرح والتعديل، د. فاروق حمادة، ص254.

(3) المرجع السابق (صحيح مسلم بشرح النووي، جزء 1، 88 (المقدمة، (5) باب بيان أن الإسناد من الدين. .).

(4) المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل، د. فاروق حمادة، ص9.

متيقظاً غير مغفل، حافظاً إن حدث من حفظه، ضابطاً لكتابه من التبديل والتغيير إن حدث من مكتوب له، عالماً بما يحيل المعنى إن روى بالمعنى[1].

ومن المعروف لدى أهل العلم والمعرفة أن الجهود التي بذلها المحدثون في توثيق الأحاديث أو السنة النبوية كانت جهوداً رائدة، لم يسبق لها مثيل على مستوى الإنسانية كلها في مختلف حقب تاريخها، وكانت هذه الجهود مبذولة منذ عصر الصحابة إلى العصر الذهبي لتدوين السنة النبوية خاصة في القرنين الثاني والثالث للهجرة، ولم يكن ذلك بمستغرب من علماء الحديث أو السنة بالذات، لأن الأمة الإسلامية أمة السند ـ كما سبق أن تكلمنا عنه ـ حيث لا تؤخذ معلومة إلا إذا كانت مسندة إلى قائل ثقة عن قائل ثقة... حتى يبلغ بها مصدرها الرئيس، وذلك كما وصفه العلماء المحققون[2].

ولا شك أن كتب هؤلاء المحدثين قد أصبحت معالم للإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ونظاماً ومنهج حياة، فهم الذادون عن السنة الذين حفظوها للأجيال التي جاءت بعدهم من عبث العابثين وكيد الضالين، فجاءت كتبهم عن السنة النبوية جمعاً علمياً صحيحاً، لا تشوبه شائبة لما تحدث به المعصوم ﷺ أو فعله أو أقره.

فلولا الجهود التي قد بذلها المحدثون سواء أكانت من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم أو علماء الأمة من بعدهم لاشتبه على كثير من الناس بعض أمور دينهم، لكثرة ما اختلقه الكذبة الوضاعون ونسبوه إلى الرسول ﷺ زوراً وبهتاناً، وإن المنصف لا يسعه إلا أن يقف إجلالاً وإكباراً لجهود العلماء من الأمة التي بذلوها

(1) التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة، د. علي عبد الحليم محمود، ص175.

(2) نفس المرجع السابق (التوثيق والتضعيف. .)، ص93.

في تنقيح السنة الشريفة وتوثيق الرجال والأحاديث النبوية وتطهيرها مما أدخلته فيها يد الوضع. ومما يزداد فيه إعجاباً هو تلك القواعد العلمية الدقيقة التي طبقها العلماء، وذلك المنهج الخاص الذي اتبعوه في سبيل الحفاظ على أحاديث الرسول أو سنته ﷺ. حتى لم يتركوا فيها كلمة أو حرفاً يظن فيه الإدعاء أو الكذب ليصبح الصحيح الثابت من سنة الرسول ﷺ، ويسلم من التحريف فيه والدخيل عليه، فيظل صافياً نقياً، لا تشوبه شائبة، ولا تعتريه ريبة. وبذلك فقد عملوا على ابتكار قوانين ومناهج علوم جديدة لم تكن معروفة سابقاً مثل؛ علم الجرح والتعديل، وطرق تحمل الحديث النبوي وشروطه وغيرها من العلوم.

وفي أواخر عصر التابعين حوالي سنة 150 هجرية ـ أي منتصف القرن الثاني الهجري ـ اتسع أفق هذه العلوم وخاصة علم الجرح والتعديل، نظراً لكثرة الرواة وكثرة الطلبة الذين أقبلوا على العلم، فتكلم جمع من العلماء في الرجال وجملة العلوم، وظهرت الحاجة الماسة لهذا العلم حيث كثر الوضع، وانخرط في سلك حملة الأخبار من ليس منهم[1].

فمن الواضح البين لدى المعنيين من المسلمين بعلوم الحديث النبوي، أن الحديث لا يعتبر صحيحاً يؤخذ به إلا إذا تتابعت فيه سلسلة الإسناد والرواة، من غير انقطاع، وكانت هذه السلسلة تتألف من رجال يوثق بروايتهم حسب شروط التوثيق المعروفة والمذكورة من قبل.

وكان الحكم على مكانة المحدث من حيث قبول أحاديثه أو رفضها يختلف

(1) المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل، فاروق حمادة، ص31 بتصرف.

اختلافاً واضحاً من حيث جرحه أو تعديله لدى علماء الحديث، وكان هؤلاء العلماء يختلفون فيما بينهم في جرح راو أو تعديله تبعاً لما تجمع لديهم من أسباب الجرح أو التعديل، وليس معنى اختلافهم هذا أن هناك خللاً في معلومات أو أعمال علماء الحديث، وإنما معناه أنهم يلجأون إلى كل وسيلة ويبحثون عن أي سبب ليجرحوا هذا أو يعدلوا ذاك، وتلك هي الأمانة والتثبت والتدقيق.

فمهمة العلماء في التوثيق للرواة أو الأحاديث كانت شاقة لما يحف بها من الحذر، وما يترتب عليها من الآثار الجليلة في الدين والدنيا. وبفضل الله ورحمته ذللت تلك الصعوبات على أيدي جهابذة العلماء في الحديث أو السنة، الذين كانوا بعلمهم وفضلهم وحسن منهجهم ودقة قواعدهم قد لجأوا إلى تقسيم الأحاديث وتفريعها إلى تقسيمات وتفريعات.

وكان هؤلاء الجهابذة ينتقدون الرجال كما ينتقدون المتون، وقد خصهم الله بهذه الفضيلة ورزقهم هذه المعرفة وأعطاهم الدأب والصبر، فحفظت بها السنة من عبث العابثين وتأويل المغرضين، وتحريف الجاهلين المضلين، وصدق ابن المبارك حين قيل له: «هذه الأحاديث الموضوعة فقال: تعيش له الجهابذة»[1]، قال الله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: 9].

وعلى أثر ذلك فقد قسم هؤلاء العلماء الحديث إلى درجات يعرف بها المقبول من المردود، والقوي من الضعيف، فقسموه إلى صحيح وضعيف، وبينوا حد كل منها وما يندرج تحته، أما الحديث الحسن فلم يكن معروفاً عند العلماء المحدثين في

(1) تدريب الراوي.. السيوطي، ص148، والكفاية في علم الرواية، للبغدادي، ص37، والجرح والتعديل، ارازي، جزء 1، ص18.

القرن الثاني الهجري، وإنما عرف بعد ذلك، «ويعتبر كتاب الترمذي أصلاً في معرفة الحسن»[1]، لأن الترمذي هو أو من استعمله بكثرة في وصف الأحاديث، «وإن كان موجودا في كلام من سبقوه كالشافعي واحمد والبخاري وغيرهم ولكن على قلة»[2].

وهكذا فقد بلغت عناية العلماء وحرصهم على التوثيق في الأحاديث الشريفة بتحري الصحيح من السنة النبوية والقوي من الرواة أو الرجال، ما أدى بهم إلى تأليف كتب قائمة بذاتها في التوثيق والتضعيف أو التعديل والجرح، خاصة في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة وما بعده، وهي كتب لها أهميتها القصوى في الدفاع عن الحق وصيانة الشريعة الإسلامية من العبث، ومن تلك الكتب[3]:

1- التاريخ والعلل ـ ليحيى بن معين (ت 233هـ).

2- كتاب الطبقات ـ لأبي عمرو خليفة بن خياط (ت 240هـ).

3- كتاب الضعفاء ـ للإمام البخاري (ت 256هـ).

4- التاريخ الكبير ـ لأبي بكر أحمد بن أبي خيثمة (ت 279هـ).

5- أسماء المحدثين وكناهم ـ لابن أبي حاتم الرازي (ت 327هـ).

---

(1) اختصار علوم الحديث، لابن كثير، ص43، والسنة ومكانتها. ،. د. السباعي، ص94-95. والسنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، ص238.

(2) شرح علل الترمذي، لابن رجب، ص258، وتدريب الراوي. ،. للسيوطي، ص96، وفتح المغني، للسخاوي، جزء 1، 170، والمنهج الإسلامي، د. فاروق حمادة، ص407.

(3) التوثيق والتضعيف، د. علي عبد الحليم محمود، ص152، 153.

6- كتاب الجرح والتعديل ـ لابن أبي حاتم الرازي (ت 354هـ).

7- كتاب الثقات ـ للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان (ت 354هـ).

8- الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين ـ لابن عدي (ت 360هـ).

ثالثاً ــ الحذر من الوضع:

ظهر مما قلناه في الفقرات السابقة ما قام به الصحابة وكبار التابعين في القرن الأول والثاني للهجرة من جمع الحديث، والتمسك بالإسناد، والحرص على التوثيق، وذب الخرافات والأكاذيب عن ساحته، وظهر لنا أيضاً أنهم أودعوا الأحاديث حوافظهم القوية وقرائحهم الصافية فكانوا بذلك في غنى عن الكتابة، وما روي عن بعضهم أنهم كانوا يكتبون الأحاديث لم يكن منهم لضعف ملكة الحفظ، بل لزيادة التأكد من ضبط الأحاديث وتحري ألفاظها.

ولقد دلنا التاريخ أن الصحابة في حياة الرسول ﷺ وبعده كانوا يتورعون عن الكذب على الرسول ﷺ ولا يسمحون به، لأنهم كانوا على خشية من الله وتقى يمنعهم من الافتراء على الله ورسوله، وأنهم كانوا على حرص شديد على الشريعة وأحكامه والذب عنها وإبلاغها إلى الناس صحيحة كما تلقوها عن رسول الله ﷺ، وأنهم كانوا شجعاناً لا يرهبون أحداً إلا الله، فيتحملون في سبيل الحفظ على دين الله كل تضحية ويخاصمون كل أمير أو خليفة أو أي رجل يرون فيه انحرافاً عن دين الله، لا يخشون لوما ولا موتا ولا اضطهادا، ولا يغريهم عرض زائل.

ولهذا فلا شك أن الكذب لم يكن على عهد الرسول ﷺ من الصحابة ولا وقع منهم بعده؛ «وأنهم كانوا محل الثقة فيما بينهم، لا يكذب بعضهم بعضا، وكل ما كان بينهم من خلاف فقهي لا يتعدى اختلاف وجهات النظر في أمر ديني، وكل

منهم يطلب الحق وينشده، لذلك وجب أن يحمل كل ما جرى بينهم من الفتن على أحسن حال، لأن ما وقع إنما كان نتيجة لما أدى إليه اجتهاد كل فريق»[1].

وأما في عصر التابعين؛ «فإن الكذب في عهد كبارهم كان أقل منه في عهد صغارهم، وذلك لاحترام مقام الرسول ﷺ ولأن عامل التقوى والتدين كان أقوى في العهد الأول منه في العهد الثاني، ويضاف إلى ذلك أن وجود الصحابة وكبار التابعين المشهورين بالعلم والدين والعدالة واليقظة، من شأنه أن يقضي على الكذابين ويفضح نواياهم ومؤامراتهم، أو أن يحد من نشاطهم في الكذب»[2].

ثم لما انتشر الإسلام، واتسعت البلاد، وشاع الابتداع، وتفرقت الصحابة بالأمصار، ومات كثير منهم في الحروب وغيرها، وقل الضبط لضعف ملكة الحفظ، دعت الحاجة إلى تدوين الأحاديث وكتابته، وخصوصاً بعد عصر كبار التابعين في منتصف القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة[3]، حيث بدأ يفشو فيه الكذب ويكثر الوضع لأسباب مختلفة وأغراض متنوعة.

ولذلك فبالرغم من تكاتف الكتابة والحفظ على جمع الأحاديث وضبطها في هذا العصر؛ «فإنه قد انبثت جراثيم الشر وعوامل الفتنة من الذين أخذوا يضعون الأحاديث، ويلقون على الناس الأساطير، وينشرون فيهم الخرافات والأكاذيب من قبل طوائف كثيرة، ترغب في الوصول إلى أهداف معينة، وتعمل على إفساد

(1) السنة ومكانتها.، ص127، والسنة قبل التدوين، ص404، ودراسات في السنة النبوية الشريفة، د. صديق عبد العظيم أبو الحسن، ص187.

(2) السنة ومكانتها، ص90-93 بتصرف، ودراسات في السنة. .، ص187-188.

(3) السنة قبل التدوي، ص325، 326 بتصرف.

الأحاديث، وتجتهد في تزييفها. ومن تلك الطوائف التي تعتبر من الدواعي والبواعث للوضع هي طائفة الدعاة السياسيين، وطائفة الزنادقة، وطائفة القصاص وغيرها»[1].

فلا شك أن العلماء في هذا العصر لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام ظاهرة الزيادة والكذب على الرسول ﷺ وعلى الصحابة رضي الله عنهم بوضع الأحاديث ونسبتها إليهم، بل كانوا يمثلون طائفة من أعلم النقاد وكبار الحفاظ قاموا للدفاع عن الأحاديث والسنة النبوية، حيث انتدبوا أنفسهم لتخليص الحق من الباطل وتتبعوا كل ما نسب إلى الرسول ﷺ وأجروا فيه موازينهم ومعارفهم وقواعدهم التي وضعوا لقياس كل من السند والمتن، واستطاعوا أن يميزوا بين الصحيح، والمكذوب، والموضوع.

وعلى إثر ذلك فقد نشط علماء الحديث في هذا العصر ـ أي بداية من القرن الثاني الهجري المعروف بعصر التدوين والتصنيف ـ نشاطاً عظيماً في تدوين الحديث وتصنيف الكتب الحديثية، حيث جمعوا الموضوعات في مصنفات خاصة وكتبوا عن خصائصها وعلاماتها، وبينوا العلامات التي يعرف بها الوضع سواء كان عن طريق السند أو عن طريق المتن، فهي كانت نهضة مباركة في جمع الأحاديث وثورة عنيفة في وجوه الوضاعين، ولكنهم لم يصلوا إلى هذه المرحلة الحاسمة والنصر المبين على أعداء الإسلام الألداء إلا بشق الأنفس، فهذا أبو داود السجستاني في رسالته إلى أهل مكة يقول ما خلاصته: «كان سفيان ووكيع وأمثالهما يجتهدون غاية

(1) الحديث والمحدثون. ، محمد ابو زهو، ص259، ودراسات في السنة. ، ص190، 198 بتصرف، والسنة ومكانتها.. ، ص78، 89 بتصرف.

الاجتهاد فلا يتمكنون من الحديث المرفوع المتصل إلا من دون ألف حديث»[1].

وفي ذلك قال الإمام مالك بن أنس: «لا يؤخذ العلم عن أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك، لا يؤخذ من صحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من سفيه معلن بالسفه وإن كان من أورع الناس، ولا من رجل يكذب في أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه أن يكذب على رسول الله ﷺ، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث»[2].

وقال الإمام الشافعي: «كان ابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وطاووس، وغير واحد من التابعين، يذهبون إلى ألا يقبلوا الحديث ممن يخالف هذا المذهب»[3] وقال يحيى بن سعيد القطان: «لم نر أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث»[4].

وقال سفيان الثوري: «إني أحب أن أكتب الحديث على ثلاثة أوجه: حديث أكتبه أريد أن أتخذه ديناً، وحديث رجل أكتبه فأوقفه لا أطرحه ولا أدين به، وحديث رجل ضعيف أحب أن أعرفه ولا أعباً به» والأوزاعي رضي الله عنه يقول: «تعلم ما لا يؤخذ كما تتعلم ما يؤخذ»[5].

(1) حجة الله البالغة، عبد الرحيم الدهلوي، جزء 1، ص148، والحديث والمحدثون. ،، ص267، 268.

(2) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي، ص403، والجرح والتعديل. ،، للرازي، جزء: 1، 32، والكفاية في علم الرواية، للبغدادي، ص116.

(3) السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، ص237.

(4) توجيه النظر إلى علوم الأثر، لطاهر الجزائري، ص36.

(5) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، جزء 1، 76.

وكل ذلك يمثل بعض نماذج يظهر من خلاله جلياً ما كان عليه أئمة الحديث خلال هذا القرن والقرون التي تليه، من بصيرة طيبة، وحذر شديد، ومعرفة تامة بالسنة النبوية متونها وأسانيدها حتى كشفوا الرواة وأقصوا كثيراً منهم عن حظيرة السنة والتمتع بشرف روايتها، كما ميزوا الأحاديث؛ فحديث علموا صحته فعملوا به؛ وحديث علموا كذبه ووضعه فتركوه، وحديث تبين لهم ضعفه فلم يعتمدوا عليه وحده، وحديث اشتبه أمره فتوقفوا فيه حتى يظهر حاله وينكشف أمره.

فعلى أساس هذه البصيرة والمعرفة التامتين والحذر الشديد من الوضع تمكن هؤلاء العلماء الجهابذة من حفظ السنة النبوية، حيث قاموا بوضع القواعد والمناهج الخاصة لمعرفة الصحيح والحسن والضعيف من أقسام الحديث. وإلى جانب ذلك أيضاً فقد وضعوا القواعد المعينة لمعرفة الموضوع منه، وبينوا ما يدل على علامات الوضع عن طريق السند وعلامات الوضع عن طريق المتن. ومن أهم تلك العلامات التي تدل على الوضع ما يلي:

أ ـ علامات الوضع في السند:

علامات الوضع في السند ـ كما بينها علماء الحديث ـ كثيرة وأهمها:

1- أن يكون أحد رواة الحديث قد عرف بالكذب، ولا يرويه ثقة غيره فيحكم على روايته بالوضع، وقد استقصى جهابذة العلماء معرفة الكذابين، وبينوا ما كذبوا فيه حتى لم يفلت منهم أحد.

2- أن يتعرف الواضع بالوضع، كما اعترف أبو عصمة نوح بن أبي مريم في فضائل السور، وعبد الكريم بن أبي العوجاء في تحريم الحلال وتحليل الحرام.

3- أن يروي الراوي عن شيخ ويثبت عدم لقياه له؛ كأن يكون قد ولد بعد وفاته، أو لم يرحل إلى المكان الذي ادعى سماعه فيه، أو توفي هذا الشيخ والراوي صغير لا يدرك.

4- أن يكون للراوي أهداف معينة توافق هواه الشخصي، وبواعثه النفسية الخاصة تعود الفائدة إليه، مثل حديث الهريسة تشد الظهر، حيث كان واضعه يبيع الهريسة وغيرها من الأحاديث.

ب ـ علامات الوضع في المتن:

وهذه العلامات كثيرة أيضاً وأهمها:

1ـ ركاكة اللفظ في الحديث؛ بحيث يدرك العليم باللغة العربية أن مثل هذا اللفظ ليس من فصاحة النبي ﷺ وبلاغته، لأنه يعرف بسيد الفصحاء وقد أوتي جوامع الكلم. قال الحافظ ابن حجر: «المدار في الركة على ركة المعنى، فحيثما وجدت دلت على الوضع، وإن لم ينضم إليها ركة اللفظ، إن الدين كله محاسن، والركة ترجع إلى الرداءة. أما ركاكة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك، لاحتمال أن يكون رواه بالمعنى، فغير ألفاظه بغير فصيح، نعم إن صرح بأنه من لفظ النبي ﷺ فكذب»[1].

2ـ فساد المعنى؛ بحيث أن يكون مضمون الحديث مخالفاً لبديهيات العقل والعلم، من غير أن يمكن تأويل لفظ هذا الحديث، مثل الحديث الذي وضعه ابن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده مرفوعا: «إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً،

(1) الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث، للحافظ بن كثير، ص90.

وصلت عند المقام ركعتين»[1]، أو أن يكون مخالفاً للقواعد العامة في الحكم والأخلاق، مثل حديث: «جور الترك ولا عدل العرب»[2]، أو أن يكون داعياً إلى شهوة وفساد، مثل حديث: «النظر إلى الوجه الحسن يجلي البصر»[3]، وغيرها كثير من مثل هذه الأحاديث. وفي هذا قال ابن الجوزي: «ما أحسن قول القائل: إذا رأيت الحديث يباين المعقول أو يخالف المنقول أو يناقض الأصول. فاعلم أنه موضوع»[4].

3ـ مناقضة نصوص الكتاب أو السنة المتواترة أو الاجماع القطعي[5]؛ بحيث يكون مخالفاً لصريح القرآن ولا يقبل التأويل، مثل حديث: «ولد الزنا لا يدخل الجنة إلى سبعة أبناء»[6]، فإنه مخالف لقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: 164]، أو أن يكون مخالفاً لصريح السنة المتواترة مثل حديث: «إذا حدثتم عني بحديث يوافق الحق فخذوا به، حدثت به أو لم أحدث»، فإنه مخالف للحديث المتواتر: «من كذب علي متعمداً فليتبؤا مقعده من النار»[7]. أو أن يكون مخالفاً للقواعد العامة المأخوذة من القرآن والسنة أو الإجماع القطعي، مثل حديث: «من ولد له ولد فسماه محمداً كان هو ومولوده في الجنة»، فإنه مخالف للمعلوم المقطوع به

(1) الباعث الحثيث، لابن كثير، ص91، ودراسات في السنة. ،. ص204.

(2) المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، لعلي القاري الهروي المكي، ص88، والسنة ومكانتها.. ،. ص98.

(3) نفس المرجع السابق، ص202، والسنة ومكانتها.. ،. ص98.

(4) تدريب الراوي. ،. لجلال الدين السيوطي، ص180، والسنة ومكانتها. ،. د. السباعي، ص99.

(5) توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، للصنعاني، جزء 2، 96.

(6) المصوع في معرفة الحديث الموضوع، ص204، والسنة ومكانتها.. د. السباعي، ص99.

(7) قد سبق إخراج هذا الحديث، السنة ومكانتها. ،. ص99.

من أحكام القرآن والسنة من النجاة بالأعمال الصالحة لا بالأسماء والألقاب»[1]، وغير ذلك كثير.

4ـ مخالفة الحديث للحقائق التاريخية المعروفة في عصر الرسول ﷺ، أو اقترانه بقرائن تثبت بطلانه، مثل حديث: « أن النبي ﷺ وضع الجزية على أهل خيبر ورفع عنهم الكلفة والسخرة بشهادة سعد بن معاذ وكتابة معاوية بن أبي سفيان، مع أن الثابت في التاريخ أن الجزية لم تكن معروفة ولا مشروعة في عام خيبر، وإنما نزلت آية الجزية بعد عام تبوك، وأن سعد توفي قبل ذلك في غزوة الخندق، وأن معاوية إنما أسلم زمن الفتح. وبين ابن قيم الجوزية: «كذب هذا في عشر أدلة قوية»[2]، فحقائق التاريخ ترد هذا الحديث وتحكم عليه بالوضع.

5ـ موافقة الحديث لمذهب الراوي؛ وهو متعصب مغال في تعصبه، كأن يروي رافضي حديثاً في فضائل أهل البيت، أو مرجئ حديثاً في الإرجاء، مثل ما رواه حبة بن جوين، قال: «سمعت علياً رضي الله عنه قال: عبدت الله مع رسوله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين أو سبع سنين، قال ابن حبان: كان حبه غالياً في التشيع، واهياً في الحديث»[3].

6ـ اشتمال الحديث على إفراط في الجزاء على أعمال عادية؛ مثل المبالغة في الثواب العظيم على الفعل الصغير، والمبالغة بالوعيد الشديد على الأمر الحقير. وقد أكثر القصاص من مثل هذا النوع ترقيقاً لقلوب الناس وإثارة لتعجبهم، مثل

(1) المرجع السابق، ص99، والسنة قبل التدوين، ص245.

(2) المنار، لابن قيم الجوزية، ص37، 38.

(3) السنة ومكانتها. ،، ص100، والسنة قبل التدوين، ص246.

حديث: «من صلى الضحى كذا وكذا ركعة أعطى ثواب سبعين نبياً»، ومثل حديث: «من قال لا إله إلا الله خلق الله تعالى له طائراً له سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة يستغفرون له»[1].

فهذه أهم القواعد التي وضعها العلماء لنقد الحديث وبينوا العلامات لتمييز الموضوع من الحديث وصحيحه، كما أنهم بحثوا بدقة تامة عن الأحاديث الموضوعة، وصنفوها حتى تعرف لأهل العلم ولا تشتبه عليهم، والذي يظهر أنهم لم يقتصروا في جهدهم على نقد سند الحديث فقط دون متنه، بل كان نقدهم منصباً على السند والمتن على السواء.

وإلى جانب هذه القواعد، فقد تكونت عند أكثر العلماء ملكة خاصة نتيجة دراستهم لحديث الرسول ﷺ، وحفظه ومقارنة طرقه، فعرفوا ما هو من كلام الصادق المصدوق وما ليس منه، كما قال ابن الجوزي: «الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم وينفر منه قلبه في الغالب»[2]، وكثيراً ما يقولون: «إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار نعرفه به، وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل نعرفه بها»[3].

(1) السنة ومكانتها.. ، ص102، والسنة قبل التدوي، ص247، ودراسات في السنة. ، ص207.

(2) الباعث الحثيث. ، ص90، والسنة ومكانتها. ، ص102.

(3) معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري، ص26 والكفاية في علم الرواية، للبغدادي، ص431، والسنة ومكانتها. ، ص102.

المبحث الثاني

منهج السنة في تحقيق المعرفة

كانت السنة النبوية في مجموعها مصدراً رئيساً لمعرفة التعاليم الإسلامية، وإن الأدلة التي تدل على ذلك ثابتة وقاطعة بنصوص من القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ [آل عمران: 32]، وقوله سبحانه: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: 7]، وقوله عز وجل: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: 80]. ومن هذا المنطلق فلا حاجة للمجادلة فيها والرد عليها لأن أصحابها قد اعتمدوا على حجيتها.

وفي الحقيقة إن أي علم من العلوم، وفرع من فروع المعرفة في تاريخ الإنسانية كلها، لم يتوافر له من التوثيق والتدقيق في البحث والتثبيت من صحة النصوص مثل ما توافر للسنة الشريفة، وإنما يتجاهل هذه الحقيقة من لم تتح له معرفة الجهود التي بذلها علماء الحديث قديماً وحديثاً ـ كما تكلمنا عنه سابقاً ـ للتثبت من صحة الرواية عن النبي ﷺ، والتمحيص لأحوال الرواة، والتأكد من صحة الحديث متمسكين بقواعد منهج صارم في السند والمتن جميعاً.

وعلى الرغم من ذلك فإن قضية فهم السنة النبوية قضية جوهرية لا تقل أهمية عن قضية التثبت من صحة المرويات، وكيفية الاحتجاج بالسنة النبوية،

والالتفات إلى أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقاريره التي قد تكون صادرة منه على سبيل التبليغ أو على سبيل القضاء إلى غير ذلك مما فصل القول فيه علماء أصول الفقه وكثير من المحدثين[1].

ولكن القضية الواحدة التي نعرض لها في هذا المبحث هي كيف كانت السنة المطهرة قد وجهت إلى منهج أصيل مهم لتحقيق المعرفة في جميع نواحيها، ألا وهو المنهج السمعي الذي يمثله البلاغ القرآني والبيان النبوي، وذلك لأنه الطريق المتميز في الاعتماد على هذا المنهج الذي يثمر المعارف الصادقة في المجال الفكري الذي ساد في حضارة الإسلام نفسها، وبهذا المنهج صارت السنة النبوية وبجانبها القرآن الكريم مصدرين للمعرفة في الثقافة الإسلامية.

أولاً ــ المنهج النبوي البياني:

إن هذا المنهج ينبثق من دستور القرآن الكريم وهو كلام الله تعالى، وكتابه الذي أحكمت آياته، وبلاغه المبين على لسان رسوله محمد ﷺ إلى العالمين. وهو وحي الله تعالى إلى رسوله، ومعجزة التحدي وآية صدق هذا الرسول، ويعتبر القرآن أرقى مستويات المنهج السمعي الذي لم يكن هناك مثله، سواء في الإعجاز المتحدى أو في حجية المعجزة، أو في توثيق الرواية، أو في عقلانية الدراية، أو التعهد الإلهي له بالحفظ، وبعدم تبديل ما فيه من كلمات، ولا يأتيه الباطل من أي اتجاه وغير ذلك.

(1) مجلة الإسلام المعاصر، تحت عنوان: الإستعانة بالسنة النبوية في تحقيق نهضة حضارية إسلامية شاملة، د. أحمد كمال أبو المجد، ص23-25، مؤسسة المسلم المعاصر والمعهد العالي للفكر الإسلامي.

وتوضيحاً لذلك فقد جاءت في القرآن آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: 9]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: 15]، وقوله عز وجل: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللـهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: 64]، وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 41-42]، وغيرها من الآيات.

وعلى الرغم من تطاول القرون التي بلغت الخامس عشر حتى الآن، فإنها تشهد على صدق هذا الوعد الإلهي بالحفظ وعدم التبديل، ونفي الباطل، ودائماً تقوم الشواهد على القرآن الكريم في مصادر المعرفة أعلى درجات الصدق والثقة واليقين، وذلك بالإضافة إلى دلائل صدقه المستمدة من وجوه إعجازه الأخرى الكثيرة، ولا زال بتعاليمه يقف شامخاً في وجه الأعاصير.

ولقد كانت مهمة الرسول ﷺ هو البلاغ لهذا المنهج الذي بلغ قمة اليقين المعرفي، ويمكن تلخيص هذه المهمة في الأمور الآتية:

1ـ إن البلاغ لهذا القرآن الكريم يمثل مهمة جاء الأمر بها في كثير من آياته البينات باستعمال هذا اللفظ نفسه «البلاغ» ومشتقاته، أو بألفاظ تحمل مضمون إبلاغ هذا القرآن الكريم إلى العالمين. مثل قوله تعالى: ﴿.. ..وما على الرسول إلا البلاغ

المبين﴾ [النور: 54، العنكبوت: 18]، وقوله سبحانه: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 20].

ولقد نهض الرسول ﷺ بهذه المهمة، فبلغ الرسالة وأشهد على ذلك الله والناس أجمعين.

2ـ وإن البيان لهذا البلاغ القرآني هي المهمة الثانية من مهام الرسالة، وذلك بتفصيل مجمله، وتفسير إشاراته، والتخصيص لعامه، والتقييد لمطلقه، ووضع الضوابط المعينة على التمييز بين محكمه ومتشابهه، وأيضاً بتوقيت الشعائر والفرائض والمناسك، وبيان مقاديرها وشروطها وأركانها وأنصبتها ومصادرها ومصارفها وهيئاتها وغير ذلك.

ولقد أنجز الرسول ﷺ هذه المهمة وهي القيام بما فرضه الله عليه تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 44]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: 64].

3ـ وإن التجسيد العملي للرسالة الإلهية عقيدة كانت أو شريعة وقيماً وأخلاقاً، هو التجسيد العملي لها بالتجربة النبوية، والتطبيق النبوي لمعالم المنهج الإسلامي، وهو الذي وضع الفكر القرآني في الممارسة والتطبيق، وأحال المنهج الرباني بناءً حيوياً في الحياة، وبهذا فقد تخلقت من حوله إبداعات المسلمين المصطبغة بصبغته الربانية في شكل علوم وفنون ومعارف وأبنية مدنية، وتلك هي التي مثلت حضارة الإسلام.

فالإسلام لم ينحصر في الرسالة المحمدية عند حدود البلاغ القرآني، ولا البيان النبوي النظري لهذا البلاغ القرآني فحسب، وإنما كان عبر التجربة النبوية بناءً حيوياً تجسيدياً في الممارسة والسلوك والدولة والعلاقات وغيرها. فكان البالغ الذي جسدته السنة النبوية بالبيان النظري والتجسيد التطبيقي كياناً حياً يعيش به المسلمون، ولذلك كانت السنة النبوية بحكم كونها البيان العملي لهذا البلاغ القرآني سواء في الفكر أو التطبيق، تعتبر مصدراً للمعرفة اليقينية في كل ميادين ونواحي هذا البلاغ القرآني.

وحقاً أن إطار هذه السنة ـ وهي مبينة للبلاغ القرآني ـ يحتم أن يكون لها في هذا البلاغ معنى أو مبنى، وهي بذلك قد غدت وتعدو المصدر النبوي لبيان البلاغ الإلهي، سواء أكان بلاغاً هذا البيان النبوي أو اجتهاداً نبوياً أقره بلاغ القرآن الكريم نفسه.

وبهذا المعنى لعلاقة السنة النبوية بالقرآن الكريم وفي إطار موقفها من المنهج السمعي للقرآني، فإن المسلم يلتمس في هذه السنة ويتخذ منها مصدراً في جوانب شتى ونلخصها فيما يأتي:

1ـ قد تكون السنة النبوية مصدراً لمعرفة أسباب نزول البلاغ القرآني والوحي الإلهي على رسوله ﷺ، بما يمثله من علم لتفسير القرآن، ووعي بحكمة التشريع الرباني وعون على مسايرة هذا التشريع وملائمته للتطور مع تغير الزمان والمكان.

2ـ وقد تكون مصدراً لمعرفة التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحربي والأدبي وغير ذلك للتجربة الإسلامي في عصر صدر الإسلام، وهي التي

حولت البلاغ القرآني والبيان النبوي إلى كيان اجتماعي حي ومجتمع إنساني وبناء حضاري عائش.

3ـ وقد تكون مصدراً لأبنية وهياكل الدولة الإسلامية عبر القرون التي أقامها المسلمون لحماية الدعوة الإسلامية ونصرتها، ونشر الدين الإسلامي وتثبيته، وكما أنها تمثل نماذج للواجبات المدنية التي اقتضتها الفرائض الدينية، وبذلك قد اكتسبت صبغة الواجبات الإسلامية وأهميتها، حتى ولو لم يرد التشريع بفرضيتها صراحة في البلاغ القرآني.

4ـ وقد تكون مصدراً للتشريع النبوي والتراث القانوني في السنة النبوية الشريفة، سواء ما كان منه تفصيلاً لمجمل القرآن، أو ما كان منه اجتهاداً فيما لا وحي فيه. وإلى جانب ذلك فهي أيضاً تمثل المصدر للتمييز في هذا الاجتهاد النبوي، بين ما أقره الوحي بالنص الصريح عليه أو بالسكوت عنه وبين ما نزل الوحي مصوباً له أو معدلاً.

5ـ وقد تكون مصدراً للتمييز بين الدين الثابت الذي يجب فيه الاتباع للمنطوق والمفهوم من خلال الممارسات النبوية، وبين المتغيرات الدنيوية التي يجب فيها التزام المقاصد والأهداف دون التطبيق حرفياً، وكذلك للتمييز بين الدين الثابت وبين المتغيرات من الأعراف والعادات والتقاليد وغير ذلك.

بالإضافة إلى أنها هي المنهج الفاعل في أي جهد جاد من أجل التقدم والتجديد والتقويم لحياة الأمة، ومن هنا تصبح السنة النبوية الكاشفة عن معالم منهج النبوة مصدراً وفيراً للمعرفة المجددة للفكر الإسلامي ولواقع المسلمين جميعاً، وهذا عن المنهج البياني للسنة النبوية الذي يمثل مصدراً ثميناً للمعرفة في مواكب حياة الأمة الإسلامية.

ثانياً ـ كيفية تحقيق هذا المنهج للمعارف:

هناك كثير من النماذج الشاهدة لهذه المعارف من خلال البلاغ القرآني الذي يشير إلى القضايا المختلفة، وقام بتفصيله وتفسيره البيان النبوي، وهذا بعض من تلك النماذج:

1ـ قضية بدء الخلق التي يشير إليها القرآن الكريم، حيث جاءت إشاراته تتحدى الطواغيت وعبدة غير الله تعالى مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...﴾ [العنكبوت: 20]، وقوله سبحانه: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: 7]، وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس: 34، الأعراف: 54، النمل: 64، الروم: 11، 27، العنكبوت: 19].

وإذا كانت هذه الإشارات القرآنية إلى بدء الخلق هي اليقين الكاشف للمعرفة الإنسانية عن هذا الأمر الذي لم يشهده سوى الخالق سبحانه وتعالى، فإن السنة النبوية قد مثلت مصدر المعرفة الذي كشف لنا طرفاً من الحديث والعلم عن صورة الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم. فهذا حديث عمران بن حصين، قال الرسول ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض»[1]، ومن حديث عمر بن الخطاب قال: «قام فينا النبي ﷺ

(1) روى عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين، أخرجه البخاري في صحيحه، جزء 4، 222 (كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في قول الله تعالى وهو الذي يبدأ الخلق. .)، وينظر: فتح الباري صحيح البخاري، ابن حجر، جزء: 1، 85.

مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه»[1].

فمن هذا المصدر النبوي وتبعاً للمصدر القرآني قد عرفنا ونعرف طرفاً من خبر بدء الخلق الذي كشف عن تصور الجلال الذي اختص به خلق الإنسان، حتى لقد أمر ملائكته بالسجود له، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 34، الإسراء: 61، الكهف: 50، طه: 116].

2ـ قضية أطوار خلق الإنسان وخاتمته، حيث أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: 12-14].

ولما كانت هذه الإشارات لإخبار الناس وإعلامهم عن أطوار خلقهم، وهي الأمور اليقينية التي كشف القرآن عنها للمعرفة الإنسانية، فهناك أيضاً إخبار وإيضاح من السنة النبوية عن هذه الأطوار حتى تكون أكثر وضوحاً وتأكيداً على صحة هذه المعرفة. فهذا حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب

(1) رواه عيسى عن رقبة عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب، أخرجه البخاري في صحيحه، جزء: 4، 222 (كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في قول الله تعالى وهو الذي يبدأ الخلق.. .)، ويُنظر: فتح الباري. ، ابن حجر، جزء 1، 85.

رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فو الله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، ليعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[1].

فمن خلال هذا الإخبار النبوي وإعلامه عن أطوار الخلق الإنساني مؤكداً للإخبار القرآني الذي كشف الله عنها، «قد زود المعرفة الإنسانية بحقيقة مفادها أن الجنين يتقلب خلال مائة وعشرين يوماً داخل بطن أمه في ثلاثة أطوار ثم ينفخ فيه الملك الروح في الطور الرابع منها، وزاد عليها الإخبار القرآني ثلاثة أطوار أخرى حتى أصبحت سبعاً»[2]، من بدايتها إلى أن يلقى الإنسان ربه سبحانه وتعالى، ولا شك أنه كسب كبير للمعرفة الإنسانية.

3ـ قضية الإخبار عن الأمم السابقة والحضارات البائدة حيث جاءت الإشارات في القرآن عن هذه الأمم من أمثال؛ ذي القرنين، وعاد، وثمود، وأهل مدين، وقرى ومواطن، وأخبار الأنبياء والرسل السابقين وغيرها، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف: 83-84]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: 48]، وغيرها من الآيات البينات.

(1) متفق عليه، روى عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود، أخرجه البخاري في صحيحه، جزء 4، 230 (كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة. .)، ومسلم في صحيحه بشرح النووي، جزء 16، 190 (كتاب القدر (1) باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه. .)، وأبو داود في سننه، رقم (4708) والترمذي في سننه، رقم (2138).

(2) الوافي في شرح الأربعين النووية، د. مصطفى البغا ومحيي الدين سسو، ص25.

وإذا كانت هذه الإشارات التاريخية هي الأمور المتيقنة من ذلك التاريخ، فإننا قد وجدنا في السنة النبوية طرفاً من المعارف، فيها بعض التفصيل لما في البلاغ القرآني من إشارات لذلك التاريخ. وهذا مثل في قصة أيوب عليه السلام التي فصلتها السنة النبوية، عن أبي هريرة رضي الله عن النبي ﷺ قال: «بينا أيوب يغتسل عرياناً فخر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك ولكن لا غنى بي عن بركتك»[1].

4ـ قضية واقع الجاهلية التي أخرج الإسلام أهلها من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام، مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد: 9]، وقوله سبحانه: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 257]. فإن الواقع يمثل جماعة بشرية غلبت عليها الأمية، وكانت فقيرة في أدوات التدوين لتاريخ مجتمعاتها من حيث؛ عاداتها وتقاليدها وأعرافها، وفي أديانها وأوثانها ومناسكها، وفي أحيائها القبلية وعلاقات قبائلها بمن جاورهم من الدول والشعوب، وفي مكانة المرأة بها، وأنواع الزواج وعلاقات الرجال بالنساء في الحلال والحرام، وفي أنماط الإنتاج وعلاقاتها بمصادر الرزق وغيرها.

فلا شك أن هذا الواقع الجاهلي لا سبيل إلى فهم عمق التطور الإسلامي

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة وأخرجه في صحيحه، جزء 1، 129-130 (كتاب الغسل: باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة..)، والنسائي في سننه، جزء: 1، 165، وأحمد في مسدنة، جزء 2، 314.

وجذور الإنجاز الإسلامي إلا بتصوره، وذلك باعتباره ميدان هذا الإنجاز وسبباً في مجيء البناء الحضاري الإسلامي على هذا النحو الذي جاء عليه، والحق أن هذا الواقع لن نجد مصدراً من مصادر المعرفة والتعريف له أغنى وأكثر من سنة الرسول ﷺ.

وكما أن البيان النبوي وتجسيده للبلاغ القرآني في هذه القضية قد جعل الرسالة المحمدية ـ أمة ودولة ومجتمعاً ونظاماً وحضارة ـ تهتدي بالمنهج الرباني ونصطبغ بصبغة الله تعالى، حيث أنها التاريخ الأدق لمجتمع مصدر الإسلام، فيها وصف واقعه، ونصوص دستوره وقانونه، وعاداته وأعرافه، وفيها صور نشاط إنسانه في كثير من ميادين الحياة، الخاصة منها والعامة، وفيها أوسع وصف لدولة الإسلام الأولى عن رعيتها وحدودها، وطرائق العيش وسبل التكسب فيها، وغزواتها وفنون قتالها وفتوحاتها، وما حدث فيها من انتصارات وانتكاسات[1]، فهي أوثق وأغنى مصادر المعرفة للقارئين والباحثين جميعاً.

5ـ قضية استخلاف الإنسان في هذا العالم، حيث أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الإنسان خليفة في استعمار هذا العلم الذي يعيش فيه، وعلى امتداد الآفاق التي يبلغه سلطانه. فإن البلاغ القرآني قد حث الإنسان على النهوض بمهام الإعمار هذه، حيث أنها قد جاءت آياته دائماً قارنة الإيمان العامل بالعمل المؤمن، مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ

(1) السيرة النبوية، لابن هشام، جزء: 3 و4، وفقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي، ص233-247، ومحاولة لبناء منهج إسلامي متكامل، أنور الجندي، جزء: 2، ص13 وما بعدها.

وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللـهِ وَاذْكُرُوا اللـهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: 9-10]، وقوله سبحانه: ﴿وقل اعملوا فسيرى اللـه عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ [التوبة: 105].

وإذا كان هذا الاستخلاف هو ما أراده اللـه، وهذا هو حديث البلاغ القرآني عن عمارة العالم الإسلامي بالإيمان والعمل المؤمن، فإن البيان النبوي أو السنة النبوية زاخرة بالمعارف التي تمثل الزاد الذي لا يعد ولا يحصى في هذا المجال، فلا شك أن أحاديث العمل والمأثورات التي حث على إحياء الأرض وعمارتها كانت متوفرة ومتنوعة، حيث لا حاجة لذكرها جميعاً في هذا المقام.

وعلى كل فإن تجربة البناء الاجتماعي والاقتصادي لدولة الإسلام الأولى هي التجسيد التطبيقي أو العملي لهذا البيان النبوي في هذا المجال. ففي حديث أبي هريرة ﷺ، يقول الرسول ﷺ: «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح»[1] بل إن تعظيم العمل الإنسان في السنة النبوية يبلغ المقام الرفيع، حتى يتحدث عنه الرسول ﷺ في حديثه الذي يرويه أنس بن مالك: «إذا قامت الساعة، وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل»[2]. تلك إشارة إلى زخائر المعارف التي قدمتها لنا السنة النبوية، مصدراً للمعرفة في هذا المجال.

6ـ قضية البعث والحساب والجزاء في اليوم الآخر، حيث إن العقيدة الإسلامية تجعلها ركناً من أركان الإيمان، وقد أشار البلاغ القرآني إشارات عديدة

(1) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ وأخرجه في مسنده، جزء: 3، 136، وينظر: الجامع الصغير. ، للإمام السيوطي، جزء 1، 296، وصحيح التغريب والترهيب، للمنذري، ص330.

(2) روي عن أنس بن مالك ﷺ، أخرده الإمام أحمد في المسند، جزء 3، 127، وينظر: الجامع الصغير. ، للإمام السيوطي، جزء 1، 266.

إلى البعث بمثابة الحجة على منكريه، مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: 29-30] وقوله سبحانه: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: 7]، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 77].

وإذا كانت الإشارات إلى حديث البلاغ القرآني عن قضية البحث وخبره، فإن معارف السنة النبوية عن أنباء البعث وصوره وأحوال الناس فيه، هي أيضاً المصدر المعرفي الذي يجد فيه المسلم ما يقرب صورة هذا الخبر الغيبي إلى العقل المحدود لمخلوق عالم الشهادة، تتوجه إليه هذه الرسالة الإلهية بالبلاغ والبيان كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: 28].

وتأكيداً على هذا فهناك مثلاً في حديث أبي ذر الغفاري حيث يقول الرسول ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم؛ المسبل[1]، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب.. ..»[2]. وكما وجدنا أيضاً الخبر عن الجزاء والشفاعة يوم القيامة في حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل

(1) المسبل؛ يضم الميم وسكون السين وكسر الباء: المرخى إزاره، الجار طرفه كبرا وخيلاء، كما شرحه الإمام النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، جزء: 2، 114.

(2) رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري، وأخرجه في صحيحه بشرح النووي، جزء 2، 114 (كتاب الإيمان، (46) باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية. .)، وينظر: دليل الراغبين. .، د. فاروق حمادة، ص432 و766، وكيف نتعامل مع السنة. .، د. يوسف القرضاوي، ص105 و106.

الجنة الجنة، وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد أسودوا، فليقون في نهر الحيا أو الحياة (شك مالك أحد رجال السند) فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية؟...»[1].

وهذا بالإضافة إلى ما ضمت كنوز السنة النبوية من صور تقرب للذهن الإنساني قدر الإمكان: أحوال النفخ في الصور، وأحداث ما بين النفختين، وصورة الحشر ومكانه، وصورة الناس فيه، والحساب والميزان، ومن يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، وغير ذلك من الأنباء والأخبار والمعارف المقربة والميسرة والمفسرة لإشارات البلاغ القرآني لهذا الخلق الذي يستحيل على العقل البشري إدراك كنه حقائقه ومضامينه.

كانت هذه بعض الأمثلة من النماذج التي تشهد على أن المنهج البياني للسنة النبوية قد تمكن من تحقيق المعارف الإسلامية، وعلى صدق وفائها بهذه المهمة في الفكر الإسلامي وفي حضارة المسلمين.

وخلاصة القول إن تحقيق الإنسان المسلم للمعارف العديدة من المصادر والميادين المختلفة بواسطة السنة النبوية، قد يفتح للعقل الإنساني الجديد والعديد من الآفاق، وذلك دون أن يحد من قدرات وإمكانات وآفاق هذا العقل أو يقيد من طموحاته.

وإن هذا المنهج الإسلامي الذي يجعل البلاغ القرآني وبيانه النبوي مصدرا

(1) روي عن أبي سعيد الخذري، أخرجه البخاري في صحيحه جزء: 1، 20 (كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان. .، وينظر: اللؤلؤ والمرجان. .، جزء: 1، 47، والأحاديث القدسية، دار الكتب العلمية، جزء 2، 392.

للمعرفة اليقينية في ميادين متعددة، قد يكون في بعضها مجرد دافع للعقل على النظر وحافظ له من تجاوز الحدود، وقد يكون في بعضها المعين المؤازر، ويكون في أخرى المصدر الوحيد لمعرفة مالا مجال للعقل فيه. وبهذا المنهج رأينا السنة النبوية مصدراً للمعرفة التي تقوم ـ بجانب البلاغ القرآني ـ بإثراء معارف الإنسان المسلم، وإغناء النظام الفكري لحضارة الإسلام.

الخاتمة

وختاماً لا شك أن القارئ لهذا البحث يكتشف كيف أن السنة النبوية الشريفة ـ بعد القرآن الكريم ـ قد أثرت تأثيراً قوياً على مسار الفكر الإسلامي، وتوجيه الحضارة الإسلامية في مختلف نواحيها وتجلياتها تلك الوجهة التي سارت عليها منذ انطلاقتها الأولى وعبر القرون الأولى إلى يومنا هذا.

وكل العلوم الشرعية التي أبدعها المسلمون ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسنة النبوية الشريفة وعليها تتأسس، فالمفسر لكتاب الله العزيز لا بد أن يرجع إليها لفهم كلامه سبحانه، كما يرجع إليها الفقيه والأصولي لاستنباط الحكم الشرعي المناسب، والداعية المربي لا غنى له بالاقتباس من سنة وسيرة الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آيات ربهم، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

وبهذا وغيره يتأكد جلياً بأن السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم؛ المصدر الذي كان له تأثيره الواضح على مختلف علوم المسلمين وإبداعاتهم في المجال التشريعي وفي المجال السياسي وفي مجال التربية والتعليم، وفي غيرها من المجالات الأخرى، الذي حاول هذا البحث المتواضع تتبعها واستنباط نواحي التأثير فيها.

ولقد عرف الصحابة ﷺ قدر رسول الله ﷺ وعلموا أنه لا ينطق عن هوى وإنما هو وحي يوحى، ولم يجربوا عليه كذباً ولا علموا عنه رذيلة قبل بعثته ﷺ. علم الصحابة كل ذلك فتسارعوا إلى أقواله يحفظونها، وإلى أفعاله وسيرته يقتبسون منها القدوة والمثال، وإلى تقريراته يميزون بها الحق من الباطل.

فعلوا هذا لأنهم علموا أن الإيمان الحق لا يمكن أن يتحقق في نفوسهم إلا بالخضوع لأوامر النبوة، وخصوصاً في حياتهم كلها، ثم لا يجدون في هذا الخضوع أدنى حرج أو ضيق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:65].

وجعل الله طاعة رسوله الكريم مقرونة بطاعته سبحانه فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: 59].

بهذه الآيات وغيرها كان القرآن الكريم يحدد للصحابة ﷺ ومن جاء بعدهم من المؤمنين الصادقين كيف يقدرون السنة النبوية الشريفة، وكيف يتعاملون مع نصوصها الخالدة.

وهذا التقدير لسنة المصطفى هو الذي حفظ لنا نصوص هذه السنة إلى اليوم، ولم تنل سير الأنبياء والرسل ولا سير الحكماء والحكام الذين كانوا قبل الإسلام مثل هذه العناية ولا أقرب من ذلك، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: 9].

ولا شك أن حفظ القرآن لا يتحقق كاملاً إلا بحفظ السنة النبوية الشريفة

لأن السنة هي المبينة للكتاب، الموضحة لمراد كلام الله: تفصل ما أجمله، وتقيد ما أطلقه، وتخصص ما عمه. ولا يمكن لعاقل أن يفهم الإسلام وحضارته والفكر المنبثق عنهما إلا إذا فهم السنة وفهم ذلك التأثير العميق الذي كان لها على مختلف نواحي الحياة الفكرية للمسلمين.

لهذا فإن هذا البحث ـ كما سيتبين لقارئه ـ قد حاول ملامسة هذا التفاعل الذي حدث بين حياة المسلمين وواقعهم مع نصوص السنة طيلة القرون الثلاثة الأولى للحضارة الإسلامية.

كما بينت مدى اهتمام السنة النبوية الشريفة بالعمل والتشجيع على بذل الجهد لتحقيق العمل المتقن. لأن العمل في الإسلام يسمو إلى مستوى العبادة إذا كان صاحبه مؤمناً وغرضه شريفا.

وخلاصة القول أن السنة النبوية الغراء قد أكدت اهتمامها وعنايتها البالغة بوضع معالم الأخلاق الإسلامية الفاضلة ومكارمها، وأن هذه العناية والاهتمام قد تجلت خلال شخصية الرسول ﷺ نفسه وبرسالته الخالدة، وبأدبه الإلهي، وبأخلاقه القرآنية المجسمة في سننه العملية وسيرته التطبيقية. وأن أول ما اهتمت به السنة هي الدعوة إلى تحصيل العلوم والمعارف، امتثالاً لما بدأه الله تعالى في القرآن الكريم في توجيه الإنسان وعقله إلى التعلم والقراءة والتطلع إليها.

وخلاصة القول أن دور السنة النبوية واضح في مجال الفكر الإسلامي وتطوراته، وكان أبرز الأثر فيه هو تحرير الفكر الإنساني وإطلاق العقل من قيوده، ورسم الخطوط العامة للفكر الإسلامي في حركته وفتح الطريق أمام الاجتهاد والتفسير والاستنباط. ثم طرأ التطور والانفتاح على الثقافات الإنسانية والعالمية

وبدأت حركة الترجمة وتوسعت آفاق الفكر الإسلامي وأصبحت حركة ضخمة، فظهرت مدارس عديدة مثل؛ مدارس الفقه، والعقائد، وتحقيق السنة، فاللغة والأدب، والكتابة التاريخية وغيرها.

كما بينت كيف أن الحرص على سلامة وصحة النص الحديثي قد دفع بعلماء الحديث إلى ابتكار علوم جديدة لم تكن معروفة من قبل علماء الأديان والحضارات السابقة، حيث أبدع علماء الحديث علوماً كثيرة لحفظ سند الحديث ومتنه، منها علوم الجرح والتعديل، وعلوم مصطلح الحديث. وكل هذه العلوم غرضها الحفاظ على النص الحديثي رواية ودراية.

وهذه العلوم أكدت كلها صدق نبوءة المصطفى الكريم محمد ﷺ الواردة في الحديث النبوي الشريف: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[1].

والخلاصة أن جهود العلماء المسلمين في الحرص على حفظ السنة النبوية قد أدت إلى ابتكار مناهج علمية جديدة في علوم متعددة، فتمكنوا بذلك من حفظها من الضياع والتثبت من مأثوراتها وصيانتها من الوضع والتدليس والاندثار.

وإجمالاً يمكن القول أن هذا البحث المتواضع محاولة مني لتتبع مختلف النواحي والعملية في الحضارة الإسلامية التي كان للسنة النبوية الشريفة أثر بارز في توجيهها وإرشادها خاصة في القرون الثلاثة الأولى.

والمعجز حقاً أن هذه السنة النبوية الشريفة قد صدرت من نبي أمي عاش في

(1) قد تم بيان هذا الحديث في مقدمة البحث.

أعماق صحراء جرداء بعيدة عن مركز الحضارات والعلوم والصناعات، التي كانت معروفة حينذاك. ولم يكن القوم الذين احتك بهم هذا النبي الأمي أصحاب علوم أو صنائع إلا من كان منهم يقول الشعر في المناسبات أو يرحل للتجارة في رحلات الشتاء والصيف.

ولما أوحي إلى هذا النبي الأمي وسط الصحراء الجرداء وبين أولئك القوم الذين أحاطت بهم ظلمات الجاهلية من كل حدب وصوب، تفجرت ينابيع الحكمة التي أسالت أودية من العلوم والحكم شملت الفكر والسياسة والقيم، فأحيا الله عقولاً كانت هامدة، وأنقذ أرواحاً كانت تائهة، ووحد أمة كانت مشتتة، وحرر نفوساً كانت مستبعدة. وصدق الله العظيم حين قال في كتابه العزيز: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: 15-16].

فقد كانت الجزيرة العربية ومن حولها البشرية كلها برمالها وإنسانها ميتة، ولما أوحى الله لنبيه الكريم أول كلمات الوحي: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق: 1] دبت الحركة والحياة، وبزغ نور جديد انطلق من الجزيرة العربية ليعم باقي لأرجاء العالم.

وقد حاولت في هذا البحث أن أتتبع آثار هذا النور المتمثل في السنة النبوية الشريفة على مختلف نواحي الفكر الإسلامي، وسألت الله أن ينير لي طريقي، ويسدد خطواتي حتى يتحقق هدفي ومقصدي.

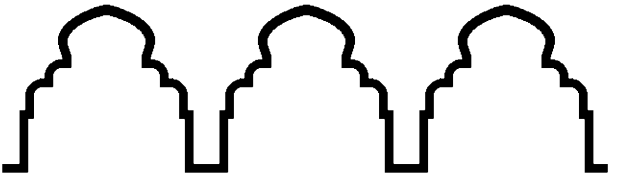

الفصل السادس

السيرة النبوية

في كتابات المستشرق الهولندي

آرند جان فنسنك

(1882-1939م)[1]

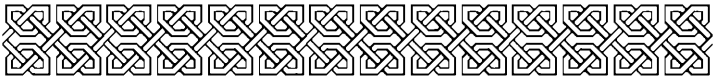

(1) ورقة مقدمة من الدكتور محمد مختار المفتي، جامعة آل البيت ـ الأردن، لندوة «السيرة النبوية في الكتابات الهولندية»، 26-28 إبريل 2011م، تنظمها كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس ـ المغرب.

لمحة عن مدرسة الاستشراق الهولندي

اعتنى المستشرقون **الهولنديون باللغة العربية** ومعاجمها كما اعتنوا بتحقيق النصوص العربية، ومما يميز الاستشراق الهولندي وجود مؤسسة برل التي تولت طباعة الموسوعة الإسلامية ونشرها في طبعتيها الأولى والثانية، كما تقوم هذه المؤسسة بطباعة كثير من الكتب حول الإسلام والمسلمين. واتصل الهولنديون بالشرق واهتموا بتراثه، فقد عرفوا العربية قبل معرفة الالمان لها، أما أسباب ذلك فعديدة، منها الخلاف الديني الذي وقع بخروج لوثر عن الكاثوليكية، ومنها تأسيس جمهورية الولايات الهولندية المتحدة، ومنها اتصال الهولنديين بعرب مراكش والجزائر وطرابلس الغرب ومسلمي الهند الشرقية اتصالاً سياسياً وتجارياً، ومنها إقبال العالم الغربي على العلوم الشرقية، وكان الهولنديون في مقدمة باحثيه تعمقاً واتقاناً، حتى إن كثيراً من المستشرقين استعانوا بمؤلفات الهولنديين وترجماتهم، وأصبحت مطبعة (ليدن) الهولندية التي أنشأها (توماس اربانيوس 1584 – 1624) بماله الخاص تؤدي دورها المتميز في الطباعة والنشر، ولا تزال موئل العربية ومرجع المستشرقين قاطبة، يؤثرون مطبوعاتها على منشورات مطابعهم، ومن أشهر ما ظهر فيها الموسوعة الإسلامية باللغات الثلاث: الفرنسية والإنجليزية والألمانية، كما ظهرت في هولندا كتب كثيرة للقواعد العربية والمعاجم العربية. كما حقق فيها الكثير من المخطوطات، وتضم مكتبة (جامعة ليدن)

مخطوطات نفيسة كثيرة قضى العلماء الهولنديون قروناً متواصلة في جمعها وتحقيقها. أما وضع الاستشراق الهولندي قبيل وبعد الحرب العالمية الثانية فقد تغير الى حد ما بفعل الظروف الدولية حيث انحسر دور هولندا السياسي قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، فأثر ذلك الانحسار على الوضع الاستشراقي فيها، فلم يعد هناك ما ينشر عن المنطقة العربية أو التراث العربي إلا قليلاً، ولكن بعض البحوث التي تختص بمناطق النفوذ الهولندي في جنوب آسيا لا زالت تظهر الى الآن، وتتعلق بمناطق جاوة وسومطرة وأقطار جنوب شرق آسيا[1].

ومن أبرز المستشرقين الهولنديين **سنوك هورخرونيه** الذي ادعى الإسلام وتسمى باسم الحاج عبد الغفار، وذهب إلى مكة المكرمة ومكث ستة أشهر حتى طردته السلطات من هناك، فرحل إلى إندونيسيا ليعمل مع السلطات الهولندية المحتلة لتدعيم الاحتلال في ذلك البلد الإسلامي، ومن أعلام الاستشراق الهولندي أيضا دي خويه (ت 1909م) وفنسنك صاحب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، وله كتاب في العقيدة الإسلامية، وكذلك المستشرق منسنك والمستشرق دوزي.

وذكر الدكتور السامرائي أن الاستشراق الهولندي شهد في السنوات الماضية ظهور تيار من المستشرقين الشباب الذين يميلون إلى النظرة الموضوعية إلى الإسلام وقضاياه وهذا مما أثار حنق وغضب المستشرقين الأكبر سناً، ولهولندا مركز للبحوث والدراسات العربية والإسلامية في مصر. وقد تولّت جامعة ليدن تنظيم مؤتمر عالمي حول الإسلام في القرن الواحد والعشرين في الفترة من 3-7 يونيو

(1) أنظر:حقيقة الاستشراق وموقفه من الإسلام، محمد بهاء الدين، ص40.

1996 بالتعاون مع وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية، وحضر المؤتمر مئة وعشرون باحثاً من أنحاء العالم. والاستشراق الهولندي لا يختلف عن الاستشراق الأوروبي في أنه انطلق مدفوعاً بالروح التنصيرية، وأن هولندا كانت تدور في الفلك البابوي الكاثوليكي[1].

نماذج من رجال الغرب ومنهج تناولهم للشرق الاسلامي:

طيلة قرون وحتى فترة متأخرة من القرن العشرين لم تتعرف الشعوب الغربية على الشرق الإسلامي من خلال مصادره الخاصة وتراثه المباشر، إنّما عرفوه من خلال رجال متخصّصين، وعلى رأسهم المستشرقون الذين جالوا بلدان الشرق الاسلامي، وسجّلوا مشاهداتهم الحسيّة من الواقع، ونقلوا إلى جامعاتهم ومعاهدهم الالاف من الكتب والمصادر والوثائق وأخضعوها للدرس والتحليل. وعلى أساس من خلفيّاتهم الغربية ومنطقهم العلماني وشعورهم الاستعدائي لكل ما ينتمي للإسلام فكراً ومجتمعاً، واستهدافهم المتناغم مع التطلعات الاستعمارية لدول الغرب، صوّروا الإسلام ومجتمعه للغربيين، بل وطرحوه لأمم العالم وشعوبه بثوب جديد نسجته عقولهم على ضوء نظريتهم وخلفياتهم تلك، فخرج مشوّهاً في حقيقته، مزيّناً بأثواب التحديث وبريق التقدم الزائف، حتى أصبحت كتبهم ومؤلّفاتهم عن الشرق الإسلامي هي المصادر الأساسية ومراجع التعريف والدراسة الوحيدة تقريباً للشرق الإسلامي في جميع معاهد وجامعات الغرب، بل وأغلب الجامعات التي أنشئت على المنهج الغربي في أنحاء العالم.

(1) انظر: قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض: 1403هـ ص103.

إنّ انتقاءنا لنماذج من كبار رجال الاستشراق الهولندي سيكون منسجماً مع هدفنا في تشخيص وتقويم منهج دراسة الغربيين للشرق الإسلامي وتعريفه، كما إن الأساس الذي اعتمدناه في هذا الانتقاء هو الدور الخطير فكرياً وميدانياً لهؤلاء الرجال، والذي سيكشف لنا عن الأثر السلبي الكبير الذي تركوه على الذهنيّة الغربية في فهم الاسلام ومجتمعاته من جهة، وعن التخريب الفكري والاجتماعي الذي أحدثوه في المجتمعات الاسلامية عن طريق صياغة ايديولوجيات وبرامج تغيير لحرف توجهات هذه المجتمعات عن مسارها الاسلامي ومحق هويتها الدينيّة من جهة أُخرى، وبذلك استغنى الاستعمار الغربي عن الاسلوب العسكري المباشر في السيطرة على الشرق الاسلامي، واكتفى بالاستعمار الفكري والمنهجي المتمثل بجملة من المبادئ والاطروحات الحديثة التي أُلبست ثوب القوميّة أو الوطنيّة تارة، وثوب التمدّن والتحديث تارة أُخرى، وثوب الدفاع عن حق الشعوب وحريتها الفكرية تارة ثالثة.

أبرز أعلام مدرسة هولندا الاستشراقية:

1ـ رينهارت دوزي Rienhart Dozy (1820-1883):

ولد في 21 فبراير 1820م في مدينة ليدن، بدأ دراسة العربية في المرحلة الثانوية وواصل هذه الدراسة في الجامعة، حصل على الدكتوراه عن بحثه (أخبار بني عبّاد عن الكتاب العرب) اهتم بالمخطوطات العربية وبخاصة كتاب الذخيرة لابن بسام وغيره من الكتب، اهتم بتاريخ المسلمين في الأندلس وأبرز كتبه تاريخ المسلمين في اسبانيا المكون من عدة مجلدات.

2ـ مايكال ده خويه Michael Jan De Goje (1836-1909م):

ولد في 9 أغسطس 1836م، تخصص في جامعة ليدن بالدراسات الشرقية ومن أساتذته المستشرق دوزي وكانت رسالته للدكتوراه بعنوان (نموذج من الكتابات الشرقية في وصف المغرب مأخوذ من كتاب البلدان لليعقوبي، عمل في التدريس بجامعة ليدن، وكان أبرز اهتماماته الجغرافيا وكذلك التاريخ الإسلامي، ومن إنتاجه تحقيق كتاب فتوح البلدان للبلاذري، كما شارك وأشرف على تحقيق تاريخ الطبري، وهو غزير الإنتاج.

3ـ سنوك هورخرونيه Christiaan Snouk Hurgronje (1857م-1936م):

ولد في 8 فبراير 1857م، درس اللاهوت ثم بدأ دراسة العربية والإسلام على يد المستشرق دي خويه، ودرس كذلك على يد مستشرقين آخرين منهم المستشرق الألماني نولدكه، كانت رسالته للدكتوراه حول الحج إلى مكة المكرمة عام 1880م. عمل مدرساً في معهد تكوين الموظفين في الهند الشرقية (إندونيسيا)، أعلن إسلامه وتسمى باسم عبد الغفار وسافر إلى مكة المكرمة وأمضى فيها ستة أشهر ونصف، تعرف خلال هذه الفترة على عدد من الشخصيات في مكة وبخاصة الذين تعود أصولهم إلى الجزر الإندونيسية، جمع مادة كتابه عن مكة المكرمة. انتقل إلى العمل في إندونيسيا لخدمة الاستعمار الهولندي حيث عمل مستشاراً لإدارة المستعمرات في عام 1891م، يعد سنوك نموذجاً للمستشرق الذي خدم الاستعمار خدمات كبيرة وسخّر علمه لهذا الغرض[1].

(1) انظر: بتوسع في كتاب قاسم السامرائي. الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الصفحات 110-140.

4- أرنت ڤنسنك Arnet Jan Wensink (1882م-1939م).

تتلمذ على يد المستشرق هوتسمان ودي خويه وسنوك هورخرونيه وسخاو. حصل على الدكتوراه في بحثه (محمد واليهود في المدينة) عام 1908م. بدأ في عمل معجم مفهرس لألفاظ الحديث الشريف مستعيناً بعدد كبير من الباحثين وتمويل من أكاديمية العلوم في أمستردام ومؤسسات هولندية وأوروبية أخرى، وأصدر كتاباً في فهرسة الحديث ترجمه فؤاد عبد الباقي بعنوان (مفتاح كنوز السنة) أشرف على طباعة كتابات سنوك هورخرونيه في ستة مجلدات، له مؤلفات عديدة منها كتاب في العقيدة الإسلامية نشأتها وتطورها التاريخي.

5ـ جاك واردنبرگ Jacque Waardenburg:

ولد في 15 مارس 1930م، درس القانون بجامعة أمستردام ودرس أيضاً علم اللاهوت بالجامعة نفسها. درس العربية في الفترة من 1953م إلى 1956م بجامعة أمستردام وفي ليدن وفي مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، حصل على منحة من اليونسكو لزيارة بعض الدول العربية والإسلامية فزار إيران ولبنان ومصر والأردن كانت رسالته للدكتوراه بعنوان (الإسلام في مرآة الغرب) من جامعة أمستردام، عمل في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة كندا في الفترة من 1962م- 1963م، قام بزيارات علمية لإجراء بحوث حول الجامعات في العالم العربي في كل من تونس ولبنان وسوريا والعراق والأردن، عمل باحثاً زائراً في جامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجلوس وعمل في مجال التدريس في جامعة أوترخت بهولندا (1968م-1987م) ثم انتقل إلى جامعة لوزان بسويسرا وبقي فيها حتى تقاعد عام 1995م.

لـه إنتـاج غزيـر في مجـال الدراسـات الإسـلامية منهـا (الإسـلام في مـرآة الغـرب) و(واقـع الجامعات العربية ـ مجلدان) والطرق الكلاسيكية لدراسة الدين، شارك في الكتابة في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) وقد كتب مادة (مستشرقون)[1].

لمحة موجزة عن المستشرق الهولندي أرنـدجان فنسـنك Arndjan Wensink (1882م-1939م):

هو مستشرق هولندي، مـن أسرة يهوديـة، أتقـن اللغـات السـامية، وتخصـص في أديـان الشرق فذاع صيته فيها، وانتدب أستاذا للعربية في جامعة ليدن مـن سـنة 1927م الى مماتـه[2]. قام برحلات الى مصر وسوريا وغيرها من بلاد العرب واعتنى بالحديث والسنّة وسعى إلى وضـع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف مـن الكتـب السـتة، وانضـم إليـه لفيـف مـن المستشرقين العالميين، كما أعانته أكاديمية العلوم في أمستردام، ومؤسسات هولندية أخرى وعـدد من أكاديميات دول أوروبيـة. وتـولّى الإشراف عـلى تحريـر معظـم موضـوعات «دائـرة المعـارف الإسلامية» سنة 1925م بلغاتها الثلاث، فأتمّ منها أربعة مجلّدات وخمس ملازم، وكتـب مقـالات كثيرة في مجالات مختلفة، وله كتب بالإنجليزية والفرنسية عن الإسلام والمسلمين. رُشّـح فنسـنك لعضوية مجمع اللغة العربية في مصر، ولشـدّة تعصّـبه ضـدّ الإسـلام تعـرّض لهجـوم مـن قبـل الدكتور حسين الهواري مؤلّف كتاب

(1) هذه الترجمة مختصرة من ترجمة موسعه بقلم واردنبرج نفسه كتبها في مقدمة كتابه: الإسلام في مرآة الغرب.

(2) وقد قام بعض زملائه بجمع دراساته السامية ونشرها تحت عنوان دراسات سامية في مخلفات الأستاذ فنسنك. انظـر موسوعة المستشرقين، عبدالرحمن بدوي، ص289.

«المستشرقون والإسلام» الذي صدر سنة 1936م مما أحدث أزمة معه كانت نتيجتها أن رفضت عضوية فنسنك في المجمع، وكان السبب في هذا الهجوم قيامه بنشر آرائه في القرآن والرسول، مدّعياً أنّ الرسول ألّف القرآن تلخيصاً للكتب الدينيّة والفلسفيّة التي سبقته.

ولهذا عُرف بأنّه عدو لدود للإسلام ونبيّه ﷺ، ومتعصّب بكتاباته كما في كتابه «عقيدة الإسلام» الذي صدر سنة 1932م[1].

عرف فنسنك بنشاطه الجم في مجال التأليف الذي يخدم المآرب الاستشراقية، وله كتب وأبحاث كلها تصب في هذا المجال، نذكر منها:

1- محمد واليهود (1911م).

2- الإسرائيليات في الإسلام (1913م).

3- قيمة الحديث في الدراسات الإسلامية (1921م).

4- مفتاح كنوز السنة مرتبا على الحروف الأبجدية (ليدن 1927م).

5- العقيدة الإسلامية: نشأتها وتطورها التاريخي ـ بالإنجليزية ـ (كمبريدج 1932م).

6- الأثر **اليهودي** في أصل الشعائر الإسلامية (1954م).

7- فكر الغزالي ـ بالفرنسية ـ (باريس 1940).

8- دراسات سامية ـ (ليدن 1938م).

(1) انظر: مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون، ص35، فؤاد كاظم المقدادي، الإسلام وشبهات المستشرقين ص101.

9- موقف الرسول من يهود المدينة ـ باللغة الهولندية، وهو عنوان أطروحته للدكتوراه[1].

وقد قام بعض زملائه بجمع دراساته ونشرها تحت عنوان: دراسات سامية في مخلفات الأستاذ فنسنك.

فنسنك المشرف على موسوعة دائرة المعارف الاسلامية:

لقد كُتبت دائرة المعارف الإسلامية ـ وهي أوسع انتاج موسوعي استشراقي ـ من قبل مجموعة كبيرة من المستشرقين من جنسيات أوربية مختلفة. وكان المشرف على معظم موادها هو المستشرق «فنسنك» أو «ونسنك» المعروف بأنهُ من أكبر المتعصّبين ضد الاسلام، والذي يدّعي أن الرسول ﷺ ألّف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته، وقد نشرت هذه الدائرة باللغة العربية مرتين، الاولى عام 1932م الى حد الحرف (ع) والمرة الثانية في السبعينات دون أي تغيير في موادها. وهنا أشير إلى أن الكثير من الباحثين المنصفين والمحققين المتخصصين قد تصدّى لدراسة دائرة المعارف الاسلامية، وأشاروا الى أنها تحوي مجموعة من الاخطاء والدسائس الناشئة عن التعصّب الأوربي، وأن أغلب كتّابها قساوسة مبشرون لا يهمهم سوى الافتراء على الاسلام وتشويه حقيقتهِ. وقد اجمعت آراؤهم على أن دائرة المعارف الاسلامية تضم مجموعة من المحاذير التي يجب التنبه لها والتصدي للرد عليها وكشف اهدافها وهي:

1ـ سيطرة البدع الدخيلة في الدين الاسلامي على مواد الموسوعة باستفاضة

(1) انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2 ص319 ط دار المعارف.

مثيرة، وباستخدام اساليب الكذب المتقنة، حتى ليظن الباحث انها من اصول الاسلام، وقد امعن مؤلفو الدائرة في تسجيلها وشرحها وكأنها حقائق ثابتة ومن الاصول المقررة والمسلم بها وليسَ من الدخائل.

2ـ القصد المتعمد في الجمع بين اساطير البدع التي ما انزل الله بها من سلطان وحقائق الشريعة.

3ـ جمعت دائرة المعارف هذهِ خلاصة ما كُتبَ عن الاسلام في الكتب التي ألّفها المستشرقون، والتي كانت السمة الغالبة عليها الهجوم بشراسة على الاسلام خلال السنوات الطويلة، وكانت متفرقة في هذهِ المؤلفات التي لم يكن يقرأها إلاّ بعض الغربيين الذين يُختارون للعمل في البلاد الاسلامية، ثم جاءت الدائرة لتضمّ هذا كلهُ وتجعل منهُ مصدراً اسلامياً يرجع اليه بسهولة ويُسر بعدَ ان تُرجم أغلبها الى العربية.

4ـ إصرار القائمين على هذهِ الدائرة على عدم التصحيح ـ ولو بالتعليق الهامشي ـ للاخطاء والمطاعن التي انكشف أمرها جلياً، وهذا اكثر ضرراً من أشرّ كتب المبشرين والمستشرقين وصحفهم، لأنّ هذهِ كلّها لا تخدع أحداً من أهل الحقيقة والمعرفة، إنّما خطر تلك يكمن في نشوء جيل من المتعلمين يعتبرها مراجع موسوعية أساسية تظافرت عليها جهود عشرات العلماء والمفكرين، فيستقي منها ويعتمد عليها دون أن يفرق بين الحق والباطل فيها، أو يعلم أن مؤلفي هذهِ الدائرة من ألدّ خصوم الإسلام والمسلمين.

فنسنك أهدافه ومآربه:

لما كانت مدينة «ليدن» وجامعتها في هولندا قد اشتهرت بغزارة إنتاجها

الاستشراقي، فقد ترأس فنسنك الذي كان يدرّس فيها مجموعة من زملائه للقيام بعملين كبيرين:

أولهما: دائرة المعارف الإسلامية، وصدر الجزء الأوّل منها عام 1913م، التي ضمّنها أخطر آرائه، منها ما ورد في كلمة «إبراهيم» وفي كلمة «كعبة». فقد أشار تحت لفظ «إبراهيم» إلى أنّ الآيات المكيّة ليس فيها ذكر لنسب اسماعيل لإبراهيم، ويقول: إنّه لا يعرف شيئاً عن شعور محمد نحو الكعبة في شبابه، وإنّ ما لديه من تاريخ حياته لا يصحّ أن يؤخذ أساساً تاريخيّاً. وينسب فنسنك الى النبي عليه السلام أنّه لم يشذ عن الجماعة في العبادة المكيّة، أي بعبارة أكثر وضوحاً أنّه كان وثنياً قبل البعثة. ويفتري فنسنك حين يصرّح أنّ كلمة ابراهيم اخترعت اختراعاً، ويزعم أنّ محمداً أراد بهذا الاختراع أن يتصل بإبراهيم.

ويطرح رأيه هذا ليؤكّد نفس المقولة التي رددها أسلافه اليهود والنصارى عندما بُعث النبيّ محمد ﷺ بالإسلام، والتي ردّدها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما﴾. ويستمر فنسنك في افتراءاته ليشارك كل من المستشرقين «سبرنجر» و«سنوك» في ترجمة النبي ابراهيم عليه السلام ضمن دائرة المعارف الإسلامية قائلاً: إنّ القرآن لم يحفل بإبراهيم، ولم يذكر أُبوّته لإسماعيل ولا أُبوّته للإسلام، إلاّ في السور المدنيّة، وسرّ هذا الاختلاف أنّ محمداً اعتمد على اليهود في مكّة، فلما اتخذوا حياله العداء لم يجد بداً من أن يلتمس غيرهم ناصراً. هناك هداه ذكاء شديد الى شأن جديد لأبي العرب إبراهيم، وبذلك استطاع أن يتخلّص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم، تلك اليهودية التي كانت ممهدة للإسلام.

ثانيهما: في مجال فهرست السنّة أصدر كتابين: **أحدهما:** معجم بالإنجليزية للألفاظ الواردة في أربعة عشر كتاباً من كتب السنن والسيرة. نقله الى العربية الأُستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، وسماه (مفتاح كنوز السنّة). **والآخر:** المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الذي نشره بالعربية وتوفّي قبل إتمامه. وقد حقق فنسنك بهذا المشروع الضخم هدفين أساسيين كان يسعى إليهما أغلب المستشرقين في أعمالهم الاستشراقيّة في هذا الباب العلمي. **الهدف الأوّل:** هو تيسير العمل أمام المستشرقين لتناول السيرة النبوية بشكل تفصيلي دقيق يمكّنهم من استقصاء ما يمكن أن يكون ـ بعد العلاج ـ مورداً للنقض والتشكيك والنيل من الإسلام ونبيّه عليه السلام. **والهدف الثاني:** تحويل توجّه الكتّاب والباحثين عن السنّة النبوية الى المراجع الاستشراقية، خصوصاً إذا لوحظ امتيازها الفنّي والموسوعي، مما يجعلها في الصدارة والمجال الاوّل بين مراجع المسلمين، فيعتمدون عليها ويكتفون بها رغم ما فيها من خلط وتحريف وافتراء، وينسون مع تقدّم الزمان مراجعهم الأصلية. وفي هذا المجال يقول الشيخ محمد حسام الدين: وكان أخطر عملهم في مادة (حديث) ومادة (سنّة)، لنجد فيها ما يجرح الإسلام وما يُفسد الحقيقة، وانّهم يقدّمون الشبهات في أساليب يعجز عنها الشيطان، وذلك ما رمى إليه «فنسنك» وهو الطعن على وجه أشدّ في المصدر الثاني بعد كتاب الله وهو السنّة النبوية، بل بوصفها البيان لكتاب الله تعالى، فإذا جرى الاعتماد على مراجعهم كان هذا شديد الخطر على الإسلام والأجيال القادمة.

وقد أدخل فنسنك بكتابيه «كنوز السنّة» و«المعجم المفهرس لألفاظ الحديث» أخبار وتقارير شاذة وواهية مردودة نشرها في الكتابين، ودسّها في سياق

الصحيح لتسوغ معه وتشتبه به، وليستقر في ذهن القارىء أنّها من الثوابت الواردة عن رسول الله ﷺ، وبعضه يصل الى درجة الشناعة وتبرأ منه السنّة الشريفة. وإنّ اعتماد المنهج العقلي والعلمي يقتضي- التنويه - ولو إجمالاً - إلى أنّ الأخبار والروايات المنسوبة الى السنّة الشريفة فيها الصحيح الموثّق، وفيها الضعيف والمرسل والمتروك، ويُطلب من القارىء - على الأقلّ - مراجعة المصادر الخاصة ببيان قواعدها وطرق التثبّت منها[1].

مغالطات فنسنك في السيرة النبوية:

لم يكن تحريم الخمر في برنامج النبي منذ البداية:

ويقول (فنسنك) تحت مادة (الخمر): ولم يكن تحريم الخمر في برنامج النبي منذ البداية، بل نحن نجد في الآية (67) من سورة النحل مدحاً في الخمر بوصفها آية من آيات الله للناس.. .، بيد أن عواقب السكر قد ظهرت على الصورة التي بيّنا، فدفع ذلك النبي إلى أن يغيّر من اتجاهه. وهذا القول منه يتضمن ما يلي:

أ - غمزه بنبوة محمد ﷺ وبصدق الوحي الإلهي له، وإلاّ فليس القرآن الكريم كلام النبي ﷺ ليبرمجه حسب رأيه، إنما هو كلام الله أنزله منجما على رسوله محمد ﷺ بواسطة الوحي حسب مقتضيات الحكمة الإلهية ومناسبات حركة الرسول ﷺ ودعوته للاسلام، فبرنامج التحريم للخمر - حسب قول (فنسنك) - ليس إلاّ تدرجاً في طريقة ومستوى البيان للحكم الشرعي، من تقبيح وتحريم له مرّةً وبيان لاشتماله على الإثم - وهو محرّم - أخرى، والزجر عن تناوله لحرمته

(1) انظر الإسلام وشبهات المستشرقين، فؤاد كاظم المقدادي، ص114.

ثالثة.. ،، ولا تعارض بين الآيات التي تناولت الخمر، فكلّها تحرّمه بصيغ بيانية متنوعة اقتضتها تلك الحكمة الالهية والمناسبات الواقعية، شأنها في ذلك شأن كثير من الظواهر الاجتماعية الفاسدة التي تستلزم تدرجاً زمنياً في طريقة ومستوى بيان الموقف الشرعي الكامل منها، وبالشكل الذي يتناسب وقابلية التلقّي الذهني والنفسي- لمجتمع الدعوة والرسالة لهذا التشريع أو ذاك، ليتحقق الهدف الإلهي في إدراك الناس له وتحصيل الاستعداد للتسليم به، وهذه سنّة الله في رسالاته وشرائعه للأُمم السالفة كاليهودية والنصرانية.

ب ـ أما قوله: (إن في الآية 67 من سورة النحل مدحاً في الخمر بوصفها آية من آيات الله للناس (فليس كذلك، ولعل السبب في سوء الفهم هذا هو روح التحامل على الاسلام من جهة ـ خصوصاً عند (فنسنك) المعروف بذلك ـ وعدم الإحاطة باللغة العربية من جهة أخرى. فالآية الكريمة مكيّة وهي تخاطب المشركين وتجيبهم في سياق الظواهر الطبيعية التي يعايشونها في حياتهم الاعتيادية، عن سؤالهم المقدّر وهو: ما هي ثمرات إنزال الماء من السماء؟ فكون اتخاذ المشركين السُكر من ثمرات النخيل والأعناب لا يعني تحسينه لهم، خصوصاً وأن الآية الكريمة تنسب السكر إليهم وانه من صنعهم، وليس هو إلاّ اشارة إلى ثمرة طبيعية مألوفة لديهم، بل هناك قرينة واضحة في الآية تدل على نوع من تقبيح السُكر من جهة مقابلته بالرزق الحسن، فلو كان السُكر حسناً لما ميّزته الآية الكريمة عن الرزق الحسن[1].

(1) انظر: معجم افتراءات الغرب على الإسلام، أنور محمود زناتي ، ص51.

حقيقة النبوة المحمدية في آراء المستشرق فنسنك:

ذكاء محمد ﷺ وخياله عماد دعوته:

من إمارات الدس والتشويه في «دائرة المعارف الاسلامية» التي وضعها نخبة من المستشرقين القول بأن ذكاء محمد عليه السلام وخياله المتوقد هما اللذان كانا وراء ما جاء به من دعوة. ونجد مصاديق هذه الشبهة في عدة موارد من الموسوعة المذكورة، منها ما جاء تحت مادة «ابراهيم». ففي معرض بيان دعوى المستشرق الهولندي «سنوك هجروينيه» بأن شخصية إبراهيم مرّت بأطوار متناقضة في القرآن الكريم، والإشارة إلى السر في هذا الاختلاف يقول فنسنك: «إنّ محمداً كان قد اعتمد على اليهود في مكّة، فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطّة عداء، فلم يكن له بدٌّ من ان يلتمس غيرهم ناصراً، وهناك هداه ذكاء مسدّد إلى شأنٍ جديد لأبي العرب إبراهيم، وبذلك استطاع أن يخلص من يهوديّة عصره ليصل حبله بيهوديّة إبراهيم».

قول فنسنك أن محمداً عليه السلام كان قد اعتمد على اليهود في مكّة، فهذا ما لم يقله ولم ينقله لنا أيّ مؤرخ، سواء كان من المسلمين أم من غيرهم. بل الذي ورد هو العكس، حيث إن اليهود كانوا أوّل وأشدّ من نصب العداء ومارس تأليب مشركي قريش والتآمر على رسول الله ﷺ ودعوته الإسلامية، حتى نزل في ذلك قرآن، قال فيه الله تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين أمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين أمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ [المائدة: 82].

أمّا قوله: «وبذلك استطاع ان يخلص من يهوديّة عصره ليصل حبله بيهوديـة إبـراهيم» ففيه:

أولاً: إن اليهودية المدعاة التي كانت على عصر الرسول ﷺ هي انحراف عن الدين الحق الذي بعث اللـه تعالى به أنبياء بني اسرائيل وعلى رأسهم موسى عليه السلام، وفي ذلك قال اللـه تعالى في محكم قرآنه الكريم: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ [النساء: 46] وقول اللـه تعالى أيضاً: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللـهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 75].

ثانياً: إن الرسول محمداً ﷺ لم يكن بحاجة لأن يصل حبله باليهودية المدعاة، لأن الأصل في الاديان هو الإسلام، وقد توالى بعث الرسل والانبياء من اللـه تعالى للتبشير به، وردّ التحريف عنه والدعوة له قبل خاتمهم محمد ﷺ، أمّا النصـرانية واليهودية المدعَيتان فما هي إلاّ انحراف عن الاصل الاسلامي، وبدعة أملتها عليهم أهواؤهم ودنياهم، وفي ذلك قول اللـه تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللـهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: 187].

وهذه هي العقيدة التي دعا لها النبي محمد ﷺ وذكرها اللـه تعالى في القرآن الكريم بقوله: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللـهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ

الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: 13-15].

ثالثاً: إن نبي الله ابراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً، لما قلنا من أن الأصل في الأديان المبشّر بها هو الإسلام، وكيف يكون إبراهيم عليه السلام يهودياً أو نصرانياً حسب دعواهم وقد نزلت التوراة والإنجيل من بعده بزمن مديد؟ وهو قول الله تعالى في قرآنه الكريم: ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: 65-66].

ثم ينفي الله عز وجل اليهودية والنصرانية المدعيتين عن إبراهيم عليه السلام ويثبت كونه حنيفاً مسلماً لا غير، وذلك قوله عزّ من قائل في الكتاب الكريم: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 67].

إذن فلو كانت هناك وصلة للنبي محمد ﷺ بابراهيم عليه السلام فهي وصلة الإسلام، ذلك الدين الحق الذي قال فيه الله تعالى في قرآنه المجيد: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: 9][1].

وفي بدء الوحي يقول (فنسنك): بعد ظهور جبريل لأول مرة، وإصابة النبي ﷺ (بالغشيان) ملئت خديجة فزعاً، فلجأت إلى راهب ملحد منبوذ يدعى (سرجيوس)، فطمأنها وأكد لها أن الملك جبريل يرسل لجميع الأنبياء.

(1) انظر الإسلام وشبهات المستشرقين، فؤاد كاظم المقدادي، ص95.

والصواب: أن الرسول ﷺ لم يصب بما يسميه (الغشيان)، وإنما هي قشعريرة تنتاب الخائف، ولم تفزع خديجة من ذلك بل كانت تثبت قلب الرسول بقولها: و الله ما يخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. أما (سرجيوس) فيقول أحمد محمد شاكر عنه: الزعم أن قصة خديجة كانت مع من يدعى (سرجيوس) خطأ، ومخالفة للأحاديث الصحيحة الثابتة، ثم ذكرحديث البخاري في بدء نزول الوحي إلى أن يقول: فهذا صريح في أنها ذهبت إلى ابن عمها العربي النسب، ولم تذهب إلى رجل أعجمي يدعى (سرجيوس)[1].

(1) انظر: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، ص49.

نماذج من الدسّ والتشويه في الإنتاج الموسوعي للمستشرق فنسنك (شبهات وردود):

شعيرة الحج وتنقيبات المستشرق فنسنك في أصولها:

لم تكن نظرة النبي إلى الحج واحدة على الدوام:

يقول المستشرق الهولندي فنسنك تحت مادة «أصل الحج في الإسلام» «لم تكن نظرة النبي إلى الحج واحدة على الدوام، فلابد أنه اشترك كثيراً في مناسكه وهو حَدِث، أمّا بعد دعوته فقد كانت عنايته قليلة أول الأمر بالحج. فلم يرد ذكر الحج في السور القديمة. ولا يبدو من المصادر الأُخرى أن النبي اتخذ خطة محددة حيال هذه العادة الوثنية الأصل».

ويفصّل «فنسنك» أكثر في دعمه لهذه الشبهة فيقول تحت نفس المادة: «إن الوقوف في سهل عرفات من أهم مناسك الحج، فالحج بدون الوقوف باطل في الإسلام، وإنما يفسّر هذا الأمر بأنه أثر لفكرة جاهلية.

وينساق «فنسنك» تحت مادة «إحرام» مع هذه الدعوى قائلاً: «ونلاحظ أن ثوب الإحرام ربما كان الثوب المقدّس عند قدماء الساميين، إذْ إنَّ الجزء الأعلى من الثوب الذي كان يرتديه الكاهن الأعظم في «العهد القديم» كان غير مخيط..

ويرتدي كهنة اليهود الأفود «الصُّدرة» حول الحرقفتين والمَيل حول الكتفين. ونجد لهذا نظيراً في الإسلام عند الصلاة وفي تكفين الميت.

وكان العرب في جاهليتهم عند الكهانة يلبسون رداءً ومئزراً، كما كان الزهاد المتأخرون يرتدون مثل هذا الثوب. يضاف إلى ذلك أن اللون الأبيض يعدُّ مقدساً في كثير من الأديان... فلباس الإحرام والحالة هذه قديم جداً ولا يرجع أصله للإسلام. زد على ذلك أن لبس الحذاء محرمٌ كذلك... وهذه عادة سامية قديمة كذلك... ويجب كذلك على المحرم أن لا يغطّي رأسه، وربما كانت هذه عادة من عادات الحزن قبل الإسلام».

وينقل «فنسنك» رأي المستشرق سنوك هجروينيه في هذا الموضوع، الذي صوّر هذه الشبهة مرةً بأنها نظريات يراها النبي ﷺ ليتفادى بها الصورة القاسية التي كانت تمارس بها هذه العبادات في الجاهلية، ومرةً أُخرى يصوّرها بأنّها ممارسات مشتملة على قذارات كانت على عهد الجاهلية، ومنها ما كان على عهد الديانات السامية أيضاً كاليهود فيقول في مادة «إحرام»: «إن محرّمات الإحرام قد غدت قاسية في نظر النبي، لذلك نجده أثناء مكثه في مكة قبل الحج يتحلّل من هذه المحرّمات،... وعلى ذلك فإن ما تراءى للنبي ومعاصريه أنه إهمال يستوجب التكفير قد غدا في نظر الأجيال اللاحقة أمراً مباحاً.. وقد منع الشرع المُحْرِم من جملة أُمور: النكاح والتطيّب وإراقة الدم والصيد، كما حرّم اقتلاع النبات. نلاحظ بهذه المناسبة أن بعض الأديان الساميّة يحرّم النكاح في حالات أُخرى، ونخصّ بالذكر من هذه الأديان ما يقول بالتوحيد. وكان إهمال العناية بالبدن ظاهرة معروفة بين الشعوب الساميّة في الأحوال الدينية، وتصوّر لنا الروايات أن النادبات

في الجاهلية كنّ قذرات ذوات شعر أشعث. ويمتنع اليهود مدّة حدادهم عن الاستحمام وتقليم الأظافر. ويذكرون أن الحجّاج في الجاهلية وفي عصر النبي كانوا يضمّخون شعورهم بالادهان وقت الإحرام تخفيفاً لوطأة القذارة».

يكفي جواباً على هذه الأوهام أن القرآن الكريم يصرِّح في أكثر من آية كريمة أن بيت الله الحرام هو واحد، وقد أقام قواعده نبي الله إبراهيم عليه السلام وولده نبي الله إسماعيل عليه السلام وذلك في قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ ثم أمر الله سبحانه نبيّه إبراهيم عليه السلام أن يطهر هذا البيت لأداء عبادة الحج الإلهي، حيث جاء في القرآن الكريم عن ذلك: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: 26-27] وقوله تعالى أيضاً: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة: 125]. واستمر الحال زمناً طويلاً حتى أفسد أهل الجاهلية هذا الحج الإبراهيمي، وحرّفوه عن شرعته الإلهية باتخاذهم الأصنام في بيت الله وشعائر الحج الأخرى شركاء لله سبحانه يتقربون إليها دونه تعالى، ومحقوا صورته الأولى التي شرّعها الله لنبيه إبراهيم عليه السلام، واستبدلوها بالدجل والهراء، حتى وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وما كان صلاتهم عن البيت إلا مكاء وتصدية﴾ [الأنفال: 35] فأمر الله تعالى نبيه الكريم محمداً ﷺ بإعادة مناسك الحج الإلهي إلى صورته الأُولى إمضاءً لشريعة إبراهيم عليه السلام فيها، حيث قال في قرآنه المجيد: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ

لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللـهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: 96-97].

رؤية المستشرق الهولندي فنسنك لشعيرة الصلاة في «دائرة المعارف الإسلامية» شبهة ورد:

اتّخذ النبي محمد شعيرة الصلاة من اليهود والمسيحيين في بلاد العرب:

يناقش المستشرق الهولندي فنسنك فريضة الصلاة في «دائرة المعارف الإسلامية» التي اشرف على تحريرها من منطلقات مغلوطة، فيقول:

«ويبدو أن كلمة صلاة لم تظهر في الآثار الأدبية السابقة على القرآن، وقد اتّخذها محمد ﷺ كما اتّخذ الشعيرة من اليهود والمسيحيين في بلاد العرب».

ويستمر «فنسنك» في إبرام شبهته هذه فيقول تحت المادة نفسها: «واشتقاق كلمة (صلوطا) الآرامية واضح كل الوضوح، فالأصل «صلأ» في الآرامية يعني الانحناء والانثناء والقيام... وتستعمل في كثير من اللهجات الآرامية للدلالة على الصلاة الشرعية... وقد نقل محمد كلمة الصلاة بهذه المعنى من جيرانه. ويكشف نظام الصلاة عند المسلمين عن تشابه كبير بصلاة اليهود والمسيحيين... ومن البيّن أن محمداً لم تكن بين يديه أول الأمر المادة الوافية لهذه الشعيرة؛ ولقد كانت تعوزه النصوص التي يتلوها ويرتّلها اليهود والمسيحيون في صلاتهم».

ويستمر «فنسنك» تحت المادة نفسها قائلاً: «ومن ثمّ فنحن نجد فجأةً الصلاة الوسطى تظهر في السور المدنية وهي البقرة، الآية 237. ولابد إذن أن

تكون هذه الصلاة قد أُضيفت في المدينة إلى الصلاتين المعتادتين، ويرجّح أن يكون ذلك قد تمّ محاكاة لليهود الذين كانوا يقيمون أيضاً صلاتهم (ثقلاه) ثلاث مرات كل يوم».

ويقول أيضاً: إن «جولد زيهر Gold Ziher » وفي معرض ردّه على «هوتسما» في كيفية تقرير الصلوات الخمس يرى عكس ما يراه الأخير ويذهب إلى القول بوجود اثر فارسي في تقرير الصلوات الخمس. وعن عدد الركعات في الصلوات الخمس يقول «فنسنك» تحت مادة «الصلاة»: «... إن الحديث النبوي يقول أيضاً إن الصلاة كانت في الأصل من ركعتين وإن هذا العدد نفسه عمل به في صلاة السفر... ويفترض «متفوخ» وجود التأثير اليهودي في الاختيار الأصلي للركعتين». أقوال «فنسنك» المتعددة تحت مادة «الصلاة» يرد عليها كالآتي:

1ـ قوله: «ويبدو أن كلمة صلاة لم تظهر في الآثار الأدبية السابقة على القرآن.. « فيرد عليه من أن مجرد وجود شبه لفظي في حرف أو حرفين من كلمة عربية مع كلمة من لغة أخرى لا يمكن أن تعد دليلاً ناهضاً على الأخذ والاستقاء إذ بهذه الطريق سوف نهدم الكثير من صيغ الوضع اللفظي للغات، إلاّ إذا ساق المدّعي دليلاً أو قرينة معتبرة على مدّعاه. مع تأكيدنا على بطلان ما ادعاه، فإن كلمة صلاة وردت في الشعر العربي الجاهلي قبل نزول القرآن الكريم، كما في قول أعشى قيس:

يـــراوح في صـــلواته لمليـــك طـوراً سـجوداً وطـوراً جـوار

ومعنى الصلاة لغة الدعاء والاستغفار؛ فقد قال الأعشى أيضاً:

لهـا حـارس لا يـبرح الـدهر بيتهـا فـإن ذبحـت صـلى عليهـا وزمزمـا

أي دعا لها، وقال أيضاً:

وقابلهـــا الـــريح في دنّهـــا وصـلى عـلى دنّهـا وارتسـم

أي دعا لها أن لا تحمض ولا تفسدَ. والصلاة مـن الـلـه تعـالى: الرحمـة، قـال عـدي بـن الرقاع:

صـلّى الإلـه عـلى امـرئ ودّعتـهُ وأتـمّ نعمتـه عليـه وزادهـا

وقال:

صلّى على عـزّة الـرحمن وابنتهـا لـيلى وصـــلّى عـــلى جاراتهـــا الأُخـــر

وأصل الاشتقاق في الصلاة من اللزوم من قوله: تصلى ناراً حامية، والمصـدر الصـلا، ومنـه اصطلى بالنار إذا لزمها، والمصلّي الذي يجيء في أثر السابق للزوم أثره، ويقـال للعظـم الـذي في العجز صلاً، وهما صلوان.

أمّا في اصطلاح الشريعة الإسلامية فهي عبارة عن العبـادة الخاصـة التـي شرعهـا الإسـلام والمشتملة على الركوع والسجود على وجه مخصوص وأركان وأذكار مخصوصة.

وقيل أنها سمّيت صلاة لأن المصلي متعرّض لاستنجاح طلبته من ثواب الـلـه ونعمه مـع ما يسأل ربه فيها من حاجاته.

2ـ قوله: إن نظام الصلاة عند المسلمين يشابه بدرجةٍ كبـيرة صـلاة اليهـود والمسـيحيين... وإن الصلاة الوسطى ظهرت فجأة في سورة البقرة المدنية، وإنها أُضيفت إلى الصـلاتين المعتـادتين فأصبحت ثلاثة، ثم يفرع عليها رجحان أن ذلك قد تمَّ محاكاة لصلاة اليهود (ثقـلاه) التـي تقـام ثلاث مرات كل يوم.

يرد عليها أن التشابه يكون مرة بعدد الصلوات، وأخرى بشكلية الصلاة من قيام وركوع وسجود وأمثالها، وثالثة بمضامين الصلاة من قراءات وأذكار، أما الجانب الأوّل فإن الصلاة التي شرعها الإسلام هي خمس صلوات وليس ثلاث صلوات كما لدى اليهود حسب قول «فنسنك» نفسه، وليست سبعاً كما لدى المسيحيين وهي «صلاة» البكور وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة والثانية عشرة ثم صلاة منتصف الليل». والصلوات الإسلامية الخمسة هذه محددة أوقاتها بموجب آيتين قرآنيتين نزلتا على الرسول ﷺ في مكة المكرمة وليس في المدينة المنوّرة، وهما في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: 78] وفي سورة هود في قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من اليل﴾ [هود: 114].

وفي بيان دلالة هاتين الآيتين، جاء في تفسير البغوي لقول الله: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ قال: الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها فدلوك الشمس: يتناول صلاة الظهر والعصر، **وإلى غسق الليل:** يتناول المغرب والعشاء، وقرآن الفجر: هو صلاة الصبح وقول الله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ طرفاه: المغرب والغداة ﴿ وزلفا من اليل ﴾ وهي صلاة العشاء الآخرة».

وفي تفسير الآية الأولى قال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة: «دلوكها زوالها، وقال الحسن: ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ لزوالها: صلاة الظهر، وصلاة العصر إلى «غسق الليل» صلاة المغرب والعشاء الآخرة، كأنه يقول من ذلك الوقت إلى هذا

الوقت على ما يبين لك من حال الصلوات الأربع، ثم صلاة الفجر، فأفردت بالذكر».

أمّا الصلاة الوسطى الواردة في سورة البقرة ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ فقد جاء في معنى الآية: الحث على مراعاة الصلوات، ومواقيتهن، وألاّ يقع فيها تضييع وتفريط.

وعليه فلا يضر أن تكون هذه الآية مدنية لأنها لم تكن بصدد أصل تشريع الصلوات الخمس، بل جاءت للحث على مراعاة الصلوات ومواقيتهن وخصوصاً الصلاة الوسطى منهن والتي سبق تشريعها في الآيات المكية السالفة الذكر، وبهذا تبطل دعوى فنسنك» بأنها أُضيفت في المدينة إلى الصلاتين المعتادتين، ويبطل أيضاً قوله بأنها ثلاث صلوات أو ثلاث مرات والتي يفرع عليها دعوى محاكاتها لصلاة اليهود «ثقلاه»، كما يبطل مشابهتها لصلوات المسيحيين من هذه الناحية لثبوت أن الصلوات المشرعة هي خمس وليست ثلاثاً كما عند اليهود، وليست سبعاً كما لدى المسيحيين كما أسلفنا.

أمّا الجانبان الثاني والثالث من التشابه المدّعى ففيه أنه ورد «أن الأصل في جميع صلوات المسيحيين إنما هو الصلاة الربانية التي علّمها السيد المسيح، والأصل في تلاوتها أن يتلوها المصلي ساجداً. وقد تكون الصلاة لفظية، بأن تتلى بألفاظ منقولة أو مرتجلة، وتكون عقلية بأن تنوى الألفاظ ويكون الابتهال قلبياً محضاً». ثم يحكي لنا مصدر آخر كيفية تطوّر صلواتهم قائلاً: «نشر [الرهبان الفرنسسكان عادة (طريق الصليب) أو (مواضعه) وهي التي تقضي بأن يتلو المتعبّد صلوات أمام صورة أو لوحة من لوحات أو صور أربع عشرة تمّثل كل منها مرحلة من

مراحل آلام المسيح؛ فكان القساوسة والرهبان والراهبات وبعض العلمانيين ينشدون أو يتلون أدعية الساعات القانونية وهي: أدعية، وقراءات، ومزامير، وترانيم صاغها البندكتيون وغيرهم وجمعها «ألكوين Alcuin» و(جريجوري السابع) في كتاب موجز.

وكانت هذه الأدعية تطرق أبوابها السماء... كل يوم وليلة في فترات، بين كل واحدة والتي تليها ثلاث ساعات». وعن مضامينها يقول المصدر نفسه: «وأقدم الصلوات المسيحية هما: الصلاة التي مطلعها «أبانا الذي في السماوات» والتي مطلعها «نؤمن بإلهٍ واحد»، وقبل أن ينتهي القرن الثاني عشر- بدأت الصلاة التي مطلعها: «السلام لك يا مريم» تتخذ صيغتها المعروفة. وكانت هناك غير الصلوات أوراد شعرية من الثناء والتضرع... وكثيراً ما كانت الصلوات الرسمية التي تُتلى في الكنائس توجَّه إلى الله الأب، وكان عدد قليل منها يوجّه إلى الروح القدس؛ ولكن صلوات الشعب كانت توجّه في الأغلب إلى عيسى ومريم، والقديسين».

أمّا صلاة اليهود فقد ورد عنها القول: «أما اليهود فليس في التوراة ما يدل دلالةً صريحة على كيفية إقامة الصلاة عندهم، والظاهر أنهم إنما كانوا يتلونها وقوفاً إلاّ في الاحتفالات الكبرى، حيث كانوا يسجدون، وكان لها ثلاثة أوقات قانونية: الصبح والظهر والمساء».

أما الصلوات في الإسلام فقد ذكر الفقهاء كيفيتها استناداً على الأدلّة الشرعيّة من القرآن الكريم والسنة الشريفة فقالوا: «... فهي تتكون من ركعات، والحد الأقصى- من الركعات في الصلاة أربعة، كصلاة العشاء مثلاً، والحد الأدنى

من الركعات في الصلوات الواجبة ركعتان كصلاة الصبح، وفي الصلوات المندوبة ركعة واحدة وهي ركعة الوتر.

وعلى العموم فالركعات هي: الوحدات والأجزاء الأساسية التي تتكون منها الصلاة، ويستثنى من ذلك الصلاة على الأموات، فإنها مكوّنة من تكبيرات لا من ركعات، وليست هي صلاة إلاّ بالاسم فقط».

وهناك شروط يجب توافرها في كل صلاة وهي على قسمين: أحدهما شروط للمصلي، والآخر شروط لنفس الصلاة، وأهمها أن يكون المصلي على وضوء وطهارة وأن يكون بدنه طاهراً وكذلك ثيابه وأن يستقبل القبلة (وهي الكعبة المشرفة) وأن يقصد بالصلاة القربة إلى الله تعالى. وقد وردت روايات كثيرة عن الكيفية وعن مضامينها وأجزائها وشروطها، ذكرتها كتب الحديث في باب الصلاة. بعد هذا الاستعراض نرى بالمقارنة بين الصلوات لدى اليهود ولدى المسيحيين وبين الصلوات في الإسلام وجود اختلافٍ أساسي بينها في العدد وفي الأوقات وفي شكلياتها ومضامينها. فمن أين استنتج «فنسنك» التشابه الكبير بينها ومحاكاة بعضها لبعض وأمثال ذلك في المقولات والدعوات الجزافية التي لا دليل ولا شاهد عليها؟ هذا مع العلم أننا نلحظ من خلال سوقنا لما نقل عن صلاة اليهود وصلوات المسيحيين أن يد التغيير البشرية قد طالت الأصل وأحدثت فيه الشيء الكبير، إذ نجد أن مفرداتها ـ وخصوصاً صلوات المسيحيين ـ غدت مشبّعة بمبدأ التثليث الذي هو من مقولات الشرك بالله سبحانه وتعالى، بخلاف مبدأ التوحيد والإخلاص لله وحده لا شريك له في العبادات الإسلامية الذي تعبر عنه جميع مفرداتها وخصوصاً الصلاة منها التي يشترط فيها كما أسلفنا نيّة التقرّب لله الواحد

الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهذا ما يؤكد حقيقة التحريف في الديانتين اليهودية والمسيحية وفي كتابيهما التوراة والإنجيل، والتي لا نعدم وجود تشابه في أُصولهما قبل التحريف بين الأحكام الواردة فيهما والتي لم تنسخ، وبين نظائرها من الأحكام الواردة في القرآن الكريم والسنة الشريفة لأنها من سراجٍ واحدٍ[1].

فنسنك والزيف العلمي.. قصة بحيرا الراهب:

النظرة الاستشراقية لقصة بحيرا الراهب ـ تشعرنا بقليل من رائحة التدنِّي المنهجي والزيف العلمي، وتحت اسم «بحيرا» من دائرة المعارف الإسلامية، قال المستشرق «فنسنك»: «وهذه القصص قسم خاص من الأساطير التي أحاطت بسيرة النبي محمد، ولها نظائر كثيرة من النوع نفسه، وكلها ترمي إلى أن أهل الكتاب عرفوا من كتبهم من قبل بعثة محمد».

وهذا الصنيع من «فنسنك» يحاول أن يسجل حكمًا عامًا علي كل الأخبار التي تواترت بتعرف الأحبار والرهبان والكهان علي النبي صلوات الله عليه قبل مولده، وقبل مبعثه، وبعد مبعثه، وهو صنيع يضرب ببدهيات المنهج العلمي عرض الحائط، إذ لا يدخل في غمار البحث المنهجي حول رواية القصة ونقلتها، والدراسات التي صيغت حولها، وإنما يبادر إلي القول الفج غير المعلل بأنها أسطورة، ويلحق هذا اللهاث الجريء بلهاث آخر ينهي فيه القضية من أساسها، فيرى أن «نظائرها» من هذا النوع الأسطوري نفسه، ومن هنا يقوِّض ـ بأمنيته ـ مبدأ أن أهل الكتاب قد تعرفوا على بعثة محمد من خلال كتبهم، علي الرغم من أنه

(1) انظر:الإسلام وشبهات المستشرقين، فؤاد كاظم مقدادي، ص314.

مبدأ موجود في القرآن الكريم أصلاً، وليس مستقى من هذه القصص، وإن كانت هذه القصص تعد تأكيدًا وتطبيقًا لهذا المبدأ القرآني.

أما أن المجال مجال مناقشة هذه النتيجة فلا، وإنما المراد هو اطلاع القارئ على صورة البحث العلمي عند رؤوس الاستشراق، وطريقتهم في الاستنتاج، ولكن مضرب المثل في الوقاحة الدراسية ـ إن صح التعبير ـ هو ما اكتشفه «فنسنك» حول شخصية «بحيرا»، الذي حرص على ذكره، وهو أن «الروايات الإسلامية حول شخصية «بحيرا» قد جمعت كلها بالتفصيل في «سفر بحيرا» لكاتب مسيحي في القرنين الحادي عشر أو الثاني عشر ـ يدعي «إشوعيب» وقد ورد في الكتاب كيف لقن سرجيوس «وهو الاسم الحقيقي لبحيرا» محمدًا ﷺ عقيدته وشرائعه وأجزاء من القرآن، وذلك بقصد أن يجعل العرب يعترفون بإله واحد.

ولم يعلق الأستاذ العالم المنهجي «فنسنك»!!! بحرف واحد يدل على القيمة التاريخية لهذه المقولة، وكأن الراويات إذا أريد بها إظهار معرفة أحبار أهل الكتاب برسول الله ﷺ قبل مبعثه فهي أساطير كلها، وإذا أريد بواحد منها أن «محمدًا نبي كاذب كان يتلقى توجيهه من راهب ملحد» وهذا هو نتاج المنهج العلمي والأمانة العلمية عند المستشرقين[1].

فنسنك والعقيدة الإسلامية:

ألف المستشرق فنسنك كتاباً في العقيدة الإسلامية بعنوان: العقيدة الإسلامية نشأتها وتطورها التاريخي:THE MUSLIM CREED; ITS GENESIS AND HISTORICAL DEVELOPMENT

نشرت مطبعة جامعة كامبردج هذا

(1) انظر: دائرة المعارف الإسلامية «مترجمة» ط الشعب 7، 339. 341.

الكتاب في طبعتين: الطبعة الأول سنة 1932م، أي أثناء اشتغال المستشرق بأعداد المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي والطبعة الثانية سنة 1965، وهي الطبعة التي رجعنا إليها في هذا البحث.

وفي التمهيد يتقدم فسنك بالشكر والامتنان لمستشرقين آخرين، ساعدوه مساعدة عظيمة في إعداد الكتاب ولولا مساعدتهم هذه ـ كما يقول ـ «لكان من المستحيل عليه أن يعد الكتاب للنشر» ومن هؤلاء المستشرقين توماس آرنولد مؤلف كتاب: الدعوة إلى الإسلام، وهاملتون جب مؤلف كتاب: المحمدية.

الإسلام والمسيحية:

في بداية الفصل الأول من الكتاب يشبه المستشرق العقيدة الإسلامية بالعقيدة المسيحية في تعرض كل منهما «للتطور» التاريخي على أيدي الأجيال التالية لعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام[1]، وهذا كلام باطل من أساسه.

فمن المعروف أن العقيدة المسيحية في أصلها الموحى به إلى عيسى عليه السلام كانت عقيدة توحيد، ثم دخل عليها التحريف والانحراف بعده، حتى أصبحت في القرن الرابع الميلادي عقيدة شرك وتثليث وذلك بسبب ما أدخله بولس على المسيحية في القرن الأول من عقائد وثنية، مثل عقيدة أن المسيح ابن الله، وأنه صلب للتفكير عن خطايا البشر ثم ما تلا هذه الانحرافات من إعلان مجمع نيقية سنة 325م (برئاسة الأمبراطور قسطنطين) قراره الرسمي باتخاذ عقيدة ألوهية المسيح وبنوته لله عقيدة رسمية للأمبراطورية الرومانية، ثم إعلان مجمع القسطنطينية سنة

(1) انظر: فنسنك العقيدة الإسلامية(بالإنجليزية) ص1.

381 قرار تأليه الروح القدس. وبذلك اكتملت عقيدة التثليث، وهي عقيدة شرك لا شك فيه صنعتها قرارات البشر. وكل هذا «التطور»، أي الإنحراف الوثني في العقيدة المسيحية، لم يحدث مثله قط في الإسلام، وذلك لسبب واضح، وهو أن القرآن الكريم ـ وهو مصدر العقيدة الإسلامية لم يحرف ولم يبدل، فقد حفظه الله من كل تحريف وتبديل، كما قال الله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: 9].

أما كتاب المسيحية ـ وهو كتاب العهد الجديد المعروف عند المسيحين بالإنجيل المقدس ـ فقد ثبت تحريفه، كما ثبت تحريف العقيدة المسيحية الأساسية عن ألوهية المسيح، بالأدلة العلمية والتاريخية القاطعة التي بينها علماء مسلمون وغير مسلمين. ولكنه الحقد الدفين لدى المستشرقين اليهود والنصارى على الإسلام، ولا سيما بسبب أن الله حفظ القرآن الكريم من التحريف الذي تعرض له كتابهم المقدس، الذي يشمل العهدين القديم والجديد. ولعل هذا من أهم أسباب «الحسرة» التي يشعر بها الكافرون تجاه القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿وإنه لحسرة على الكافرين*وإنه لحق اليقين﴾ [الحاقة: 51-52].

القرآن ــ في زعم المستشرق فنسنك ــ لا يحتوي على العقيدة الإسلامية بصورة واضحة!

يزعم هذا المستشرق أن القرآن لا يحتوي عل خلاصة واضحة للعقيدة الإسلامية، يمكن اتخاذها وصفاً مميزاً للإسلام، في مقابل الأديان الأخرى، أو في مقابل العقائد الخاصة للفرق الإسلامية[1].

(1) انظر: فنسنك العقيدة الإسلامية(بالإنجليزية) ص3-6.

ويشير إلى اختلاف الدعوة في مكة عنها في المدينة، ويعزو هذا الاختلاف إلى شخصية الرسول ﷺ، وتأثرها بالبيئة والظروف قبل الهجرة وبعدها. فيزعم أن الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث واليوم الآخر تكون جوهر «الوعظ» لدى محمد ﷺ في بداية دعوته في مكة، عندما كان عليه أن يواجه شكوك المكيين الذين لم يؤمنوا بالبعث واليوم الآخر. كما يزعم أن الرسول ﷺ في مكة كان يبشر بدين مستمد من اليهودية والنصرانية ومن ثم كان يردد قصص الأنبياء المذكورين في التوراة والإنجيل، لينذر قومه بما حدث لمكذبي الرسل قبله، وليثبت أتباعه القليلين من حوله. ولكنه ﷺ في المدينة قوى مركزه، وزاد أتباعه فكوّنوا أمة، وتخلص من اليهود لأنهم رفضوا الايمان برسالته، وأصبح زعيماً سياسياً ورئيس دولة، فلم يعد بحاجة إلى ترديد قصص الأنبياء التي كان يرددها في مكة للوعظ والإنذار وتحول اهتمامه إلى التشريع والغزوات، والغنيمة والفيء، وتحديد العلاقات مع القبائل الوثنية، وممارسة الشعائر الدينية، وبوجه خاص إلى الأمر بطاعة الله ورسوله، وفرض الإسلام على الناس بحد السيف.

وتلك هي دعائم الحكومة الدينية التي أقامها الرسول ﷺ في المدينة، وامتد سلطانها بحد السيف! ــ خارج الجزيرة العربية بعد وفاته. ويمضي المستشرق في افتراءاته محاولاً تدعيمها بمستشرقين آخرين، وبخاصة صديقه هرجرونية، فيزعم أن كل ما كان محمد ﷺ يهتم به، ويوجه عنايته إليه، في المدينة، ليس هو صياغة العقيدة، بل ممارسة السلطة، وذلك عن طريق الحكومة الدينية THEOCRACY التي أقامها هناك. وهكذا تحولت شخصية محمد ﷺ من شخصية واعظ تقي في مكة إلى شخصية سياسي وحاكم في المدينة، ليس لديه رغبة في التفكير في العقيدة

الإسلامية وصياغتها صياغة واضحة. يضاف إلى هذا أن طبيعة محمد ﷺ لم تكن قط طبيعة مفكر وفيلسوف ديني، ولهذا ركز كل اهتمامه في ممارسة السلطة، ولم يتجه قط إلى صياغة العقيدة. يقول المستشرق: «ربما ندعوه ﷺ نبياً أو سياسياً أو كليهما، ولكنه بالتأكيد لم يكن فيلسوفاً دينياً (؟!) وأكثر من هذا أن التغيير الذي أحدثته الهجرة وعواقبها في حياته قد سبب تغييراً في موقفه العام[1]. ويقول: «لا ينبغي أن نبحث لنجد في محمد ﷺ أو في طبيعته أو في مجرى حياته ما يمكن أن يبرر لنا أن نتوقع منه أن يصوغ عقيدة»[2].

تذكر أيها القارئ أن هذا المستشرق ـ كغيره من المستشرقين ـ يزعم أن القرآن ليس وحياً من الله، بل من كلام محمد ﷺ. ولأن محمداً لم يهتم بصيغة عقيدة واضحة فلا بد أن يخلو القرآن من العقيدة الواضحة!. لا يريد هذا المستشرق (و غيره) أن يفهم أن محمداً ﷺ رسول الله، وأنه لا يصوغ عقيدة من عنده، وإنما يتلقى الوحي بها من ربه، شأنه في ذلك شأن جميع الرسل من قبله، كما قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: 25]، ولكن دعنا نسأل المستشرق: إذا كنا لا نجد العقيدة الإسلامية الواضحة في القرآن فأين نجدها إذن؟ ويجيب المستشرق العلامة: نجدها في الحديث! وتذكر أيها القارئ مرة أخرى أن هذا المستشرق ـ كغيره من المستشرقين ـ يزعم أن الحديث ـ أو أكثره ـ ليس من كلام محمد ﷺ، بل من كلام الصحابة والتابعين وتابعي التابعين!وطبقاً لهذه الافتراءات يصبح الإسلام كله من وضع البشر، وليس ديناً

(1) انظر: فنسنك العقيدة الإسلامية(بالإنجليزية) ص17.

(2) انظر: فنسنك العقيدة الإسلامية(بالإنجليزية) ص19.

أنزله رب العالمين، على خاتم الأنبياء والمرسلين! وهذه الافتراءات وأمثالها هي التي يسميها المستشرقون وعملاؤهم: «دراسات موضوعية».

يتحدث المستشرق عن العلاقة بين العقيدة الإسلامية والحديث النبوي فيقول: «بوجه عام، فإن أقدم نموذج للشهادة (كلمة التوحيد) نجده في الحديث (النبوي)، أي في الكتابات التي تأخذ شكل أقوال تنسب إلى محمد ﷺ، ولكنها (أي الأحاديث النبوية) في الحقيقة مرآة لتاريخ الأفكار الإسلامية خلال القرن الأول الهجري (أي أنها أحاديث موضوعة). ففي الحديث نجد أقدم المناقشات والتعريفات للإيمان والإسلام، والإيمان وعلاقته بالعمل، وأركان الإسلام، وعقيدة اليوم الآخر[1]. وكان لا بد أن تمر عدة عقود من الزمان بعد وفاته ﷺ لنجد علماء المسلمين يعبرون عن العناصر الجوهرية في الإسلام، ويوضحون العقيدة الإسلامية، ويصوغون كلمة الشهادة، ويعددون الأركان الخمسة للإسلام، ويضعون ذلك كله في أحاديث ينسبونها (كذباً) إلى الرسول ﷺ[2] ويصرح المستشرق بهدفه الحقيقي من «دراسة» الحديث فيقول: «ان كتب الحديث ـ وهي مصدرنا الرئيسي (لجمع) المعلومات عن التطور المبكر لعلم العقيدة الإسلامية ـ قد حفظت (لنا) سلسلة من أقوال محمد ﷺ التي يجب أن تعتبر حصيلة لجهد (علمي) في العقيدة، قام به جيل الصحابة»[3]، أي أن هذه «الأقوال» (الأحاديث النبوية) ليست من كلام الرسول ﷺ، بل من وضع الصحابة، وهذه الأحاديث الموضوعة هي التي وضحت

(1) انظر: فنسنك العقيدة الإسلامية(بالإنجليزية) ص1-2.

(2) انظر: فنسنك العقيدة الإسلامية(بالإنجليزية) ص19.

(3) انظر: فنسنك العقيدة الإسلامية(بالإنجليزية) ص19.

العقيدة الإسلامية، ومهدت لصياغة كلمة الشهادة وتحديد أركان الإسلام! وإذن فلأجل أن نفهم «التطور» الذي حدث في العقيدة الإسلامية ينبغي أن نركز على «دراسة «الحديث النبوي!

ولتسهيل هذه «الدراسة» كان لا بد لفنسنك وأصحابه من وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي للوصول بسهولة إلى هذه الأحاديث، واستخدامها في هدم الإسلام من قواعده! وهكذا يتضح لنا «منهج» المستشرق: انه الطعن في العقيدة عن طريق الحديث. والنتيجة الحتمية هي الطعن في كليهما[1].

كلمة أخيرة:

يجب أن نؤكد على أننا نحن أهل الشرق لا نرفض دراسات المستشرقين في مجال الفكر الإسلامي بل نتحاور معها شريطة أن تتحلي بروح الموضوعية المنصفة، ثم نتعامل معها على أساس الدراسة والنقد والتمحيص، ونحن نرحب بكل فكر ما دام ليس فيه عدوان على الإسلام، وهو مبدأ من أوليات مبادئه، يقول الله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ [النحل: 125] فالإسلام وسيلته في الحوار: «الحجة البالغة، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، واستبعاد كل أساليب الإكراه» ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ [البقرة: 256] وبالتالي يمكن أن نعلن أنه قد انتهي العصر الذي كان يقول فيه المستشرقون حرفا فيرد عليهم أهل الشرق آمين!!. وعلى الرغم من انقضاء عهد الاستشراق الذهبي إلا أن نقده ما

(1) أنظر: رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد عبد الحميد غراب، ص89.

زال مستمراً وإذا أردنا أن نؤسس لعلاقة جديدة بين الشرق والغرب أو بتعبير أدق بين الإسلام والغرب، علينا أن نطلع على جذور المد المعرفي لكلتا الحضارتين.

وهناك عدة أمور لابد أن نقر بها:

أولاً: أن الدراسات الاستشراقية مهما كانت موضوعية في مضمونها ومحتواها إلا أنها لم تسلم من تعصب وهوى والعمل على خدمة نزعات دينية واستعمارية ـ إلا من رحم ربي ـ.

ثانياً: لا تخلو هذه الدراسات من هنات وأخطاء لغوية وأحياناً علمية وتاريخية مقصودة أو غير مقصودة.

ثالثاً: هؤلاء القوم مهما بلغت معرفتهم بلغتنا فأنه يغيب عنهم روح الشرق وعبقرية ألفاظه وتعبيراته التي تؤدي إلى معان شتى ولذا قد نجد بعض من نتائجهم العلمية خاطئة ناهيك عن تعمد البعض منهم ذلك.

رابعاً: لا نتوقع منهم جميعاً أن يتحدثوا عن الحضارة الإسلامية والرسول الكريم كما نتحدث نحن المسلمين[1].

(1) انظر: معجم افتراءات الغرب على الإسلام والرد عليها، أنور الزناتي، ص116.

التوصيات

1- إنجاز موسوعة للرد على المستشرقين، وتشكل لها هيئة علمية للإشراف والمراجعة.

2- إنجاز دائرة معارف إسلامية جديدة لتنقية التراث الإسلامي.

3- الحضور الإسلامي في الغرب.

4- الحوار مع المستشرقين المعتدلين.

5- إنشاء دار نشر إسلامية عالمية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع

- الاستشراق، أنور الجندي. ـ القاهرة: دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع.
- الاستشراق والمستشرقون، الدكتور مصطفى السباعي، الطبعة الثالثة، بيروت: المكتب الإسلامي، 1405هـ ـ 1985م.
- الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، الطبعة ثانية مزيدة ومنقحة. ـ جدة: دار المنارة للنشر ـ والتوزيع، 1406 هـ - 1986 م.
- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري. الطبعة الأولى، القاهرة: مكتبة وهبة، 1408هـ 1988م.
- حقيقة الاستشراق وموقفه من الإسلام، محمد بهاء الدين حسين أحمد، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، 2003م.
- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، الدكتور إبراهيم عوض. ـ الطبعة الأولى. ـ القاهرة: مكتبة البلد الأمين، 1419 هـ ـ 1998م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية ط1. ج1. مركز الشارقة للإبداع الفكري. 1418هـ
- المستشرقون، نجيب العقيقي. ـ الطبعة رابعة موسعة. ـ القاهرة: دار المعارف، 1980م.
- المستشرقون، نجيب العقيقي. ـ الطبعة رابعة موسعة. ـ القاهرة: دار المعارف، 1981م.
- سموم الإستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، أنور الجندي القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، 1984م.
- موسوعة المستشرقين، الدكتور عبد الرحمن بدوي. ط3، طبعة جديدة منقحة ومزيدة بثمانين مادة جديدة. بيروت: دار العلم للملايين، 1993 م.

- الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. الرياض: دار الرفاعي، 1983م.
- الإسلام وشبهات المستشرقين، فؤاد كاظم المقدادي، مجمع أهل البيت، إيران.
- معجم افتراءات الغرب على الإسلام والرد عليها، أنور الزناتي، دار الآفاق العربية. 2009م.
- الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله محمد الأمين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1997م.
- أنظر: رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد عبد الحميد غراب، ط2، 1411هـ المنتدى الإسلامي.
- المستشرقون والسيرة النبوية، «مناهج المستشرقين»، عماد الدين خليل، المنظمة العربية.
- مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، خالد بن عبد الله القاسم، دار الصميعي بالرياض، الطبعة الأولى: 1431هـ ـ2010م.